اعداد مكتبة الروضة الحيدرية

المكتبة الرقمية

الرسائل الجامعية

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الكوفة – كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

خطِّيَّة الخلق والبناء في نهج البلاغة

رسالة مقدمة إلى مجلس كلية التربية للبنات – جامعة الكوفة وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

تقدَّمت بها

الطالبة

زينب ثجيل نعمة

بإشراف

الأستاذ الدكتور	الأستاذ المساعد الدكتور
عبد الكاظم محسن الياسري	ناصر عبد الإله دوش
مشرف أول	مشرف ثانٍ

1438هـ

2016م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((إذ قال ربك للملئكة اني خالق بشرا من طين * فإذا سويته و

نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين *))

صدق الله العلي العظيم

(سورة ص: 71-72)

.....

إقرار أعضاء لجنة المناقشة

نحن أعضاء لجنة المناقشة نشهد أنَّنا اطلعنا على هذه الرسالة الموسومة بـ((خطِّيَّة الخلق والبناء في نهج البلاغة)) والمقدّمة من الطالبة((زينب ثجيل نعمة))وقد ناقشنا الطالبة في محتوياتها وفيما له علاقة بها ، وهي جديرة بالقبول بتقدير( ) لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وادابها

رئيس اللجنة
الاسم : محمد عبد الزهرة الشريفي
الدرجة العلمية :الأستاذ الدكتور
العنوان كلية التربية الأساسية / جامعة الكوفة
التوقيع :
التاريخ : / / ٢٠١٧م

عضوا
الاسم : عبد الحسين عبد الرضا العمري
الدرجة العلمية : الأستاذ المساعد الدكتور
العنوان : كلية الآداب / جامعة ذي قار
التوقيع :
التاريخ : / / ٢٠١٧م

مشرف أول
الاسم : عبد الكاظم محسن الياسري
الدرجة العلمية : الأستاذ الدكتور
العنوان : كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة
التوقيع :
التاريخ : / / ٢٠١٧م

عضوا
الاسم : عباس علي الفحام
الدرجة العلمية : الأستاذ المساعد الدكتور
العنوان : كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة
التوقيع :
التاريخ : / / ٢٠١٧م

مشرف ثان
الاسم : ناصر عبد الإله دوش
الدرجة العلمية : الأستاذ المساعد الدكتور
العنوان : كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة
التوقيع :
التاريخ : / / ٢٠١٧م

صادق عليها مجلس كلية التربية للبنات جامعة الكوفة في جلسته ( ) والمعقودة في / / ٢٠١٧م .

الأستاذ المساعد الدكتور : ايمان عبد المالك عبد علي الحلو
عميد كلية التربية للبنات
٢٤ / ٤ / ٢٠١٧م

إقرار المقوم العلمي

أشهد أن الرسالة الموسومة بـ (**خطّيَّة الخلق والبناء في نهج البلاغة**) المقدمة من طالبة الماجستير (**زينب ثجيل نعمة**) في قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات/ جامعة الكوفة، وقد قوّمتها علمياً ووجدتها جديرةً بالقبول والمناقشة

التوقيع:

الدرجة العلمية: استاذ

الاسم: نجاح فاهم صابر

مكان العمل: جامعة كربلاء

كلية التربية للعلوم الانسانية/ قسم اللغة العربية.

إقرار المشرفَـين

نشهد أنَّ إعداد هذه الرسالة الموسومة (**خطِّيَّة الخلق والبناء في نهج البلاغة**) التي قدّمتها الطالبة (**زينب ثجيل نعمة**) قد جرى بإشرافنا في كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في آداب اللغة العربية.

توقيع المشرف الأول

الاسم : عبد الكاظم محسن الياسري

العنوان : أستاذ دكتور

التاريخ : / / ٢٠١٦م

توقيع المشرف الثاني

الاسم : ناصر عبد الإله دوش

العنوان : أستاذ مساعد دكتور

التاريخ : / / ٢٠١٦م

توصية رئيس القسم

بناءً على توصية الأستاذين المشرف أرشح هذه الرسالة للمناقشة

التوقيع :

الاسم : عباس علي الفحام

العنوان : أستاذ مساعد دكتور

التاريخ : / / ٢٠١٦ م

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	4 – 1
التمهيد : الخطِّيَّة / مفهومها – محاورها – مرادفاتها في المفهوم	23 – 5
مفهوم الخطِّيَّة	5
الخطِّيَّة لغة	6
الخطِّيَّة اصطلاحا / محاور الخطِّيَّة	18 – 7
مقاربات الخطِّيَّة في مفهومها الاصطلاحي	23 – 18
الفصل الأول : خطِّيَّة الخلق	24
مدخل	26–24
المبحث الأول : أنواع الخلق	27
الخلق التقديري	35 –27
الخلق الإبداعي	43 – 36
المبحث الثاني : خطِّيَّة الخلق الوجودي بين اللغة والكون	46 –44
الوجود الخارجي	51 – 46
الوجود المادي	58 – 52
الوجود المجرد	63 – 59
الوجود الذهني	69 – 64
المبحث الثالث : خطِّيَّة الخلق الفكري	81 – 70
الفصل الثاني : خطِّيَّة البناء	82
مدخل : مفهوم البناء	86 – 82

المبحث الأول : خطِّيَّة البناء التركيبي	87
1- البناء التركيبي النفسي	94 – 87
2- البناء التركيبي التشخيصي	101 – 95
3- البناء التركيبي المنطقي	106 - 102
المبحث الثاني : خطِّيَّة البناء الدلالي	107
1- الإجمال والتفصيل	113 - 108
2- التضاد	119 -114
الفصل الثالث : العلاقة الخطِّيَّة بين الخلق والبناء	120
مدخل	121 - 120
المبحث الأول : علاقة التضامن	122
1- التضامن الطبيعي الطوعي	123
2- التضامن الوجوبي	125
3- التضامن الاجتماعي	129
4- تضامن التشابه والاتحاد	132
المبحث الثاني : علاقة التكامل	150 -138
المبحث الثالث : علاقة التلازم	159 -151
أولا : التلازم المطلق	152
ثانيا : التلازم النسبي	155
الخاتمة	160
المصادر والمراجع	173 – 163
الملخص باللغة الانكليزية	A-B

الإهداء

إلى أمير الكلم...

إِنّي بِبَابِكَ قَد وَقَفتُ مُلَبِّيـاً

هَب لِي عَطَاءً سَيدَ الكَلِمَاتِ

إلى التي هي في ضيافة أمير المؤمنين(عليه السلام) كانت روح نبي وقرآن محبة...

أمي

إليك أنت الذي ما نزلت فراقا عذبا ... روحا وقلبا ..

أبي

أهدي هذا الجهد المتواضع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاةِ والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين .

أما بعد ...

فلا شك أنَّ علم اللسانيات من العلوم التي تطورت في القرن العشرين حتى دخلت ميادين كثيرة ترتبط بالإنسان من جهتين : ارتباطاً تكوينيًا ؛ لأنَّ خلق اللسان ووجوده مطلق ملازم للوجود الإنساني ، وارتباطًا بنائيًا عن طريق استعداد الإنسان وتهيؤه لإتمام الظاهرة اللغوية ، وهذا يترجم التتابع الخطِّي من الناحيتين التكوينية والبنائية ، ويترجم التراتب الخطِّي بين الواقع واللغة الحاكية عن ذلك الواقع.

سبب الاختيار

يعد الخطاب العلوي من أبرز النصوص التي تهيئ للباحثين فرصة البحث في مفهوم الخلق والبناء ؛ لكونه نصاً مكتنزاً امتلك الزمن فوجد له صدًى في أزمنة مختلفة وأمكنة متباعدة ، وهذا هو سر ديمومته وخطِّيَّته المتعاقبة تارة والمتزامنة تارة أخرى ، فضلاً عن شموليته لكل جوانب الحياة السلوكية والمعرفية والفلسفية والطبيعية المجردة وغير المجردة المتناغمة في حركيتها مع حركية الكون ، وغيرها من الأحداث المختلفة المتسلسلة الدالة على أفقية الزمان وخطِّيَّته .

هدف البحث

أ

إنَّ هدف البحث هو بيان استجلاء خطِّيَّة الخلق والبناء في نهج البلاغة بوصفه نصاً بشرياً يحمل روحاً سماوية قد أوضح في كثير من نصوصه أنَّه يتماشى مع المنظومة الكونية تماشياً خطِّيَّاً ، تزامنياً وتعاقبياً، وهو ما كان سبباً في أن يكون البحث سابقاً لغيره في هذا المضمار.

1

سابقة البحث

إنَّ البحث بهذا العنوان مجملاً ، وموضوعاته المحددة تفصيلاً ، لم يشهد الدرس اللغوي دراسة مناظرة له ، ولم أقف على دراسة تناولته بهذا المضمون ، وعليه جاءت هذه الدراسة ممارسة تطبيقية على نهج البلاغة ، وسارت ضمن منظومة خطِّيَّة منتظمة درست النظام الجملي الذي يناظر النظام الكوني ؛ نظراً للعلاقة القائمة بين اللغة والكون بوصفهما نظامين متناظرين في تكوينهما ، فجاءت هذه الرسالة الموسومة"**خطِّيَّة الخلق والبناء في نهج البلاغة** " لتبيّن هذه العلاقة ، التي اقتضت هيكليتها أن تكون كالآتي في خطة البحث.

خطة البحث

قامت خطة البحث على ثلاثة فصول تسبقها مقدمة وتمهيد ، وتلحقها خاتمة بأهم النتائج ، ومن ثم قائمة المصادر والمراجع ، وملخص باللغة الانكليزية .

تضمن **التمهيد** التعريف بمفهوم (الخطِّيَّة) في اللغة والاصطلاح ، وقد تناولته مفهوماً رياضياً امتد استعماله إلى اللسانيات الحديثة ؛ إذ جاء منفردًا بهذه الجزئية من العنوان مبيناً في ذلك محاورها التي ارتكزت عليها ، ومن ثم عرض مرادفاتها وتوضيحها اصطلاحياً.

واشتمل **الفصل الأول** على مدخل تعريفي لمفهوم الخلق وثلاثة مباحث ، تناول **المبحث الأول** منها: "أنواع الخلق" ، وبيَّن **المبحث الثاني** منها: "الخلق الوجودي" ، وتناول **المبحث الثالث** الخلق الفكري.

ودرس **الفصل الثاني** : "خطِّيَّة البناء" ، وجاء بمدخل تعريفي للبناء والبنية المرادفة له في الجذر اللغوي ، وقد قسمته على مبحثين : تناول **المبحث الأول** : "خطِّيَّة البناء التركيبي"، في حين درس **المبحث الثاني** : "خطِّيَّة البناء الدلالي" .

وأوضح **الفصل الثالث** : العلاقة الخطِّيَّة بين الخلق والبناء ، وجاء مقسَّماً على ثلاثة مباحث، تناول **المبحث الأول** : "علاقة التضامن" ، الذي أوضح أنَّ البناء عمل انجازي للخلق ، ودرس **المبحث الثاني** : علاقة التكامل ، وقد جاء على أساس أنَّ البناء عملية مكملة لعملية الخلق وإظهارها للواقع المرئي ، على حين تناول **المبحث الثالث** : علاقة التلازم ، الذي كان بمثابة السبب والنتيجة ، وهو أنَّ البناء نتيجة محصلة ولازمة لعملية الخلق. وانتهت الرسالة إلى خاتمة أجملت فيها النتائج التي توصل إليها البحث .

واستقى البحث مادته العلمية من المصادر القديمة والمراجع الحديثة المهمة ، العربية منها والغربية المترجمة التي ساعدت الباحثة على إكمال البحث على ما هو عليه ، ولا يكاد يخلو عمل بحثي من الصعوبات على اختلافها عدة ولينا ، كثرة وقلة .

وقبل الختام أقول : إن كان من شكر **فللأستاذ الدكتور عبد الكاظم محسن الياسري**" لما أبداه من متابعة ورأي علمي سديد وكلمة طيبة ، فكان الأب الرحيم والأستاذ المدقق ، كما أتقدم بالشكر للأستاذ المساعد الدكتور **ناصر عبد الإله دوش** لما أبداه من لمسات علمية وتوجيهات قيِّمة أغنت البحث.

الباحثة

التـمهـيــد

مفهوم الخطِّيَّة

عُني اللسانيون وعلماء الدلالة الحديثة بدراسة كثير من المفهومات التي لها علاقة بالدرس اللساني الحديث ونتج عن ذلك جملة من العلوم التي أصبحت فيما بعد مستقلة بذاتها نوعاً ما ، كالسيميائية والشعرية والتداولية وعلم النص وغيرها من العلوم والمفهومات، وأولوها أهمية في دراساتهم وأبحاثهم ، إلا إنَّ ما وجدناه لديهم عن مفهوم الخطِّيَّة لا يرقى إلى مستوى اهتمامهم بتلك المفهومات ، على الرغم من أهمية مفهوم الخطِّيَّة في الدرس اللغوي واللساني الحديث ؛ إذ لم يحظ هذا المفهوم بتلك العناية التي حظيت بها المفاهيم والمصطلحات اللسانية.

فالخطِّيَّة من المفهومات التي جرى تداولها ، مثلاً ، في العلوم الصرفة ولاسيما الرياضيات والفيزياء [1] ، بعكس ما موجود في اللسانيات الحديثة ؛ إذ تعتمد الرياضيات

---

[1]) فإذا قيل إن الرياضيات هي ((علم الامتداد المتصل والمنفصل)) ، نقلا عن علاقة اللسانيات بالرياضيات رهانات أم عقبات ، مجلة المخاطبات : 99 ، فإن الخطِّيَّة تقاربها في حدها ؛ إذ إنَّ الخطِّيَّة يكون فيها الزمان متصلاً وان انفصلت أحداثه ، والرياضيات يعبّر عنها بأنَّها "لغة العلوم" التي تتصف بالدقة التامة في التعبير عن الأفكار والمعاني ، وأنَّها تستعمل الرموز ، ما يوفر لها الاختصار ويجعلها لغة عالمية تسهل التواصل بين الشعوب وحضاراتها ، وأيضا تسهم في إيجاد طر ائق للتفكير ، ولا ننسى العلاقة الوطيدة بين

والفيزياء في أغلب نظرياتهما على الرمز والإشارة ، ومن المعلوم أنَّ اللغة العربية تميل إلى الإيجاز والاقتصاد ، وغالباً ما تستعمل الرمز والإشارة والإيحاء للتعبير عن المعنى المقصود وإيصاله إلى المتلقي ، وهي هنا تشترك مع الرياضيات والفيزياء في تلك الخاصية التي أشرنا إليها.

ولربما نتيجة لهذا التداخل صار مفهوم الخطِّيَّة من المفاهيم الرياضية اللغوية التي تدور حول دلالات معينة يمكن عن طريقها التقريب بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ، وسنعرض تصوراً عن هذه المقاربة :

الخطِّيَّة لغة :-

من أبرز معانيها الموضع والتسطير والامتداد بما يحمله من آثار، وقد ذكر الخليل (ت175هـ) المعنى الأول والثاني بقوله :((الخط أرض تنسب إليها الرماح ، ويقال : رماح

اللغة والتفكير فهي علاقة تبادلية تأثيرية ، فاللغة تنمو مع التفكير ولا تفكير من دون لغة ، وتسهم الرياضيات أيضا في إيجاد العلاقات بين الأفكار الرياضية شأنها في ذلك شأن اللغة التي تسهم هي الأخرى في إيجاد العلاقات والروابط بين الجمل والتراكيب داخل النص الواحد ، ظ: أسس الرياضيات والمفاهيم الهندسية الأساسية ، فاضل سلامة شنطاوي : 15 . و في علم الفيزياء أشير إلى معنى الخطِّيَّة معبِّرا عنها بالبعد الرابع وهو = =الزمن متصلا بالمكان ، فقد شبه البعد الرابع بشريط سينمائي لو أدير ببطء من أجل عرض محتوياته بشكل منفصل لوجدنا أنَّ كل صورة فيه تحتوي على بعدين : الأول فيما إذا كانت اللقطة منفصلة وعلى أبعاد ثلاثة، والثاني إذا كانت اللقطة متصلة ، وفي كلا الحالين لا نرى حراكاً فيها حتى يدار الشريط بسرعة مناسبة ، فعند ذلك سيضيف العقل بعدا رابعا ، وهو الزمن فتصبح اللقطات المنفصلة متصلة رواية ذات تتابع زمني ، ظ : اينشتاين والنسبية ، مصطفى محمود : 89 .

خطية، فإذا جعلت النسبة اسما لازما ، قلت : خطية . والتخطيط كالتسطير ، وتقول : خططت عليه ذنوبه ، أي سطرتها))[1].

وأما ابن فارس (ت395هـ) فقد عبَّر عن معنى الأثر الامتدادي بقوله : (("خط" الخاء والطاء أصل واحد ؛ وهو أثر يمتد امتداداً ، فمن ذلك الخط الذي يخطه الكاتب ،...، وأما قولهم: في رأس فلان خطية فقال القوم : إنما هو خطة ، فان كان كذا فكأنه أمر يخط ويؤثر))[2] ، وبإشارته للموضع أو المكان يشير إلى ما تستند عليه الخطِّيَّة في أحد جوانبها الرئيسة ، مشيراً بذلك إلى تراتبية ما يشتمل عليه ذلك الموضع والمكان وبيان ما يترتب عليه من آثار ممتدة.

الخطِّيَّة اصطلاحاً:-

إنَّ المتمعن والمتصفح لعينات من مؤلفات العلماء العرب القدامى في النحو وأصوله[3]، يتبين له أنَّ كلمة (الخطِّيَّة) لم تستعمل فيها بوصفها مصطلحاً أو مفهوماً ، إلا ما ورد عند الجاحظ[4] على سبيل الإشارة ، وهي على ما يفهم أنَّها إشارة إلى الخط المرسوم على الورق ؛ أي الكتابة على الورقة ، وقد عبَّروا عنها بمسميات عدة كالنظم ، فلم يطيلوا النظر في مفهوم الخطِّيَّة وإنَّما أشاروا إليه عرَضاً مندرجا تحت عنوانات أخر لا بوصفه

---

[1]) كتاب العين ، الخليل : 4/ 136- 137 ، مادة (خط) ، و ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : 7 / 287-291 ، مادة (خطط) ، وينظر: تاج العروس ، الزبيدي :19 / 248 وما بعدها ، مادة (خطط) .

[2]) معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس : 2 / 154 مادة (خط) .

[3]) كالكتاب لسيبويه ، المقتضب للمبرد ، الجمل للزجاج ، وأصول النحو لابن السراج .

[4]) ظ : البيان والتبيين ، عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون : 78/1 .

موضوعا مستقلاً بنفسه ، لكن ما ذكره دي سوسير في كتابه (علم اللغة العام) يعد شيئاً ذا بال؛ إذ ورد ذلك في أثناء حديثه عن طبيعة الإشارة اللغوية ، مشيراً إلى إحدى صفتيها الجوهريتين والمتمثلة بـ(الطبيعة الخطِّيَّة للدال) ، التي تمثل المبدأ الثاني الذي ((أهمله علماء اللغة ، لا شك في أنَّهم وجدوه بسيطا جداً ومع ذلك فهو أساسي له نتائج لا تحصى .....إذ إن عمل اللغة بأكمله يعتمد عليه))[1] ، ويبدو أنَّ دي سوسير قد انتقد القدامى في عدم اهتمامهم بهذا المفهوم باعتقادهم أنَّه واضح كل الوضوح ، وأشار إلى أنَّه يمثل مبدأً أساسياً في نظام عمل اللغة بأكمله ، وقد بيّن أهميته في العلاقات الرابطة بين الكلمات داخل النص الواحد ؛ إذ قال : ((تكتسب الكلمات ، في الحديث ، علاقات تعتمد من جهة على الطبيعة الخطية للغة لأنها مرتبطة بعضها ببعض . وهذه الحقيقة تحول دون النطق بعنصرين في آن واحد . إن هذه العناصر مرتبة بصورة متعاقبة في سلسلة الكلام))[2] ، وقد أطلق سوسير على العلاقات الخطِّيَّة بين الكلمات داخل الوحدة النَّصية مصطلح (السنتاكم)[3] ، غير أنَّ الكلمات تكتسب علاقات خارج النص ولا يدعمها التعاقب الخطِّي وإنَّما يكون مركزها الدماغ فتكون الذخيرة اللغوية الموجودة لدى كل متكلم ، التي عبَّر عنها سوسير بالعلاقات

---

[1]) علم اللغة العام ، دي سوسير : 89 .

[2]) المصدر نفسه : 142.

[3]) السنتاكم : مصطلح ينتج عنه الربط الخطِّي بين العناصر نتيجة لترتبها في سلسلة متعاقبة من الكلام ويتألف من وحدتين متعاقبتين أو أكثر ويكتسب العنصر قيمته في السنتاكم لمقابلته لسابقه ، وفيما يأتي بعده،أو معهما في آن واحد ، وأن علاقاتها علاقات حاضرة تعتمد على عنصرين أو أكثر في سلسلة حقيقية فعالة. ظ : المصدر نفسه : 142 -143.

الإيحائية[١] ، وقد تبعه في ذلك تشومسكي في نظريته التوليدية ؛ إذ عبَّر عن هذه العلاقات الإيحائية بتسميات عديدة منها الكفاية اللغوية والبنية العميقة والملكة ، وفي الحقيقة كلها تصب في معنى واحد وهو المعنى اللغوي المجرد الذي يملكه كل متكلم بطريق الفطرة ، والى ذلك أشار في تعريفه للبنية العميقة بأنَّها ((الناتجة عن مجموعة العمليات النحوية الجارية على المؤشر النسقي القاعدي))[٢] ؛ أي عملية توليد تحدث في الذهن جارية على وفق القواعد النحوية .

إلا إنَّ دي سوسير قد قيّد خطِّيَّة الدال في ما إذا كان مسموعاً بقوله :((لما كان الدال مسموعاً(يعتمد على السمع) فهو يظهر إلى الوجود في حيز زمني فقط ويستمد منه هاتين الصفتين(أ) انه يمثل فترة زمنية و (ب) وتقاس هذه الفترة ببعد واحد فقط ، فهو على هيئة خط))[٣] ، وأوضح ذلك فيما بعد أنَّ الدال السمعي له بعد واحد فقط وهو البعد الزمني وبهذا يشير إلى اختلاف ((الدال السمعي عن الدال البصري ، في أن الدال البصري يوفر إمكانية قيام مجموعات على عدة أبعاد في آن واحد في حين أنَّ الدال السمعي له بعد واحد فقط وهو البعد الزمني ، وعناصر الدال السمعي تظهر على التعاقب ، فهي تؤلف وتوضح هذالخاصية حينما نعبر عن الدال ، فيحل الخط المكاني لعلامات الكتابة محل التعاقب الزمني))[٤].

أ-المرتكز الحسي ب- المرتكز المجرد .

---

[١]) ظ : علم اللغة العام : 142 - 143 .

[٢]) نقلا عن محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة ، شفيقة العلوي :54 .

[٣]) علم اللغة العام ، دي سوسير : 89 .

[٤]) المصدر نفسه : 89.

أ- **المرتكز الحسي** : يشتمل على ما لا يدعمه التعاقب الخطِّي والمتمثل بـ (الدال البصري) ، وهذا يعني أنَّ البصر لا خطِّيَّة فيه ؛ لأنَّه من الممكن مشاهدة صور عدَّة في آن واحد ، من دون أن يكون هناك تسلسل في رؤية تلك الصور، في حين ما يشتمل على التعاقب الخطِّي يتمثل بـ (الدال السمعي) ؛ لأنَّ السَّمع يستقبل عناصر الكلام بشكل تراتبي متسلسل متعاقب ، فلا يمكن إقحامه بأكثر من عنصر في آن واحد ؛ لذا قرنها بالخطِّيَّة دون نظيره ، ويبدو أنَّ ورود لفظة السمع بصيغة المفرد ، ولفظة البصر بصيغة الجمع في الكتاب العزيز[١] ، كما في قوله تعالى : ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾**[المؤمنون : 78]** فيه إيماءة إلى خطِّيَّة الدال السمعي دون البصري ؛ ذلك أنَّ السَّمع له بعد واحد بخلاف البصر الذي تتعدد أبعاده من جهة أنَّ العين تستطيع رؤية أكثر من صورة في آن واحد كما ذُكِر.

ب-**المرتكز المجرد** : وهو الدال الذهني الذي يشير إلى الارتباطات الواقعة خارج الوحدة النصية ، فيكون محله الذهن أو الدماغ ، وعليه فلا يكون هناك تعاقب خطِّي بينها، إنَّما تكون هناك سلسلة فكرية رابطة بين عناصر الكلام ، وهو ما ذُكِر سابقا والمعبِّر عنه عند دي سوسير بالعلاقات الإيحائية[٢] ، وعند تشومسكي بالبنية العميقة أو الكفاية اللغوية أو الملكة التي درسها ضمن النظرية التوليدية[٣] ، وقد استعان الأخير بالواقع اللغوي ليعكس تلك

---

[١]) وردت لفظة السَّمع بصيغة المفرد ولفظة البصر بصيغة الجمع في أغلب آيات الكتاب العزيز منها في سورة الإسراء : 36 ، النحل : 78 ، الأحقاف : 26 ، الأنعام : 103 ، فضلا عن اشتقاقاتهما التي شغلت حيزا واسعا من القرآن الكريم .

[٢]) علم اللغة العام : 142.

[٣]) الألسنية والتوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية : ميشال زكريا : 7 ، 17 .

الأفكار المجردة في الذهن على سطح النص ، وما ذلك إلا من أجل الوصول إلى الهدف المنشود لدى المتلقي ، وأما عند الجرجاني فقد عبَّر عنه بمعنى المعنى[١] ، وهذا هو **المحور الأول** من محاور الخطِّيَّة الثلاث- سيرد ذكرها فيما بعد- ، الذي يشير إلى المعنى التراتبي بين الدوال والمدلولات .

والمحور الثاني الذي يدور حوله مفهوم الخطِّيَّة ، يشير إلى المعنى الت عاقبي ، ومن المعلوم أنَّ التعاقب هو سير الأحداث على هيأة سلسلة ، واحدة تلو الأخرى وأكثر ما يكون هذا المعنى مرتبطاً بالحدث الكوني ، وقد أشار إلى هذا المعنى الكتاب العزيز ، قال تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً** ﴾**[الفرقان : 62]** ؛ أي جعل أحدهما يعقب الآخر[٢] . ولما كان الحدث مرتبطاً بالزمان ، والكون بمفهومه اللغوي يعني ما تكوّن منه الشيء ، فهو يدخل ضمن الزمان أيضاً ، وعليه يكون التعاقب مرتبطاً بالزمان من الجانبين الحدثي والكوني ، وقد تناوله الفلاسفة أمثال أفلاطون الذي يرى أنَّ الزمن له حركة دورانية مستمرة سرعان ما تعود إلى سيرتها الأولى [٣] ، فقد صوَّر الزَّمان في مقولته هذه على هيأة دائرة تأتي الأشياء فيه تباعاً ؛ لأنَّ الدائرة بالمفهوم الرياضي تعني ((المنحني المغلق البسيط))[٤] ؛ أي يبدأ من نقطة ثم يعود إلى النقطة التي ابتدأ منها ؛ ليعلن عن بداية مغايرة للبداية الأولى من جهة الحدث ، فهذا الليل يعقب النهار وكذا الحال في فصول السنة والأيام والسنين ، فكلها تمضي لتعود من جديد إلى النقطة التي بدأت منها((ثانية دون تغيير اتجاه

---

[١]) ظ : دلائل الإعجاز ، الجرجاني : 304 وما بعدها .
[٢]) ظ : تفسير الفخر الرازي ، الإمام محمد الرازي فخر الدين : 24 / 106 .
[٣]) ظ : مشكلة الزمن من الفلسفة إلى العلم : 5 .
[٤]) أسس الرياضيات والمفاهيم الهندسية : 47.

الحركة))[1] ما يمكن أن نطلق عليه بالثابت المتغير ، فهو ثابت في زمانه الدوري ((حيث يتقدم تاريخ الكون في سلاسل متكررة الدورات)) [٢] ؛ لذا((كانت الظواهر الدورية المنتظمة في الطبيعة أكثر وضوحاً للأجيال الأولى من البشرية من أجيالنا التي تعيش في ... عالم المدينة التكنلوجية المتحضرة)) [٣] ، وهو متغير في أحداثه المتسلسلة المتتابعة الواقعة فيه. فالتعاقب اليومي لليل والنهار والتعاقب السنوي للفصول من الشواهد البينة الثابتة على دورية الزمان[٤].

أما أرسطو الذي هو تلميذ أفلاطون فقد نبذ مبدأ الدوران للزمان وأخذ ينظر إليه بوصفه ذا مسار خطِّي يتسم بالاستمرارية [٥] ، وهذا يعني أنَّ أرسطو قد فصل الكون عن الأجرام السماوية ، وجعل من الكون مساحة تتحرك فيها الأجرام ، ومن ثم ربط الزمن بحركتها ؛ إذ يرى أنَّ الكون أزلي ثابت ، تماماً مثل السبورة التي بمثابة الكون الأزلي الثابت والكتابة عليها هي بمثابة الأجرام المتحركة ، فيمكن فصل الكتابة عن السَّبورة .

وهناك فكرة تشبّه الزمان بخط مستقيم (الزمان الخطِّي) ، وهذه المقاربة التي بين الزمان والخط المستقيم تشير إلى أنَّ الزمان له بُعد واحد ، ومثلما نتصور الخط بأنَّه شكل متكون من مجموعة من النقاط المتصلة المتتابعة ، فكذلك الزمان يمكن أنَّ نتصوره تتابعاً من

---

[2]) المصدر نفسه : 27 .

[3]) فكرة الزمان عبر التاريخ ، ترجمة ، فؤاد كامل : 159 .

[٣]) المصدر نفسه : 159 .

[٤]) لا فرق بين الزمان والزمن ، فيقال ((لقليل الوقت وكثيره))لسان العرب : 13 / 199 ، ويبدو أن الألف المديِّة في الزمان تومئ إلى امتداد الوقت وطوله ، على العكس من لفظة الزمن التي يفهم منها محدودية الوقت ؛ ذلك انطلاقا من قاعدة صرفية تقول : كل زيادة في المبني زيادة في المعنى .

[٥]) ظ : مشكلة الزمن من الفلسفة إلى العلم : 5.

اللحظات والآنات المنسابة نحو اتجاه واحد ، فهو عبارة عن نظام من التعاقبات لوجودات متتابعة مشتركة[١].

ورب سائل يسأل ، كيف يكون الزمان دوريا خطِّيَّاً في آن واحد ؟

وللإجابة عن هذا السؤال نقول : لا ضير في ذلك ؛ فالزمان خطِّي في سيرورته ودوري في تكرار أحداثه ، ولكن لحظات وآنات الحدث الحاصلة في اليوم الأول هي غيرها الحاصلة في اليوم الثاني.

وهذه الوقائع الكونية ، قد سعت اللغة إلى تفسيرها وتقديم قراءة واضحة لها وإيصالها إلى الذهن البشري من أجل إدراك ما حوله . وقد أوردت الباحثة "مليكا أفيتش" مقولات دي سوسير الأساسية عن اللغة وذكرت ((أن اللغة نظام ، ويجب أن تدرس على هذا : فلا ينبغي أن تؤخذ الحقائق الفردية معزولة بعضها عن بعض ، بل على أنها دائما أجزاء من نسق كلي))[٢] ، ما يعني أنَّ الحقيقة لا يمكن تجزئتها بل يجب أخذها على أنَّها كلٌّ واحد موحد ، وهو ما أراده دي سوسير من ذلك أنَّ اللغة تمثل الحقيقة ، وبما أنَّ التعاقب مرتبط بالحدث الكوني ، وهذا الأخير يمثل الحقيقة الكونية ، والحقائق تأتي متتالية فاللغة تعبر عن هذه الحقائق على التوالي ، إذن لابد من تسلسل الكلام وتتابعه لنقل وقائع الأحداث الكونية المتتالية المتعاقبة ؛ لأنَّ ((سلسلة الكلام تتمثل لنا بالضرورة على شكل خط ،...، ولا تستطيع الفوارق النوعية أن تعبر عن نفسها إلا متتالية)) [٣] ، ومثلما الحقائق الكونية سائرة على خط

---

١) ظ : فكرة الزمان عبر التاريخ : 162

٢) اتجاهات البحث اللساني ، مليكا أفيتش ، ترجمة : سعد عبد العزيز مصلوح ، وفاء كامل فايد : 194 .

٣) البحث عن فردينان دي سوسير، ميشال أريفيه ، ترجمة : أ.د. محمد خير محمود البقاعي: 178 .

واحد وفي بعد زماني واحد كذلك اللغة المعبَّرة عنها ، فالجهاز اللغوي الصادر منه الكلام ((يشبه عمل محرك تقوم أجزاؤه بوظائفها ، معتمدا بعضها على البعض الآخر، مع أن هذه الأجزاء مرتبة في بعد واحد أي أنها على هيئة خط)) [١] ، وخير دليل على تعاقب اللغة وتتابعها لتسلسل الحقائق الكونية المرتبطة بالزمان وتعاقبها هو ظهورها((للعيان بمجرد أن ترسم تلك العناصر بالكتابة ، وتعوض بالتتابع قي خط الزمان بالتتابع في خط المكان بواسطة علامات الكتابة)) [٢] ، فالعلامات الكتابية والرموز مؤشر ملموس على التتابع والتعاقب الخطِّي للأحداث والوقائع الزمنية الكونية ، واللغة الحاكية عنها ترى أنَّ هذه الحقيقة الكونية الزمنية المتكاملة ؛ إنَّما تكاملت نتيجة مرور جزئياتها بمراحل خطِّيَّة متتابعة ، ومن الحقائق الكونية الزمنية الخطِّيَّة في تكوينها ما أشار إليه الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾**[المؤمنون : 14]** ، فيلحظ الخطِّيَّة الأفقية للجزئيات المرحلية لخلق الإنسان ، وهذه الجزئيات المكونة للحقيقة الكونية والمعبَّر عنها باللغة المعيّنة لابد من أن تكون هناك علاقات منظمة متقاربة بينها تسير في مستوى واحد ؛ لأنَّ العلاقات النَّظمية ((تتعلق بالصفة الخطِّيَّة "الأفقية" للغة ، أي بتتابعها الزمني)) [٣] ، ويتضح من المذكور آنفاً أنَّ التعاقبية تتعلق بالأحداث الكونية العينية المتحققة على أرض الشهود ، ما يقتضي وجود فاصل زمني بين حدث وآخر؛ لأنَّ الأحداث لا تقع مجتمعة في آن واحد ، وهذا ما يعزز خطِّيَّة الزمان الأفقية ، فيكون الزمان فيها طويلاً ماضياً ومستقبلاً مروراً بالحاضر، على

---

١) علم اللغة العام : 148.

٢) البحث عن فردينان دي سوسير : 178.

٣) النظرية الألسنية عند جاكوبسون ، فاطمة الطبال بركة : 37 .

العكس من التراتبية فتكون متعلقة بالحدث المروي أو المكتوب بغض النظر عن كونه متحققاً أو لا ، فيكون الزمن فيها قصيراً سريعاً حاضراً .

أما **المحور الثالث** التزامنية وتعني مجموعة من الأحداث وقعت في زمن واحد ، بغض النظر عن كون هذه الأحداث مترابطة فيما بينها ظاهراً أو غير مترابطة ؛ لأنَّ التزامن ((يقتضي كونا تكون فيه جميع الحوادث غير المرتبطة بعضها ببعض في الظاهر متحابكة بحيث تشكل نسيجاً عالمياً متمادياً متصلاً)) [1] ، فضلاً عن كونها مترابطة ، وهذا ما دعا إليه كل من اينشتاين وديفيد هيوم في نظريتيهما–النسبية والسببية– إذ يريان أنَّ الكون كلٌّ لا انقسام فيه وأنَّ الحوادث فيه مرتبطة ارتباطاً صميمياً لا فكاك منه وان اختلفت أنواعها وأشكالها[2] ، والمتمعن للظواهر المحسوسة كظاهرة الليل والنهار والفصول الأربعة وتعدد الأيام والسنين يدرك أمرين:

– أنَّ الكون يتأرجح بين حالتي الثبات والتغير ، فهو ثابت من جهة تكرار الحدث ومتغير من جهة تنوع جزئيات الحدث.

– أنَّ التعالق النسيجي في النظام الكوني والترتيب التزامني يسير على وفق مجموعة من القوانين والأنظمة التي تربط بين جزئيات الأحداث لجعلها وحدة ثابتة ومستقرة ، فتكون بذلك منظومة متكاملة يكون كل جزء فيها مكملاً للجزء الذي يسبقه وممهداً لتاليه .

---

[1]) التزامن والأسطورة والألعبان ، ألان كومبس ، مارك هولند ، ترجمة ، ثائر ديب : 54 .

[2]) ظ : التزامن والأسطورة والألعبان: 54 .

وكلا المدركين نجدهما أيضا في النظام اللغوي الشامل للنص والجملة والمفردة ، وكأن هناك تناغماً بين حركة الكون الثابتة المتجددة ، وحركة اللغة في المفردات المكونة للجمل والنص على السواء ؛ لكونها تتناغم في تجددها وتماسكها المستمد من التجدد الحركي للكون في وجوده وسرمديته ، فيمكن أن يعد النص كوناً وكل ما في الكون من عناصر هو نتاج لذلك النص ، ثم أنَّ هذا التجدد والتحول من حالة إلى أخرى يشير إلى الحيوية والتغير، وهذا ما أشار إليه جاكوبسون في أثناء حديثه عن التزامنية ؛ إذ قال : ((والتغيير يحصل دائما في كل مقطع تزامني ، لأنَّ التزامن الحقيقي حيوي ومتغير. ففي الأدب كما في اللغة وفي الظواهر الاجتماعية هناك دائما بعض التجديد وبعض الخروج على الأشكال القديمة)) [١] أو المألوفة ، فالدراسة التزامنية تدرس ((العلاقات بين المفردات المتواجدة في الجملة الواحدة أو النص الواحد... دون اللجوء إلى معرفة تاريخ كل لفظة وتطور استعمالاتها)) [٢] كما هو الحال في الدراسة التعاقبية ، وقد توصل جاكوبسون إلى أنَّ ((الدراسة التعاقبية تقوم إذن على مجموعة من الدراسات التزامنية المتتابعة))[٣] ، وهذه المعاني – التراتبية والتعاقبية والتزامنية– التي تندرج تحت مفهوم الخطِّيَّة ، تشير إلى السير باتجاه واحد زماناً لا مكاناً ، وقد وردت في القرآن الكريم ضمناً ، منها قضية إرسال الأنبياء والرسل ، فهي قضية تكمن فيها هذه المعاني ظاهرة تارة وباطنة تارة أخرى ، مثالها قضية إرسال موسى وهارون [٤](**عليهما السلام**) إلى بني

---

[١]) النظرية الألسنية عند جاكوبسون : 35 .

[٢]) النظرية الألسنية عند جاكوبسون : 36 .

[٣]) المصدر نفسه : 35 .

[٤]) وردت تزامنية نبوة موسى وهارون عليهما السلام في مواقع كثيرة من القرآن الكريم منها الآيات : 142 الأعراف ، 75 يونس ، 53 مريم ، 45 المؤمنون ، وقد ورد التزامن أيضا في نبوة إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) في آية 125 سورة البقرة ، ونبوة يعقوب ويوسف (عليهما السلام) في سورة يوسف ، وكذلك ورد هذا

إسرائيل ؛ إذ قال تعالى في محكم كتابه: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ**﴾[القصص : 34] فهي تحمل المعاني الثلاثة :

• المعنى التزامني ؛ لكونهما نبيين بُعِثا في زمان واحد إلى هداية قوم فرعون .

• المعنى التعاقبي؛ لكون نبوة هارون(**عليه السلام**) جاءت بعد نبوة موسى (**عليه السلام**)؛ أي بعد دعوة من موسى (**عليه السلام**) لربِّه ؛ بأن يجعل له وزيراً من أهله، ما يعني أنَّ هناك مدة زمنية بين دعوة موسى (**عليه السلام**) وبين صيرورة هارون (**عليه السلام**) نبياً.

• وهي تراتبية ؛ لأنَّ الوقائع الحاصلة وصلتنا عن طريق الرواية والسرد بشكل متسلسل، والزمن فيها سريع حاضر ، لا يكون هناك متسع من الوقت بين حدث وآخر في أثناء سردها أو روايتها .

وبما أنَّ الحديث في معرض بيان الفروق بين هذه المعاني ، وُجِد أنَّ التزامنية أعم مطلقاً من المعنيين السابقين ؛ لأنَّ الأحداث تستلزم التعاقب ؛ لوجود الفاصل الزمني بين حدث وآخر وإن كان الفاصل برهة من الزمن ، ثم إنَّ هذه الأحداث ، إنَّما وصلت إلينا عن طريق الرواية ، والحدث المروي يستلزم روايته سريعاً وبالتسلسل وهو ما نسميه بالتراتبية ؛ لوقوعها في زمن واحد ، فهذا يعني أنَّها متزامنة في ترتيب أحداثها في الآنات واللحظات؛ لـ((أن الزمان نتاج ترتيب الوقائع والأحداث)) [1] بطريقة أفقية متسلسلة ، سواء أكان ذلك في الواقع المحسوس أم في رواية النص المكتوب ، وهذا يقودنا إلى النظرة الأحادية البعد التي تعني

المعنى في الحديث عن نبوة– إبراهيم عليه السلام وبعث النبي لوط عليه السلام في زمن واحد،في الآيات : 74 : هود ، 71 – 72 : الأنبياء ، 43 : الحج ، 13: ص.

[1]) الامتداد الزمكاني في نهج البلاغة ، د. عبد الحسين العمري : 120 .

النظر إلى الأشياء بعين واحدة ، وهي المشار إليها بالزمان الخطِّي أو الخطِّيَّة ؛ لأنَّها تسير قُدُماً باتجاه واحد بغية الوصول إلى نقطة التكامل الذي يحمل في طياته النهاية المحتومة للحدث ، فالأحداث سواء أكانت متزامنة أم متعاقبة أم متراتبة ، تحركت أم بقيت ساكنة ، كلها داخلة في الزمان ، والزمان يتابع الاتجاه السوي لطريقه بوصفه خطاً تتسلسل فيه اللحظات والآنات[١] ، ومعنى هذا أنَّ المتغير هو الحدث أو أمكنة الحدث في الخارج ، وأما في اللغة فتكون العلامة هي المتغيرة ، فهي إحدى عناصر اللغة القابلة للتغير؛ لأنَّها متواصلة في الزمن[٢] ، أمَّا الزَّمان فهو ثابت بالرغم من تغير عناصره في الواقع واللغة الحاكية عن هذا الواقع داخل النص أو الجملة.

مقاربات الخطِّيَّة في مفهومها الاصطلاحي:

إنَّ المعايير المتصورة والمعينة – التزامن والتعاقب والتراتب – التي تسنَّى للبحث الوقوف عليها من الممكن أن تكون هدفاً نرصد عن طريقه الخطِّيَّة ، وهي مفهوم رياضي مجرد ، يكون العقل هو الحاكم فيها ، انصرف هذا المفهوم إلى اللغة ، وتعني السير باتجاه واحد ، ولا شيء يأخذ مساراً واحداً على الرغم من الاختلافات والتناقضات منذ بدء الخليقة إلى نهايتها سوى الزمان ، الذي هو من المفهومات غير المرئية لا المدركة بالعقل ، بل يكون مرئياً عن طريق الأحداث والعناصر الداخلة فيه ، سواء أكان ذلك في الكون الذي تتعاقب فيه الأحداث ، أم في النص الذي تتوالى فيه الجمل والعلاقات ، وفي كلتا الحالتين تسير باتجاه واحد ، ما يسهل على الراصد أو القارئ الوصول إلى الهدف الحتمي أو القضية الكبرى .

---

[١]) ظ : فكرة الزمان عبر التاريخ : 162 .

[٢]) ظ : البحث عن فرديناند دي سوسير : 179-180.

وتندرج تحت الخطِّيَّة مفهومات تقاربها في المفهوم الاصطلاحي ولكن تبتعد عنها من جنبة أخرى ، فيمكن معرفة ذلك عن طريق عرض معاني هذه المفاهيم ، ومن ثمَّ بيان وجه المواءمة والمغايرة بينهما ، ومن هذه المفهومات :

المسار : من المفهومات التي اقتربت من الخطِّيَّة في الاصطلاح ويعني ((سلسلة ظواهر تتسم بوحدة معينة أو تتجدد وفقا لنظام معين)) [١] ، أو هو ((الوظيفة الفاعلة والذي تدعى نتيجته ، المفسَّرة بقوانين المعرفة العقلانية ، باسم ظاهرة))[٢] ، وبهذا فالخطِّيَّة تلتقي مع المسار في كونه سلسلة ، والسلسلة تستدعي السير باتجاه واحد وصولاً إلى النهاية ، وتبتعد عنه ؛ لأنَّ هذه السلسلة هي لمجموعة من الظواهر، وهذه الأخيرة ، من الأمور التي تدرك وتعرف عن طريق الملاحظة والتجربة ، كالتجارب الفيزيائية والكيميائية ، ويمكن الشعور بها، كالظواهر الفلكية ، وكونه وظيفة ، والوظيفة فاعلة ومؤثرة ؛ فينتج عنها مجموعة من القوانين التي بدورها تعمل على تكوين الظاهرة .

الامتداد : يلتقي مع الخطِّيَّة في المحدودية ؛ أي في شروع الزمان ونهايته ، وتفترق عنه في كون الامتداد متعلقاً بالجسم والمكان ، والجسم مادة وإذا كان كذلك فهو يتخذ أحيازاً وأشكالاً وأبعاداً تبعاً للمادة المتعلق بها والموضع الذي يشغله ، ومن ثم يكون متناه ؛ أي يكون له حد ، ويرى بعض الحكماء وأصحاب الفلسفة الحديثة أنَّ الامتداد((جزء من المكان فهو متناه ، والمكان غير متناه ، كقولهم : خط محدود ، أو سطح محدود ، أو حجم محدود ،

---

[١]) موسوعة لالاند ، اندريه لالاند : 1052 .

[٢]) المصدر نفسه : 1052.

وتكون نسبة الامتداد إلى المكان كنسبة المدة إلى الزمان)) [1] ، والخطِّيَّة لا يعتريها شيء من ذلك .

الاتجاه : وهو المفهوم الثالث المقارب للخطِّيَّة في مفهومها الاصطلاحي ، فهو في مفهومه اللغوي هو الاستقبال أو التوجه لشيء لقوله :((الوجاه والتجاه ما استقبل شيء شيئاً))[2] ، وهذا التوجه يستدعي امتداداً باتجاه ذلك الشيء ، وقد يكون أفقياً كالأمام والخلف واليمين والشمال والجانب ، أو عمودياً كالفوقية والتحتية ، وهي مرتكزات مستفادة من التجربة الفيزيائية والثقافية ، وفي كلا الحالين يقتضي الاتجاه وجود أمرين متجِه"بكسر الجيم" ومتجَه "بفتح الجيم" وهذا يعني أنَّ هناك بداية ونهاية ، فهو من هذه الناحية يتفق مع الخطِّيَّة في التحديد الأفقي كما هو الحال في الامتداد ؛ لأنَّ الخطِّيَّة تتسم بالأفقية ، ولكن يفترق عنها في كونه مختصاً بالأمور المحسوسة لا غير ، أما الخطِّيَّة فلا تكون إلا في الزمان ، والزمان لا يمكننا لمسه أو مشاهدته فهو شيء معنوي يدرك بالعقل لا بالحاسة ، فكل هذه المفاهيم– الآنفة الذكر– المقاربة للخطِّيَّة في مفهومها تنضم تحت لوائها وتخضع لها ، سواء كان ذلك في الكون وأحداثه ، أو في النص خلقاً وبناءً ، وعلاقاتهما معاً أعني النص والكون . وفيما يأتي مخطط عام يوضح الخطِّيَّة ومحاورها ومرادفاتها في المفهوم الاصطلاحي ، مع رسم توضيحي يبين فيه الدال البصري والدال السمعي.

---

[1]) المعجم الفلسفي ، د . جميل صليبا : 1 / 134 .

[2]) كتاب العين : 4 / 66 .

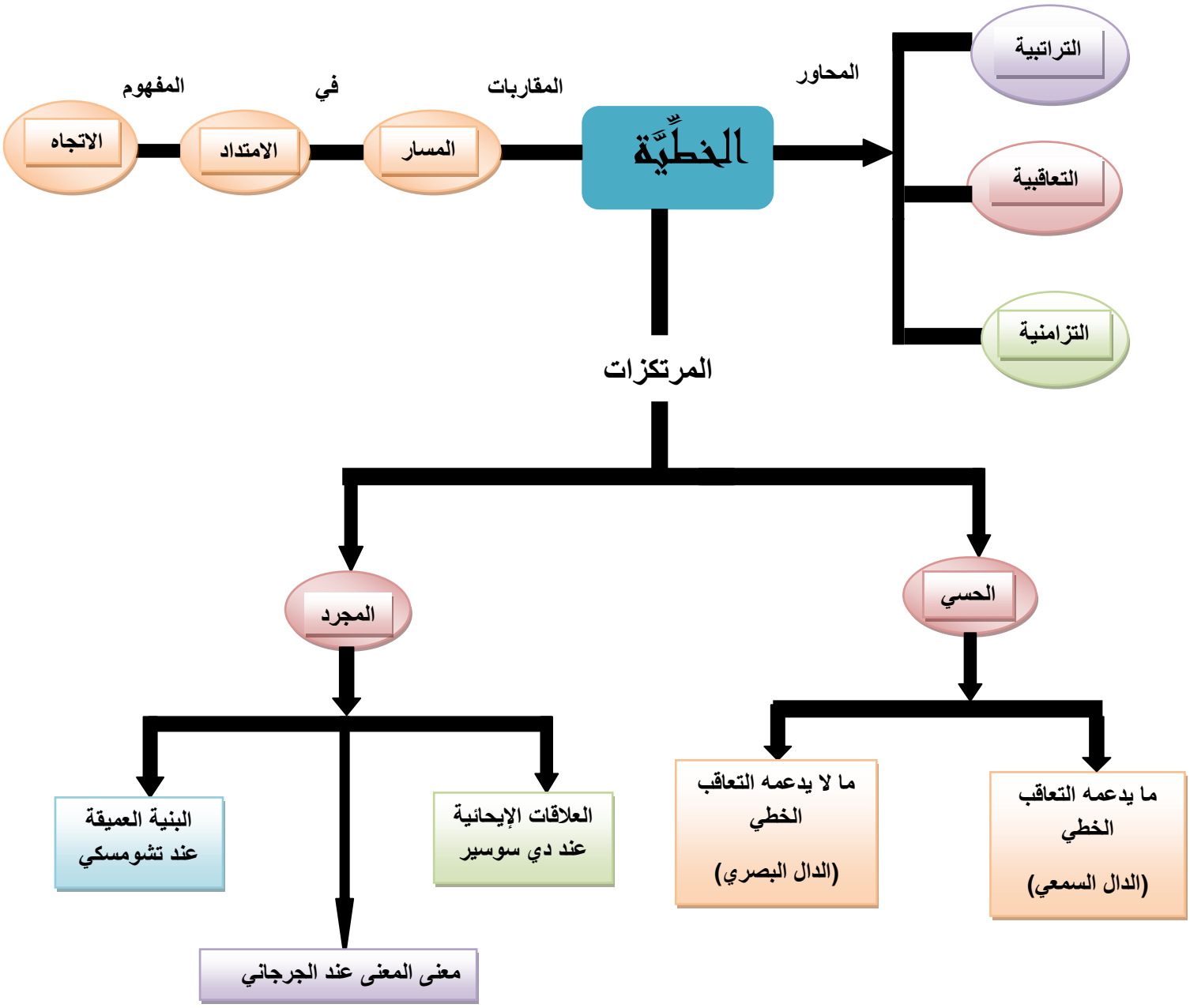
الخطّيّة
المقاربات
المسار
في
الامتداد
المفهوم
الاتجاه
المحاور
التراتبية
التعاقبية
التزامنية
المرتكزات
المجرد
الحسي
البنية العميقة عند تشومسكي
العلاقات الإيحائية عند دي سوسير
معنى المعنى عند الجرجاني
ما لا يدعمه التعاقب الخطي (الدال البصري)
ما يدعمه التعاقب الخطي (الدال السمعي)

.....

مخطط عام يوضح الخطية ومحاورها ومرادفاتها في الاصطلاح و مرتكزاتها

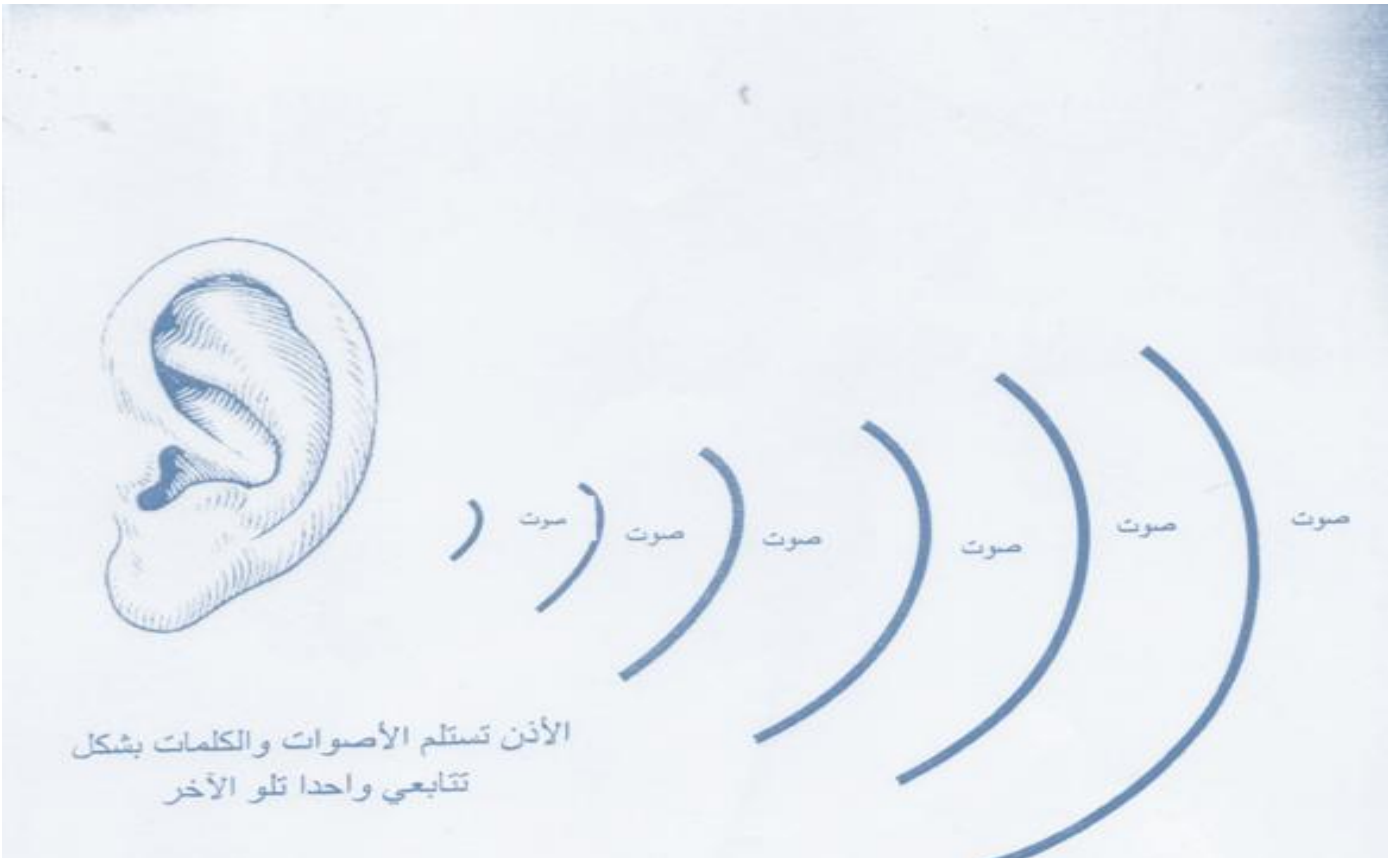

الفصــل الأول

خطَّــيِّــة الخـــلــق

- **مدخل :**

في ضوء القراءة المتأنية للفظة(الخلق) لغوياً واصطلاحياً ، وجدنا أنَّ مفهوم الخلق لغوياً لا يخالف معناه الاصطلاحي ، فكلاهما يشير إلى الطبيعة والناس ، والجمع الخلائق[١] ، وقد ورد معنى الخلق((في كلام العرب على وجهين أحدهما الإنشاء على مثال أبدعه والآخر التقدير))[٢] ، وهذا المعنى يشير إلى جزأين مهمين تتكون منهما عملية الخلق ، وهما (الإبداع والتقدير) ، وكلاهما من بديهيات واجب الوجود بالضرورة ، لكنَّ الإبداع يختلف عن الخلق ، ف((الإبداع إيجاد الشيء من لا شيء ... والخلق إيجاد شيء من شيء)) [٣] ؛ لأنَّ الله أوجد السموات والأرض من لا شيء فيقال أبدعهن ، وهو قوله تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ **[البقرة:117]** ؛ أي خلقهن على غير مثال سابق ، وقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ** ﴾ **[الرحمن:3]** ؛ أي أوجده من شيء آخر وهو الطين والماء ؛ ولذا قال بدع السموات والأرض ولم يقل بدع الإنسان [٤] ، وبهذا فقد تأرجح الإبداع والخلق بين العموم والخصوص ، فمن العلماء من قال : إنَّ ((الإبداع أعم من الخلق)) [٥] ، ومنهم من قال : ((الإبداع أخصُّ من الخلق))[٦] ، ويبدو أنَّ الذي قال بعمومية الإبداع لم يلتفت إلى أنَّه خلق ، بدلالة قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً** ﴾ **[الملك : 3]** فالسموات خلقها فأبدع في صنعها ، وأنَّ عمومية الإبداع تطلق على المصنوعات أو المخلوقات من دون تخصيص أو تحديد ، فإذا أردنا تحديداً أو تخصيصًا أو الحديث عن جزء من أجزاء الخلق المبدعة جئنا بلفظة الخلق ،

---

1) ظ : كتاب العين : 4 / 151 ، مادة (خلق) .
2) لسان العرب ، ابن منظور : 10 / 85 ، مادة (خلق).
3) التعريفات ، الجرجاني : 9 .
4) ظ : المصدر نفسه : 10 .
٥) التعريفات : 10.
٦) الإبداع ، عابد خزندار: 3.

وأرجح الرأيين أنَّ الخلق أعم مطلقاً من الإبداع ؛ لأنَّ كل إبداع خلق ، سواء أكان هذا الإبداع فكرة أم هيأة ، وليس كل خلق إبداع ، ومنه يظهر الإتباع أو التقليد في الخلق ، وهو خاص بالإنسان .

وإذا ما تطلعنا إلى حروف لفظة (خلق) من الناحية الصوتية يثمر عنه وجهتا نظر من ناحيتي المخرج والصفة :

أولاً : من جهة المخرج نجد أنَّ الخاء والقاف كلاهما من مخرج واحد هو نهاية الحلق، ويبدو في هذه الوِجهة إيماءة إلى بداية الخلق ونهايته اللتين تعودان إلى مصدر واحد وهو الباري تعالى شأنه ، وأمَّا اللام التي .مخرجها قريباً من اللثة أو الأسنان ، عند النطق بها يحصل انفكاك اللسان عن سقف الحنك [١] ، فهذه الحركة تكشف عن الامتداد الزمني للحياة ومناقضاتها .

ثانياً : من جهة الصفة نجد أنَّ صفة الخاء صوت مهموس رخو شعوري [٢] ، ما يعني أنَّ عملية ولوج الروح ودخولها في الجسد يكون دخولا استئناسياً فيه نوع من الرخاوة والألفة والنقاء ، وصوت اللام متوسط بين الشدة والرخاوة ، كما أنَّه يوحي بمزيج من الليونة والتماسك والالتصاق ، ومن ثم الانفكاك وانفلات النفس خارج الفم [٣] ، وهذا يعني أنَّ الحياة مزيج من السعادة والشقاء والراحة والتعب ، وأنَّ ابن آدم سرعان ما يتشبث بها ويتمسك عند مجيئه إليها ، وأنَّ انفلات النفس عند النطق بها إيحاء إلى قرب نهاية الحياة ، فيأتي صوت

---

[1]) ظ: خصائص الحروف العربية ومعانيها ، حسن عباس : 78 ، 141 ، 178 .

[٢]) ظ: خصائص الحروف العربية ومعانيها : 78 وما بعدها .

[٣]) ظ : المصدر نفسه : 78 وما بعدها.

القاف الشديد الانفجاري– نتيجة لانحباس النفس والضغط على أعضاء النطق– ليعلن هذه النهاية بنزع الروح من الجسد بعد طول التآلف بينهما ، ما يقتضي هذا النزع من الشدة والصعوبة والقهر .

وقد وردت للخَلْق معان عدة ، منها معنى الدّين والقدرة كقوله تعالى : ﴿**فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ**﴾ **[النساء: 120]** أي يريد في دين الله أو قدرة الله [1] ، ومعنى التمام كقوله تعالى:﴿**مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** ﴾**[الحج : 6]** ؛ أي تامة وغير تامة [2] ، وغيرها من المعاني. وفي ضوء ما تقدم يمكن تقسيم الخلق على نوعين هما :–

أولا : الخلق التقديري .
ثانيا : الخلق الإبداعي.

المبحث الأول

أنواع الخلق

[2]) ظ : مجمع البيان في تفسير القرآن : 3 / 113 .
[4]) ظ :المصدر نفسه : 7 / 71 .

لا شك في أنَّ الخلق بمفهومه اللغوي والاصطلاحي يفتح لنا نافذة البحث في نوعيه اللذين يمكن تفصيل الكلام عنهما في الآتي :-

أولاً / الخلق التقديري : وهو أحد وجوه الخلق التي وردت في كلام العرب في أنَّ ((أصل الخلق (هو) التقدير ، باعتبار ما منه وجوده مقدّر ، وبالاعتبار للإيجاد على وفق التقدير))[1] ، وهنا إشارة إلى البدايات الأولى للخلق ، وكيف أنَّ الله قدّر الأشياء ثم خلقها ، وقد أشار الكتاب العزيز إلى هذا المعنى بقوله : ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾**[القمر: 49]** أي قدرناه ، وأيّد ما جاء في كلامه تعالى قول نبيِّه الأعظم **(صلى الله عليه وآله وسلم)** ، الذي لا ينطق عن الهوى في أثناء حديثه عن مبدأ الخلق والوجود قبل السموات والأرض ، قائلاً: ((قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء))[2] ، وهذه دلالة صريحة ومؤكدة لما جاء في كتابه تعالى ، وممهدة لما جاء في خطاب وصيِّه(**عليه السلام**) الذي بيّن فيه صفات الخالق ، وكيفية خلقه للكون وإحاطته وعلمه الواسع بالأشياء ، وتقديره لها قبل وجودها بحجمها وأساسياتها وأوقاتها وصفاتها ومشتبهاتها وقرائنها وكل الأمور المتعلقة بها إذ قال (عليه السلام) : ((**أَنشَأَ الخَلقَ إنشاءً ، وَابتَدَأَهُ ابتِدَاءً، بِلا رَوِيَّة أَجَالَها وَلا تَجرِبَةٍ استَفَادَهَا ، وَلا حَرَكَةٍ أَحدَثَهَا، وَلا هَمامَةِ نَفسٍ اضطَرَب فِيها ، أَحَالَ الأَشيَاءَ لِأَوقاتِها وَلأَمَ بَينَ مُختَلِفَاتِها وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وَأَلزَمَهَا أَشبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبلَ ابتِدَائِها، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَانتِهَائِها ، عَارِفاً بِقَرَائِنها وَأَحنَائِها**))[3] ، فكانت بداية النص عبارة

---

[1] تاج العروس : 25 / 251 .
[2] صحيح ابن حبان ، ابن حبان ، تح : شعيب الأرناؤوط : 14 / 5 .
[3] شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 1/ 49 .

عن قضية كبرى تمثلت بالجملتين الفعليتين المرتبطتين برابطة العطف ، وما بعدها قضايا صغرى جاءت مفسرة للقضية الأولى وهي قضية الخلق وموجده ، فخطِّيَّة النص واضحة–كما سيتضح بيانه فيما بعد– عن طريق التدرج في بيان ماهية الخلق ، ولو دققنا جلياً في النص لوجدناه ينمُّ عن جوابٍ لأسئلة افتراضية[1] عن صانع الكون ، وعن كيفية إنشائه – وقد أجزل الإمام **(عليه السلام)** في صفاته وثنائه وتحميده جل شأنه – إلا إنَّ خميرة الأفكار التي انطوى عليها الإمام**(عليه السلام)** مكَّنته من جلاء الشيء وإيضاحه ، فبدأ بالمحمولات وهي المعبَّر عنها بالقضية الكبرى – جوابا للسؤال الافتراضي الأول عن نشأة الكون والخلائق– لأنَّها الأكثر غزارة في إيضاح المعنى ، فقوله :**(أَنشَأَ الخَلقَ إنشاءً ، وَابتَدَأَهُ ابتِدَاءً)** ، هذه الجمل عبارة عن أخبار حتمية حدثت ومازالت تحدث ، والدليل على حتميتها من الناحية اللغوية أنَّها مبدوءة بأفعال ماضوية انمازت بالتحقق والثبوت ، وكذلك المصادر المأخوذة من لفظ الفعل (إنشاء ، ابتداء) جاءت مؤكدة لأفعالها ؛ لتنبئ عن حقيقة ثابتة وملموسة في الواقع الخارجي، وأنَّ الواو الواصلة أزالت الإبهام والتوهم من أنَّ الإنشاء والابتداء كلاهما سواء ؛ لأنَّها أفادت المغايرة ، وهذا يعني أنَّ الإنشاء غير الابتداء[2] ، وما

داما متغايرين فهذا يؤكد أنَّ الإنشاء أسبق من الابتداء وهو المعني بالتقدير معنىً لا لفظاً ، ومصداق ذلك ما نشهده على أرض الواقع من أنَّ لكل مخلوق تقديراً في صورة خلقه ورزقه

---

[2]) يقترب هذا الشيء من ((مفهوم (نظرية المساءلة والبلاغة) لماير الذي استطاع أن يؤسس منهجا يقوم على مبدأين ، هما : المبدأ الافتراضي في تحليل الأقوال ، ومبدأ الاختلاف الإشكالي داخل الأقوال)) ، سوسيو لسانيات نهج البلاغة ، د. نعمة دهش الطائي ، تقديم : أ.د. نعمة رحيم العزاوي : 297 .

[3]) الإنشاء : هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إليه ، والمفهوم من الابتداء هو الإيجاد الذي لم يقع من الموجد قبل ، شرح البحراني : 1 / 172 ، وبعبارة أخرى أن الإنشاء هو إيجاد الشيء بالقوة لا بالفعل كالابتداء .

وحياته وموته ، وما يتعلق به من شؤونه الدنيوية كافة ، وهذا السبق في إنشاء الخلق وابتدائه يشير إلى الخطِّيَّة اللغوية المتناغمة مع الخطِّيَّة الكونية بما يعبر عن انسيابية الكلام ورشاقته التي جذبت المتلقي ؛ لأنَّ أسلوب الإمام **(عليه السلام)** مماثل للواقع وليس بغريب عنه ، ويبدو أنَّ عملية الإنشاء المتضمنة معنى التقدير جاءت تمهيداً لعملية الابتداء وهو الإيجاد المشاهد على أرض الواقع ؛ أي التحول من الإيجاد الافتراضي اللامرئي إلى الإيجاد المرئي العيني ، ما يعني حالة انسجام واستمرار خطِّي واضح في الخلق الكوني واللغوي على السواء . وفي قوله (أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء) ما يثير في النفس من خواطر وهواتف- كيف خلق الكون وأبدعه وصوره واحكم صنعه بهذا النظم العجيب وهو السؤال الافتراضي الثاني- فيأتي النص فيما بعد مجيباً عن هذه الخوالج بقوله:(**بِلا رَوِيَّة أَجالَها وَلا تَجرِبَةٍ استَفَادَهَا ، وَلا حَرَكَةٍ أَحدَثَهَا، وَلا هَمامَةِ نَفسٍ اضطَرَب فِيها)** .

يبني النص تركيبه ظاهرا فيرسم لنا دائرتين ، دائرة الوجود الكبرى التي مثلتها الذات المقدسة وعبَّر عنها بأسلوب النفي المكرر (بلا روية ، ولا تجربة ، ولا حركة ، ولا همامة نفس) لتنفي عنها النقص والافتقار ، وبضمير الغيبة المقدَّر في الأفعال (أجالها ، استفادها ، أحدثها ، اضطرب فيها) العائد في ظاهر النص إلى الوجود المطلق ، وفي باطنه إلى الذات الناقصة (الإنسان) ، التي مثَّلت دائرة الوجود الصغرى ، المفتقرة في وجودها وتكوينها إلى دائرة الوجود الكبرى ، وقد أومأ إليها المعنى الباطني للنص ؛ وذلك بإثبات ما نُفي عن الخالق في ظاهر النص إلى المخلوق .

فهذه الأوصاف الأربعة كلها-عند سلب النفي منها- تعود إلى الممكن (المخلوق) المحتاج في وجوده إلى الواجب المطلق ؛ لكونه إذا أراد صنع شيء ، يستدعي التفكير فيه

فإذا دار وتردد في حقيقته ، أقام التجربة عليه لإثبات ما التبس عليه ، وهذا الأمر يقتضي وجود المادة التي من لوازمها الحركة ، فإذا ثبت ما دار أو تحيَّر الفكر في صحته ، همَّ بهذا الشيء المصنوع ، ومالت نفسه إلى الحرص عليه والعناية به ، وكأنَّ في كلامه **(عليه السلام)** إيماءة عن وسائل المعرفة فيما بعد يمكن للبشر أن يتبعها في حياته ، وإشارة إلى نوع آخر من الخلق وهو الخلق الاتباعي والتقليدي [1] ، وهذا النوع من الخلق يستدعي التفكر والتجربة ومكوناتها ، فالإمام**(عليه السلام)** في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض بهذه الدقة المتناهية، إنَّما يُعبَّر عن تراتبية الفعل البشري المنطقي فيما بعد ؛ لذا جاء بها بصيغة نفيها المؤكد عن البارئ تعالى بالباء الزائدة ، وبشكل من الترابطات الخطِّيَّة للجمل ، التي جاءت مفسِّرة لبداية النص عن طريق واو الوصل الرابطة لمجموعة من المتغايرات .الخطاطة اليسيرة تبين الدائرتين بوصفه أنَّ الدائرة الوجودية الكبرى تحيط بالدائرة الوجودية الصغرى (الإنسان) من كل جهاته (ظاهراً وباطناً) دنيوياً وأخروياً بداية ونهاية .... وفي كل حالاته :

[1]) هناك فرق بين الإتباع والتقليد ، فالإتباع تقليد عن روية وتدبر باعتقاد أحقية المقلَّد ، والتقليد إتباع لا عن دراية وفكر ، وكلاهما من لوازم البشر ، ظ : التعريفات : 58 ، وظ : لسان العرب : 8 / 27 وما بعدها .

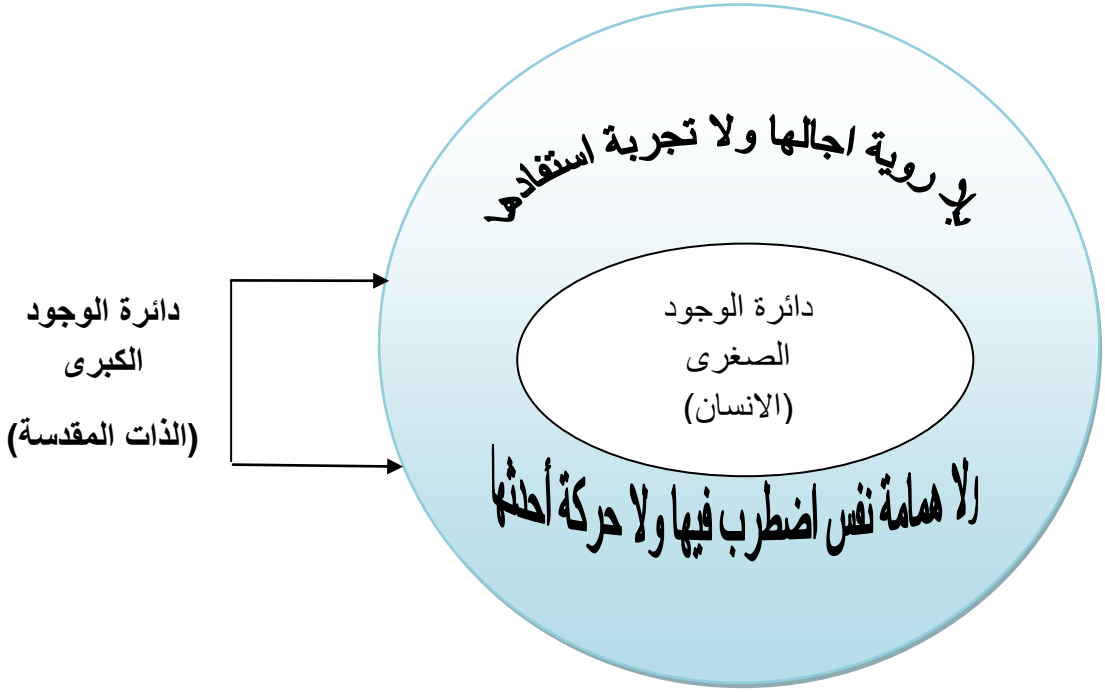

رسم توضيحي يبين دائرتي الوجود الكبرى والصغرى

إنَّ وضوح الخطِّيَّة أو التدرج الخطِّي في النص يؤكده **(عليه السلام)** حين أكمل جواب السؤال الافتراضي الثاني الذي يمثل من زاوية أخرى ، مرحلة من مراحل الإنشاء والابتداء بقوله :**(أَحَالَ الأَشيَاءَ لِأَوقاتِها وَلأَمَ بَينَ مُختَلِفَاتِها وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا وَأَلزَمَهَا أَشبَاحَهَا عَالِماً بِهَا قَبلَ ابتِدَائِها ، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَانتِهَائِها ، عَارِفاً بِقَرَائِنها وَأَحنَائِها)** ، فمجيء كلمة (لأوقاتها) بصيغة الجمع إشارة إلى الزمن المتكون من جزئيات وتوقيتات ، وما يتخلله من وحدات ، ابتداءً من الآن واللحظة وصولاً إلى السنين والدهر ، ما يعني أنَّ العالم والكون لم يخلقا دفعة واحدة بل جاء خلقه تدريجياً ، وأكَّد هذا المعنى ما جاء في كتابه العزيز عن خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، قال تعالى :﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ**

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾[الأعراف:54]،

ففي الآية إشارة إلى التدبير الإلهي المرسوم بشكل خطِّي ، عن طريق ترتيب الحوادث الكونية تعاقبياً على وفق تعاقب الأيام المنسجم مع التراتب الخطِّي للغة ، ثم يعود إلى النقطة التي انطلق منها النص قائلاً : **(عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابتِدَائِها ، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَانتِهَائِها)** ، وهذا دليل آخر على أسبقية الإنشاء على الابتداء ، وأنَّ الإنشاء بمعنى وضع المقادير ضمنياً للخلق قبل خلقه وإيجاده بدلالة الظرف (قبل) والمصدر(ابتدائها) ، ولم يقل (إنشائها) ، إذ إنَّ منشئ الخلق ومقدّره ، ومن ثم البدء بخلقه على غير مثال سابق ، قطعاً يكون عالماً به قبل وجوده ، ومحيطاً بحدوده ونهاياته ، وهذه العودة إلى نقطة البداية تشير إلى التتبع الخطِّي للنص الذي يكشف عن الترابط التسلسلي للوحدات الكلامية مع الأحداث الخارجية الواقعية .

من هنا يتبين أنَّ التسلسل الأولي الخطِّي للأحداث حتى يبلغ النهاية التي تحيل إلى البداية الأولى هو تسلسل أفقي ، وهو المراد به من معنى الخطِّيَّة . كان بإمكان المتكلم أن يستغني أو يكتفي بقضيتي الإنشاء والابتداء عن بقية القضايا الأخر ، التي تعد مكونات أو شروطاً للقضيتين الأوليتين ، لكنَّ الإمام(**عليه السلام**) في مقام المسؤولية التي تقع على عاتقه، وهي إقناع المنكر أو المتردد ، أو تنبيه المتوهم المخاطَب عن الحقيقة الثابتة المنصرمة التي تبدو مغيَّبة أو مشوبة بالغموض ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق اللغة ، فعملية ترتيب الألفاظ والأصوات التي تخلق الانسجام النصي ، مع تحقق الاستمرارية الموضوعاتية فيه ، ما هي إلا انعكاس للانسجام الكوني ؛ لأنَّه ((كلما كان النص على سلم التراتبية الكونية القريبة من

الضوء السماوي ...كلما كانت دلالته تشع))[1] ، ونص الإمام(**عليه السلام**) بلا أدنى شك نص حركي ينسجم مع حركية الكون في زمكانيته [2] ، وينفتح على أبعاد الكون بما يثري كل فقرة من النص عن طريق ترتبها كونياً ، وانسجامها نصياً ، ما يجعلها مفردة كونية تتناغم في خطِّيَّتها الخلقية مع وجودها في تركيبة النص .

ولما كان الإمام (**عليه السلام**) في مقام إبانة وتقريع وإنكار للسائل ، وتعظيم لمفهوم السؤال ، عمد إلى التصريح بما يراه من التقدير للخلق لفظاً ومعنىً في خطبة الأشباح ؛ إذ تكلَّم فيها عن صفات الخالق وكيفية إيجاد الخلق من العدم ؛ لأنَّه أوقع في النفس وأثبت لليقين ، فقد بيّن عظمة الخالق في ضوء الإشارة إلى التزامن والتعاقب الخطِّي لمنظومة الخلق التي شكلت الفكرة أو النواة الرئيسة للنص ، وأسهمت في ربطه وانسجام فقراته ضمن سياق زمني خطِّي واحد ؛ ولأنَّ الإمام (**عليه السلام**) في موضع تصريح –كما ذكر أعلاه– عمد بوصفه المتكلم إلى تقديم المعنى تقديما حسياً عن طريق الابتداء بالجمل الفعلية القصيرة فقال:((**قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحكَمَ تَقدِيرَهُ ، وَدَبَّرَهُ فَأَلطَفَ تَدبِيرَهُ ، وَوَجَّهَهُ لِوِجَهَتِهِ فَلَم يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنزِلَتِهِ ، وَلَم يَقصُر دُونَ الانتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ ، ولم يَستَصعِب إذ أُمِرَ بِالمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ**))[3] ، شكّل افتتاح النص استقراراً ثابتاً ؛ لكونه صُدِّر بالأفعال التامة اليقينية الثابتة ،

---

[1]) سيمياء الكون ، يوري لوتمان ، ترجمة: عبد المجيد نوسي : 153 .

[1]) الزمكان : مصطلح استعمله المفكر الروسي ميخائيل باختين في دراسته للزمان والمكان في الرواية ، يطلق على الزمان والمكان للعلاقة المتبادلة بينهما ، ظ : أشكال الزمان والمكان في الرواية ، ميخائيل باختين : ه ، وظ : الامتداد الزمكاني في نهج البلاغة : 14 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 438 .

المتمثلة بالزمن الماضي (قدّر، أحكم ، دبّر، ألطف ، وجّه) ، والزمن المضارع المسبوق بالأداة(لم) التي تحيله إلى المضي (لم يتعدَّ ، لم يقصر)– فضلا عن تزامنها – فهي عبارة

عن أخبار متيقنة تنبئ عن الحقيقة الكونية الخالدة((زيادة على أن هذه الجمل القصيرة تتوافر على إيقاع خطابي خاص يتمثل فيه الفخامة والسلاسة متناغمة مع حركة المعنى داخل هذه التراكيب))[١] ، فضلا عن تناغمها مع حركية الكون ، وعلى وفق هذه التراتبية والتعاقبية الكونية واكب الزمان التراتبية الخطِّيَّة النَّصية ، وقد رسمت هذه البداية المحور الأولي للنص، التي انتهت بسؤال إنكاري ((**فَكَيفَ وَإِنَّمَا صَدَرَتِ الأُمُورُ عَن مَشِيئَتِهِ؟**)) [٢] فاستعمال المتكلم لصيغة الاستفهام التي خرجت عن أصل وضعها إلى التقرير والإثبات ؛ ليثبت أنَّ كل ما يصدر ويحدث في الكون من عنده سبحانه وبمشيئته لا يمكن إنكاره ، وقد أكد هذا المعنى أسلوب القصر بـ(إنَّما) الذي((يكون لما هو ظاهر مما لا ينكره المخاطب))[٣] ، فضلاً عن أنَّ الأداة(إنَّما) المؤلفة من إنَّ وما النافية لإثبات المذكور بعدها ونفي لما سواها [٤] من مشيئة الممكنات المتفرعة عن مشيئة الواجب المطلق ، وكذا حرف الجر(عن) المفيد لمعنى التجاوز والابتعاد[٥] ؛ أي إبعاد صدور الأمور عن مشيئة البشر وتخصيصها بمشيئته سبحانه ، فكان

---

[1]) الخطاب في نهج البلاغة ، د. عبد الحسين العمري : 23 .
[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 438 .
[3]) معاني النحو: 2 / 215 – 216 .
[4]) ظ : الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي : 297 ، ظ : لسان العرب : 13 / 31 ، مادة (أنن) .
[5]) ظ : المصدر نفسه ، المرادي :254 .

الكلام بمثابة حلقة وصل تربط بين الزمن الماضي وما تجري فيه من أحداث ، والزمن الحاضر الذي هو زمن التلفظ[1].

هذه المناقلة اللفظية في النصين بين (أنشأ) و(قدّر) حققت طرازاً تركيبياً مميزاً ، فضلاً عن أنَّ اللفظين كانا مطلع نص ، وهذا ما يشير إلى أنَّ هناك مرحلة تسبق الإنشاء أو متزامنة معه ، وهي مرحلة الجعل أو التحديد والمعبَّر عنها بلفظ (قدّر) ، التي أشار إليها القرآن الكريم حين أخبر الباري تعالى الملائكة عن الشروع في خلق آدم فقال :﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾**[البقرة : 30]** ، وتعني الإيجاد بالقوة ، ويشمل التقدير والإنشاء وكلاهما متزامنان ، وتعقبها مرحلة الإيجاد بالفعل الذي هو الابتداء.

والمخطط الآتي يوضح التزامنية والتعاقبية–محوري الخطِّيَّة– الإيجاد بنوعيه:

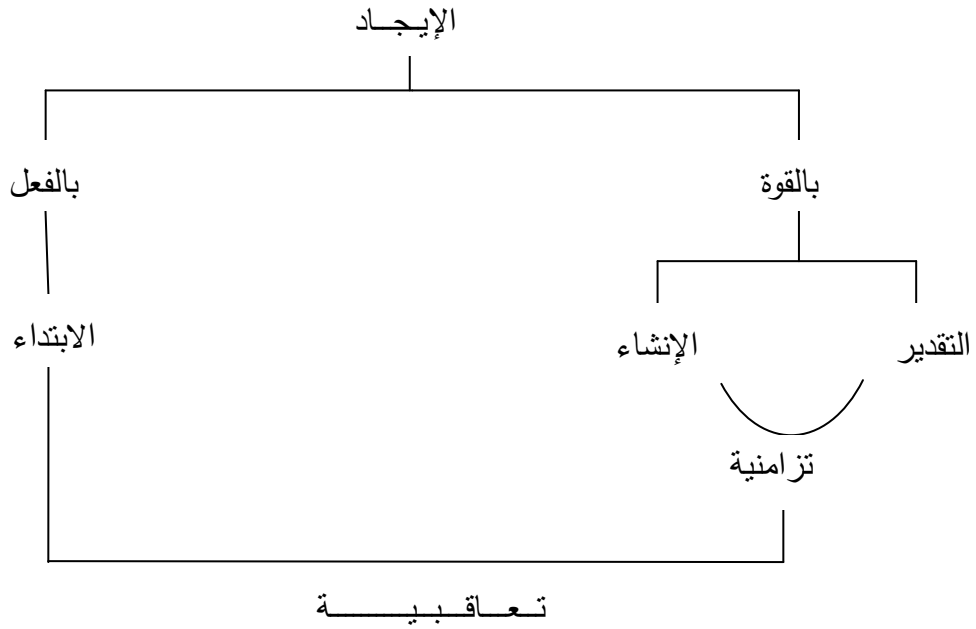

[1]) ظ : الوصائل في تحليل المحادثة ، خليفة الميساوي : 120.

كانت نسبة تحقيق الخطِّيَّة في النص كبيرة ظهرت على فقراته ظهوراً واضحاً عن طريق (واو الوصل) المهيمنة على النص ، أو(واو العطف والنسق) حسبما يسميها النحويون ؛ لأنَّ الشيء إذا عطف على شيء آخر بعده جرى مجرى واحداً ؛ أي أنَّها تفيد الجمع بين الأشياء في آن واحدة [١] ، وهي بهذه الخاصية تشير وتؤكد محور الخطِّيَّة التزامنية ؛ أي مجيء الأحداث(قدّر ، دبّر ، وجّه) جميعها بمستوى عرضي واحد ، وقوله (**عليه السلام**) : ((**فَتَمَّ خَلقُهُ بِأَمرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ ، وَأَجَابَ إِلَى دَعوَتِهِ...**)) [٢] ، يعني أنَّه بعد تقدير الخلائق وإيجادها وتدبيرها وتوجيهها لبلوغ غاياتها التي خُصصِت لها بمشيئته لوّح بتمامية خلقه ، ومن ثم انقياده لخالقه وإجابة دعوته ، فكانت الفاء الدالة على التعقيب والفعل (تمَّ) الدال على نهاية الغاية وثبوتها[٣] ، خير علامة للدلالة على التعاقبية الخطِّيَّة ؛ لكونها رسمت سلسلة من المراحل بدءاً من الخلق حتى نهايته (أي الصورة النهائية المبدعة) التي هي بداية الحياة ، وقد أسهمت (الواو العاطفة ، وفاء التعقيب) إسهاماً فاعلاً في جعل التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره ، كأنَّه لوحة فنية مكتملة متكاملة .

وهذا التراتب الخطِّي والتعاقب الجملي المنسجم مع التعاقب الكوني للأحداث عقد صلة وثيقة بين أجزاء النص والكون معاً ، ما أدى إلى صنع وحدة نصية متلاحمة متماسكة الأجزاء .

---

[1]) ظ: الجنى الداني في حروف المعاني : 158، ظ: لسان العرب :353/10 ، مادة (نسق).
[٢]) شرح ابن أبي الحديد : 3 / 438 .
[٣]) ظ : تاج العروس : 31 / 331 وما بعدها مادة (تمم).

ثانياً / الخلق الإبداعي : وهو خلق الشيء من لا شيء وعلى غير مثال سابق [1] ، أي إيجاد شيء لم يكن له نظير، وهو خاص بواجب الوجود لا ند له فيه ولا شريك ، لقوله تعالى:﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾**[المؤمنون : 14]** ، فكلمة الخالقين تستدعي وجود أكثر من خالق ، وأنَّ المفاضلة الدال عليها اسم التفضيل تستوجب وجود الفعل الخَلْقي ، التي تجري فيه المفاضلة المشار إليها ، ومن هنا يتضح أنَّ الإنسان يشترك في الخلق والإبداع مع الباري تعالى ، إلا إنَّه إبداع لا عن أصل وإنَّما إبداع بوساطة ، فإطلاق صفة الإبداع على الإنسان من باب التجوز؛ لأنَّ الذي يبدعه الإنسان ناتج عن العقل والعقل إبداع الهي ، فهو إبداع فرع عن أصل ، ومن هنا يتفرع عن هذا النوع من الخلق نوعان من الإبداع فيه :

1-**إبداع الهي** مطلق غير محدود ، ولمعرفة ذلك ، فإنَّ تأمل الإنسان في جزئية صغيرة جداً من أجزاء بدنه ، سيجد فيها الإبداع العلمي والفني على السواء ؛ لذلك قال **(عليه السلام): ((الَّذِي ابْتَدَعَ الخَلقَ عَلَى غَيرِ مِثَالٍ امتَثَلَهُ وَلَا مِقدَارٍ احتَذَى عَلَيهِ مِن خَالِقٍ مَعهُودٍ كَانَ قَبلَهُ))**[2] ، وفي هذا النص إشارات عدة منها :

-عالمية الخالق وقادريته على إيجاد خلق من العدم لم يسبق له أحد فيه بدلالة الاسم الموصول (الذي) جاء مشيراً إلى مبدع الخلق ، وغناه عن الممكن المفتقر المحتاج إلى الواجب في إفاضة الوجود عليه .

- التراكيب الجملية (ابتدع الخلق) ، (على غير مثال امتثله) ، (ولا مقدار احتذى عليه) فيها من الدلالات التي تعطي صورة واضحة للمتأمل ، ولاسيما في خلق الإنسان الذي

---

[1]) ظ : تاج العروس : 25 / 251 وما بعدها ، مادة (خلق) .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 /434 .

يشترك مع الخلائق الأخرى في كثير من الصفات ، مضافاً إليها بعض الأجهزة المعقدة كالخلايا والأنسجة والأوعية الدموية ، وأجهزة الرصد الجسدية المتمثلة بالعين والأذن ، والمخ والأعصاب ، كلها تسير على وفق نظام المحاسبات الدقيقة [١] ، كذلك نلحظ الخطِّيَّة التراتبية في نفي الإتباع في الخلق عن الذات المقدسة عن طريق الألفاظ(ابتدع ، غير مثال ، مقدار، احتذى) ، التي تومئ إلى الخلق التقليدي والاتباعي ؛ إذ إنَّ الاحتذاء على مقدار أو قياس ، والصنعة على مثال غيره ، من لوازم الممكن المفتقر ، والله تبارك وتعالى منزه عن ذلك قطعاً.

-جاء النص يحمل رداً على الماديين الذين يرون أنَّ المادة العمياء هي التي أوجدت هذا النظام المتقن المتناسق[٢].

ويلحظ أيضاً مما سبق أنَّ النص يقوم على مقدمتين :

الأولى/ حسية تقوم على المشاهدة والملاحظة ؛ بالنظر إلى هذا النظام الكوني الدقيق.

الثانية /عقلية ترتكز على استنباط النتائج المنتظمة بتحاور العقل مع المقدمة الحسية.

وفي كلتا المقدمتين تُلحظ الخطِّيَّة ، فما يحدث في الكون من أحداث ، وما يمر به الإنسان من أطوار في خلقه ، جارية في اتجاه واحد بشكل تعاقبي أو تزامني ، ثم يرتبها العقل في ذاكرته بشكل شريط سينمائي متسلسل ، ومن ثم ينقلها إلى المتلقي بشكل تراتبي عن طريق السَّرد ؛ لأنَّ ما يجري في الكون من حوادث هي ((حلقات مترابطة متسلسلة في سلسلة ممتدة من أقصى الحياة إلى أقصاها)) [٣] ، وكل ذلك لا يخرج عن إطار الزمن

---

[١]) ظ : الله خالق الكون ، جعفر الهادي : 196.

[٢]) ظ : الله خالق الكون : 196 .

[٣]) المصدر نفسه : 290 .

الخطِّي، الذي هو بمثابة النص الحاكي عن هذه الأحداث ، والألفاظ هي بمثابة الأحداث المحكي عنها .

وتراتبية النص للألفاظ الحاكية عن الأحداث الكونية الخارجة عنه ؛ ناتجة عن تراتبيتها في الواقع الخارجي بشكل إما تعاقبي متسلسل ، أو تزامني ، ما يؤسس نصاً حركياً منسجماً في أجزائه وتراكيبه ، وتعد البنية الزمنية في الكلام من أهم البنى الداخلة في تكوين بنيته المنطقية ، فنلحظ المتكلم في خطابه يصل الحاضر بالماضي والمستقبل ، بالاعتماد على الواصلة(الفاء) التي تفيد عملية الترتيب الزمني بين الأحداث [١]، فضلاً عن إفادتها السببية حين قال (**عليه السلام**) :((**فَظَهَرَت فِي البَدَائِعِ الَّتِي أَحدَثَهَا آثَارُ صَنعَتِهِ ، وَأَعلَامُ حِكمَتِهِ**))[٢] ، وقد استمدت (الفاء) قوتها في الترتيب والتأكيد الذي يقتضيه المقام والسياق ، من اقترانها بالفعل الماضي (**ظهر**) الدال على الثبات واليقين ، وهذا يرتبط بفكرة الحتمية المرتبطة بالسببية ارتباطا وثيقاً ، التي ((تنطوي على معنى أن حالة العالم في لحظة ما تكفي كي تحدد حالته في لحظة تالية ، وأن تلك اللاحقة تحدد حالات تالية وهكذا دواليك)) [٣] ، فضلاً عن تحديدها قبلياً من قبل أحداث أخر، فبعد تقدير الخلق وإنشائه وابتداعه على غير مثال معهود من قبل لم يقلد فيه غيره – وهي مرحلة قبلية تعمل على تحديد حالة الخلق التالية – ظهرت آثار هذا الإبداع المتمثل بالخلائق والأحداث الكونية ظهوراً فعلياً واقعياً مرئياً للناظر العاقل المدرك.

---

[١]) ظ : الوصائل في تحليل المحادثة : 120.

[٢]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 434 .

[٣]) التدبير الإلهي ، بول ديفز ، ترجمة ، محمد الجورا : 23 .

2- **إبداع إنساني** (ناتج عن هبة إلهية) محدود متغير قابل للتطوير والزيادة من حين إلى حين ، وهذا بدوره يتفرع إلى نوعين :

أ- **إبداع علمي :** وهذا النوع من الخلق الإبداعي يكون العقل المجرد هو المسؤول عنه ؛ إذ إنَّه يتطلب إجراء التجارب ، واعتماد المنطق والبراهين ، والمعرفة بالمسائل العلمية والفكرية ، ومعالجتها بطريقة فكرية علمية واعية وصولاً إلى إنتاج خلق إبداعي مبتكر، بغض النظر عن كون هذا الخلق مادياً محسوساً أو معنوياً مجرداً.

ب- **إبداع فني** : وهذا النوع من الخلق غالباً ما نجده عند الشعراء والكتاب والأدباء والفنانين ؛ إذ يكون الشعور والخيال هو المسؤول عن إنتاجه بعيداً عن القوانين والتجربة والمنطق ، ونجد الإمام (**عليه السلام**) قد جمع بين النوعين فيما قاله في وصف السموات حيث كان فيها ، بالإضافة إلى معرفته بالفلك والأجرام السماوية ، كانت معرفته المعيار ذاته ، لغوياً وأدبياً وفنياً ونحو ذلك ، في نسج الألفاظ والعبارات التي تكتنز بالمعاني، وترتيبها ترتيباً يتناغم وحركة السماء وما يدور فيها من أفلاك ، كقوله(**عليه السلام**): **((وَنَظَمَ بِلاَ تَعلِيقٍ رَهَوَاتِ فُرُجِهَا ، ولَاحَمَ صُدُوعَ انفِرَاجِهَا ، ووَشَّجَ بَينَهَا وَبَينَ أزوَاجِهَا ،...،وَنَادَاهَا بَعدَ إذ هِيَ دُخَانٌ فَالتَحَمَت عُرَا أَشرَاجِهَا ، وَفَتَقَ بَعدَ الإرتِتَاقِ صَوَامِتَ أَبوَابِهَا ، وَأَقَامَ رَصَداً مِنِ الشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ عَلَى نِقَابِهَا ،...، وَجَعَلَ شَمسَهَا آيَةً مُبصِرَةً لِنَهَارِهَا، وَقَمَرِهَا مَمحُوَّةً مِن لَيلِهَا،...، وَقَدَّرَ سَيرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِما، لِيُمَيِّزَ بَينَ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ بِهِمَا ، وَلِيعَلَمَ عَدَدَ السِّنِينَ**

وَالحِسَابِ بِمَقَادِيرِهِمَا ، ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوِّهَا فَلَكَهَا، وَنَاطَ بِهَا زِينَتَهَا ، مِن خَفِيَّاتِ دَرَارِيِّهَا وَمَصَابِيحَ كَوَاكِبِهَا))[1] .

الإمام (**عليه السلام**) في خطابه هذا يعطينا صورة واضحة لهذا الكون الفسيح الذي هو ((محكوم بقوانين رياضية محددة تتداخل مع بعضها لتشكل وحدة منسجمة بارعة))[2] ، فضلاً عن خضوعه لقوانين الجاذبية وما تحيط به من مجالات مغناطيسية ساعدت على اكتشاف العديد من المجرات واختراع الطائرات والسفن الفضائية لمعرفة أسرار الكون والفضاء [3]، ما أدى إلى تطور التكنلوجيا بشكل مذهل . وإنَّ السَّماء التي رفعها بلا عمد وما فيها من شهب ونيازك ونجوم وكواكب زينة لها ، والشمس والقمر اللذان جعلهما آيتين لليل والنهار يُعرَف بهما عدد السنين والحساب والأيام والشهور، مستمداً ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا**

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 440 ، (رهوات : جمع رهوة ، أي المكان المرتفع ، ويقال للمنخفض ، فهي من الأضداد ، والفُرَج : جمع فرجة – بضم فسكون- وهي المكان الخالي ، يقول : قد فرج الله ما بين جرم وآخر من الأجرام السماوية ، ونظمها على ذلك سماء ، بدون تعليق إحداهما بالأخرى وربطها بها بآلة حسية . صدوع : الشق ، أي ما كان في الجرم الواحد منها من صدع لحمه سبحانه ، وأصلحه فسواه ، وشج: بالتضعيف أي شبك من " وشج محمله" إذا شبكه بالأربطة حتى لا يسقط منه شيء ، ... ، أي أنه سبحانه شبك بين كل سماء وأجرامها ، ... ، في الطبقات العليا والسفلى عنها ، بالروابط الماسكة المعنوية العامة ، وهي من أعظم المظاهر لقدرته ، نهج البلاغة ، الشيخ محمد عبدة : 165 ، أشراجها : المقبض أو العروة ، فقول الإمام (عليه السلام) التحمت عرى أشراجها ، أي التصقت أجزاء الكواكب بعضها ببعض وتماسكت كما يمسكك بعروة الإبريق باليد ، ظ : في ظلال القرآن : 2 / 15 ، 18. الارتتاق : الالتئام ، فيقال ارتتق الشيء التأم ، ظ : تاج العروس ، الزبيدي : 25 / 332 . نقابها : جمع نقب ، وهو الخرق ، والشهب الثواقب : الشديدة الضياء ، أي جعل الشهب كالراصد لِما يُخرق من الأجرام فيعوض عنها بالشهب، ناط : (ناطه) ينوطه (نوطا : علَّقه) والنوط : التعليق ، ظ : تاج العروس : 20 / 155 ، أي وعلَّق في السموات زينتها المتمثلة بالكواكب والنجوم وغيرها) .

[2]) التدبير الإلهي : 19.

[3]) ظ : الفكر العلمي الفلسفي في الإعجاز القرآني ، دكتور وهاب كريم الثامر : 33 .

عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾[الإسراء: 12] ، كل ذلك فيه دعوة من منشئ النص إلى التفكر والتأمل اللذين يسهمان في غرس المعاني الروحية لدى المؤمن ، فضلاً عن إفحام المنكر وتبهيت الكافر ، بالغوص في لجج الكون عن طريق الغور في خبايا النص .

إنَّ نظرة فاحصة في شتى أرجاء النص ، تكشف لنا عن النظام النصي المتفق والمنسجم مع النظام الكوني ، وقد مثّل هذا النظم النصي معاني الأفعال الماضوية (**نظم ، لاحم ، وشَّج ، أقام ، التحمت ، علّق ، ناط**) الدالة على التناسج والتواصل ، وقد أسهمت إسهاماً فاعلاً في تحديد الزمان الخطِّي للنص ، انطلاقاً من نقطة زمن الحدث إلى نقطة زمن التلفظ وصولاً إلى الكشف ((عن طبيعة الأحداث التي ستنتج في المستقبل حسب مقاصد المتكلم ونواياه ...، فيوصل المتكلم في الدور الكلامي الحاضر بالماضي والمستقبل)) [1] عن طريق الواو الواصلة التي ساعدت على هذا النسج الخطِّي التراتبي للنص ؛ لتحقيق هدف واحد وهو خلق حالة الانسجام الواضحة بين الخلق الكوني واللغوي على السواء ، كما أنَّ الفعل **(ناداها)** فيه تلويح إلى الكينونة الإلهية المحصورة بين الكاف والنون ، والتي تكشف عن سرعة الإبداع الإلهي ، وتوضّح إبداع الإمام **(عليه السلام)** في اختياره هذه العناصر الكلامية دون غيرها ، مراعياً في ذلك التعاقبية والتراتبية الخطِّيَّة في نقل الحقائق العلمية بأسلوب فني رشيق يعمد فيه إلى تحويل الفكر المجرد إلى صور حسية من أجل إقناع المتلقي[2].

ولو دققنا جلياً في النص العلوي نجد أنَّه نص مزدوج بين الخلق الإبداعي والخلق الاتباعي والتقليدي ، فهو إبداعي كون منشئ النص ينتمي إلى النوع البشري ، ومن البشر

---

[1]) الوصائل في تحليل المحادثة : 120 .

[2]) ظ : النسق القرآني ، محمد ديب الجاجي : 490 .

ممن هم أرباب لصناعة البديع ، وفي نهج البلاغة يرتقي الإمام علي **(عليه السلام)** في القمة من الفصاحة والبلاغة والإبداع ، وهو إتباعي وتقليدي ؛ لكون المتكلم منقاداً لواجب الوجود مفتقراً محتاجاً إليه ، بل يستمد علمه من فيضه جل شأنه . وفيما يأتي مخطط عام لأنواع الخلق المذكورة في البحث .

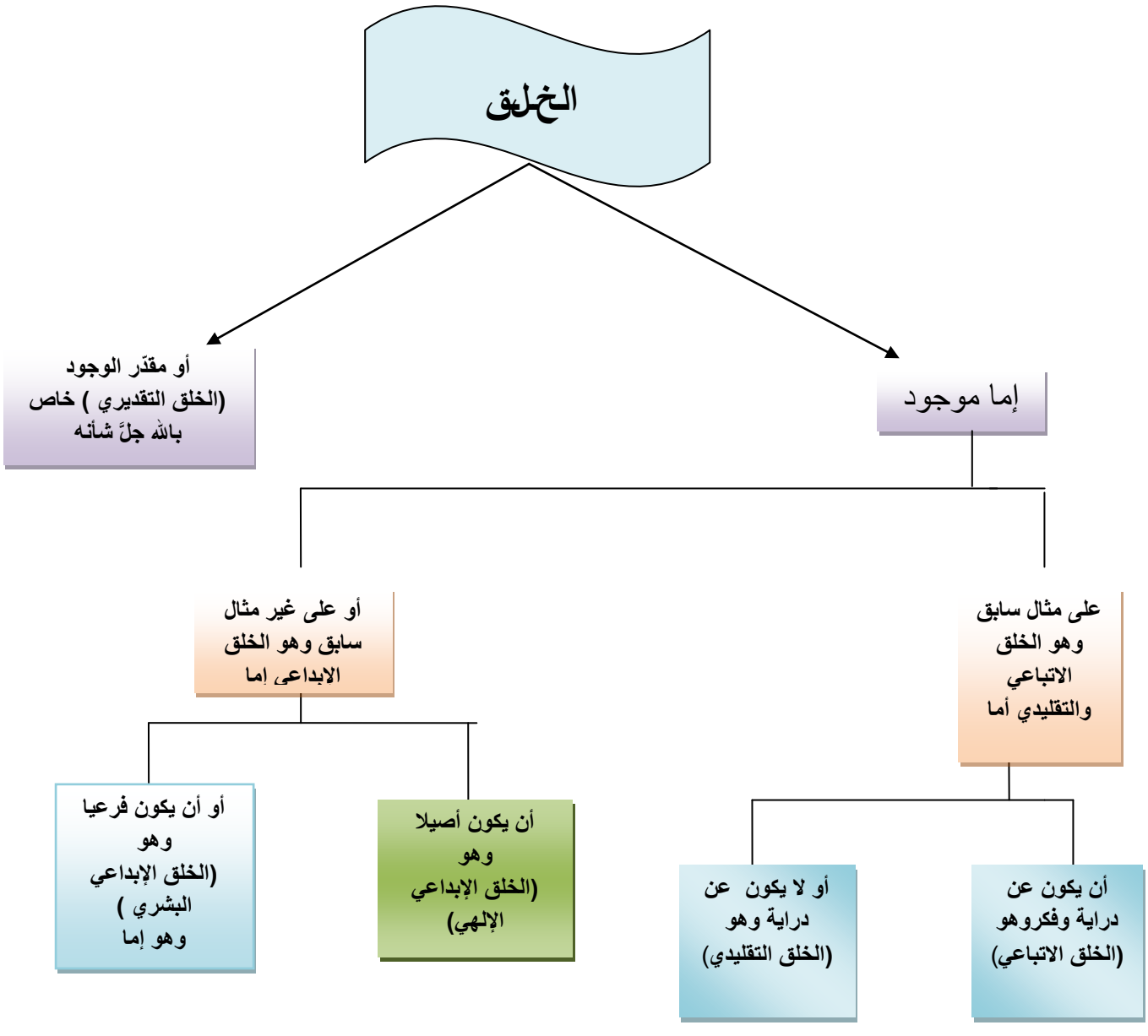

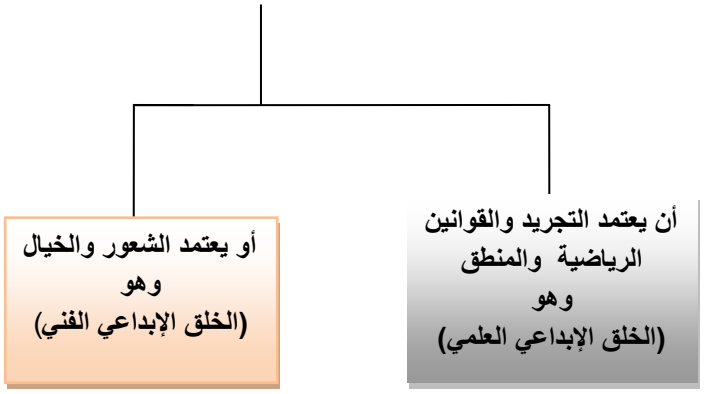

مخطط عام يبين أنواع الخلق

المبحث الثاني

خطِّيَّة ا لخلق ا لوجودي بين اللغة والكون

إنَّ الخلق الوجودي يشكِّل ظاهرة بارزة في نصوص نهج البلاغة ، والوجود أحد المفهومات المهمة التي عني بها الفلاسفة وأولوها اهتماماً خاصاً ، ويمكن تعريفه أنَّه ((بما هو موجود (أي) الثابت العين)) [١] ، أو هو((الذي يمكن أن يخبر عنه)) [٢] ؛ أي بمعنى أنَّ الخلق الوجودي يعني الماهية التي هو عليها وتتضمن مع ذلك الأدوات الإجرائية ، وعليه فالأشياء الموجدة جميعها تكون على صنفين:

١ -أن تكون أعياناً ثابتة كوجود الإنسان والحيوان والأجسام وكل ما له أبعاد ثلاثة.

٢ -يمكن الإخبار عنها كوجود الذات المقدسة والملائكة والروح والجنة والنار والجن.

---

[١]) بداية الحكمة ، السيد محمد حسين الطباطبائي : 11.

[٢]) المصدر نفسه :11 .

والخلق الوجودي هو((ما يتعلق بالوجود أو ينسب إليه الوجود)) [1] ، وبعبارة أخرى هو العملية المنتجة مادياً ومعنوياً للأشياء سواء وجدت هذه الأشياء المنتجة خارجاً أم ذهناً، وخلاصة القول : إنَّ الخلق هو إيجاد الأشياء من العدم أو إحداثها –كما ذُكر آنفا– فيكون منسوباً إلى الوجود أو متعلقاً به ؛ لأنَّه لو لم ينسب إليه لكان معدوماً لا يصدق عليه وجودها، وعليه فالوجود أعم من الخلق .

ومن هنا يُرى أنَّ الوجود مشترك معنوي بين واجب الوجود (الذات المقدسة) وممكن الوجود(سائر المخلوقات) ، فالأول وجوده بذاته لا يطرأ عليه الافتقار والعدم بخلاف الثاني وجوده بغيره ؛ ولذا قالوا الوجود حقيقته مشككة [2] ؛ أي أنَّه على مراتب متفاوتة من جهة الشدة والضعف ومن جهة التقدم والتأخر، ومن جهة القبلية والبعدية ، وهنا نلحظ الخطِّيَّة التعاقبية والتراتبية في الموجودات ، فعلى سبيل المثال وجود الذات المقدسة سابق على وجود مخلوقاته ، ووجود الملائكة سابق على وجود الإنسان وهكذا دواليك ، ولعل إخباره تعالى للملائكة بإنشاء خلق جديد ليس على مادتهم ولا على صنعتهم ، بقوله تعالى : ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة : 30] خير دليل على ذلك ، فضلاً عن وجود الواو المدّية في لفظة (الوجود) التي توحي إلى بعد زمني يصل الماضي السحيق بالمستقبل البعيد .

---

[1]) المعجم الفلسفي ، د . جميل صليبا : 2/ 564 .

[2]) ظ : بداية الحكمة : 12.

وقد قُسِّم الوجود إلى أقسام عدة ، لكن تقسيمه فيما يخص محل البحث جاء على قسمين[1]:

القسم الأول : من جهة ترتب الآثار عليه في الخارج وعدم ترتبها إلى وجود خارجي كوجود (الإنسان والحجر والملائكة) ، ووجود ذهني كوجود المفاهيم مثل(الجنة والنار، والعلة والمعلول ، والأزلية).

القسم الثاني : ومن جهة تقومه بالأبعاد الثلاثة وعدم تقومه إلى وجود مادي أو جسماني كوجود (الأرض والنبات) ووجود مجرد كوجود (الذات المقدسة والملائكة والروح).

ويمكن وضع ما ذُكِر على شكل مخطط كي يتضح بيانه كالآتي:

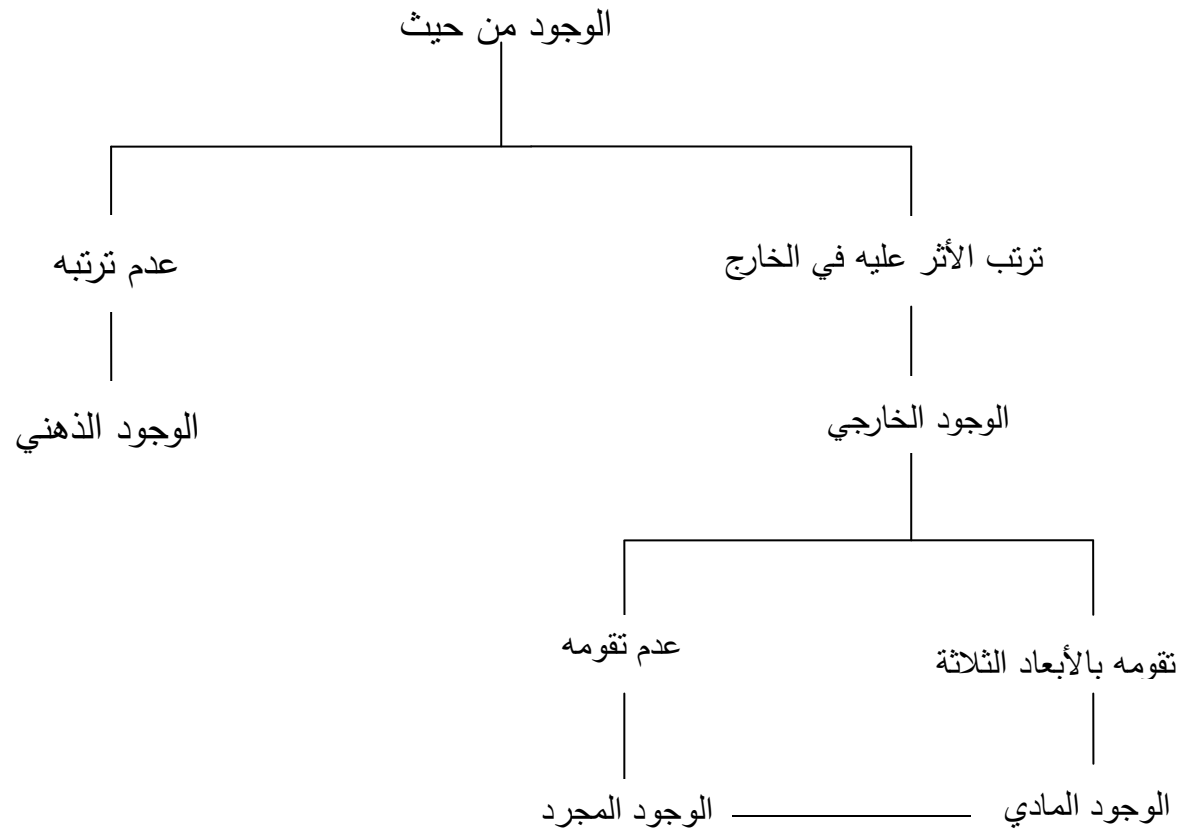

[1]) ظ : نافذة على الفلسفة ، صائن الشمري : 39 - 41 .

مخطط يبين أنواع الوجود المذكورة في البحث

أولاً : الوجود الخارجي : وهو ((كون الشيء في الأعيان)) [1]خارجاً تترتب على أعيانه آثار كالصحة والمرض والنمو ، والحرارة والبرودة ، والموت والحياة ، والضحك والبكاء ، والفرح والحزن ، والتكلم وعدمه ، وما إلى ذلك من المتغيرات ، فضلاً عن كونه ثابت العين ويمكن الإخبار عنه ، وهو بهذا المعنى يشير إلى نوعين من الوجود الخارجي (المادي والمجرد)– كما سيتضح بيانهما فيما بعد– وكون وجود الإنسان مادياً فعلاً مجرداً روحاً جُعِل مثالاً للوجود الخارجي لشموليته لهما ، ويتجلى ذلك فيما ذكره الإمام(**عليه السلام**) من وصف للإنسان في بيان أطوار خلقه داخل رحم الأم ومراحله العمرية الأخرى ، فقال :((...**أَم هَذَا الَّذِي أَنشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الأَرحَامِ ، وَشُغَفِ الأَستَارِ ، نُطفَةً دِهَاقًا، وَعَلَقَةً مِحَاقًا ، وَجَنِيناً ، وَرَاضِعاً ، وَوَلِيدَاً ، وَيَافِعًا، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلباً حَافِظًا ، وَلِسَانًا لَافِظاً ، وَبَصَراً لَاحِظاً ، لِيَفهَمَ مُعتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزدَجِراً**))[2] .

بداية النص كانت شاملة لمعان منها التقريع والتنبيه والتذكير بدلالة (أم) المعادلة التي تقتضي كلاماً سابقاً يشير إلى هذه المعاني ، مستوحياً ذلك من قوله تعالى :﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ**

---

[1]) المعجم الفلسفي : 2 / 559.

[2])شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 344/3 (الشغف : بضم الشين والغين ، جمع شغاف : وهو غلاف القلب ، وهو جلدة دونه كالحجاب وسويداؤه ، وهما يكن فإن المراد من الغلاف هنا المشيمة ، ظ : لسان العرب :9/ 179، ظ : قي ظلال القرآن : 1/ 405 ، دهاقا : الدهق شدة الضغط ونطفة دهاقا : أفرغتها إفراغاً شديداً، محاقا : ناقصة ، ظ : لسان العرب : 10 / 106 ، 338).

لِلَّهِ وَقَارًا ● وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[نوح : 13 – 14] –وان لم تتكشف هذه الأطوار أمام أعيننا إلا إنَّ العلم الحديث قد كشف ما قاله الإمام **(عليه السلام)** قبل أربعة عشر قرناً وما هذا إلا جزء من علم الإمام اللدنِّي ، لكن المتلقي لم يلتفت بعد– فأتى إليه بدليل آخر وهو بيان ذاته وروحه التي بين جنبيه كيف نشأت ؛ كي يكون الكلام أوقع في نفس المتلقي المتفهم المعتبر، فنلحظ في النص التعاقب الخطِّي في عبارة (**فِي ظُلُمَاتِ الأَرحَامِ ، وَشُغَفِ الأَستَارِ ، نُطفَةً دِهَاقًا، وَعَلَقَةً مِحَاقاً ، وَجَنِيناً ، وَرَاضِعاً ، وَوَلِيداً ، وَيَافِعَاً**) فهي وان اشتملت على معنى التداخل ، لكنَّها جاءت بشكل متعاقب أوله جدار البطن ، ويتلوه جدار الرحم ، بعدها جدار المشيمة[1] ، ومن ثم أغشيتها المعبّر عنها بالشغف ؛ أي شغف هذه الستائر الثلاث ، بعد ذلك ينتقل –عبر جمل تنحو منحى وصفياً– إلى الكيفية أو الحال التي سيكون عليها ذلك الخلق في تلك الظلمات من دون أن يكون هناك رابط لفظي في قوله :(شغف الأستار، نطفة دهاقا) ، فهذا الانتقال لم يحدث فجوة في ذهن المتلقي بل كان امتداداً خطِّيًّاً غير منفصل الأجزاء ، وكأنَّ المتكلم يعلم ما في ذهن المخاطَب وما يجول في خواطره من سؤال مضمر وهو(كيف نشأ في تلك الظلمات أو بأية حال وهيأة كان) فأجابه المتكلم بقوله : (نطفة دهاقا ....إلى ما بعده) فجاءت (نطفة) وما بعدها منصوبة لوقوعها أحوالاً ؛ لتبين الحال أو الهيأة التي يكون عليها في بداية خلقه ، ثم يتسلسل في الكلام بربط اللاحق بالسابق عن طريق (واو العطف) ، التي تفيد هنا الجمع بين المفاهيم في مضمار واحد هو هذا المخلوق الوجودي الذي أوكل إليه خلافة الأرض ، على الرغم من أنَّ الكلام شكلاً يشير إلى بيان مراحل النمو البشري للفرد ، فكان حقاً على المتكلم أن يستعمل (الفاء) المفيدة للترتيب الزمني بين الأحداث لكنَّه لم

---

[2]) ظ : شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2/ 270 ، ظ : في ظلال نهج البلاغة : 1/ 406 .

يستعملها؛ لأنَّ الغاية أسمى إذ تتمثل في بيان السلوك البشري . وهذه المراحل وإن تعاقبت مادة إلا إنَّها في مستوى خطِّي أفقي واحد من الناحية الإدراكية ؛ أي أنَّها مرحلة اللاوعي بدلالة المرحلة الإدراكية اللاحقة التي ذكرها (**عليه السلام**) قائلا: **(ثُمَّ مَنَحَهُ قَلباً حَافِظَاً ، وَلِسَانَاً لَافِظاً ، وَبَصَراً لَاحِظاً ، لِيَفهَمَ مُعتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزدَجِراً)** ، وهنا يشير إلى الجنبة المجردة للإنسان ، فالجوارح المتمثلة بـ(القلب ، اللسان ، البصر) –تكوينا– هي موجودة في نشأته الأولى ، لكنَّ المتكلم أراد الإشارة إلى مرحلة الوعي والفهم والإدراك ، وهذه لا تتحصل إلا بعد استكمال الأطوار الأولى من الخلقة ، ودلالة ذلك حرف العطف (ثم) الذي أفاد الترتيب والتراخي والخطِّيَّة ، بمعنى أنَّ هناك فسحة زمنية بين مرحلة اللاوعي وصولاً إلى مرحلة الوعي والإدراك، التي دلت عليها عبارة (**لِيَفهَمَ مُعتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزدَجِراً**) التعليلية المقيَّدة بالمنحة الإلهية الموهوبة للإنسان تحديداً دون غيره من باقي الممكنات ؛ إذ إنَّ الفهم والكف والامتناع لا يكون إلا عن دراية وتفكُّر، ثم بعد ذلك يشير إلى المرحلة الأخيرة التي يصل إليها ذلك الموجود الخارجي المتصف بالناطقية في العالم السفلي وهي مرحلة الاختيار، المشروطة بانتظامه وتناسب أعضائه ، وبلوغه مرحلة الاكتمال في النمو الجسدي والعقلي ، التي تقوده وتفضي به فيما بعد وجوده ، إلى النهاية المتسمة إما بالعذاب الأليم أو بالنعيم الأبدي ، والمرشد إلى هذه المرحلة الدلالة اللفظية (حتى) الدالة على الغاية فهي((تستعمل غاية لآخر الأمر، ولفظها يوحي بهذا المعنى،...، أي الوصول إلى نهاية الأمر)) [1] ، وأداة الشرط (إذا) في قوله (**عليه السلام**) : ((**حَتَّى إِذَا قَامَ اعتِدَالُهُ ، وَاستَوَى مِثَالُهُ، نَفَرَ مُستَكبِراً ، وَخَبَطَ سَادِراً ، مَاتِحَاً فِي غَربِ هَوَاهُ ، كَادِحَاً سَعيَاً لِدُنيَاهُ ، فِي لَذَّتِ طَرَبِهِ ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ، ثُمَّ لَا يَحتَسِبُ رَزِيَّةً ، وَلَا**

[1]) معاني النحو ، د . فاضل السامرائي : 3 /30 – 31 .

يَخشَعُ تَقِيَّةً ، فَمَاتَ فِي فِتنَتِهِ غَرِيراً ، وَعَاشَ فِي هَفوَتِهِ يَسِيراً ، لَم يَفِد عِوَضاً ، وَلَم يَقضِ مُفتَرِضاً))[1] التي تقتضي جواباً تمثل بالقضيتين الحمليتين المتعاطفتين(**نَفَرَ مُستَكبِراً ، وَخَبَطَ سَادِراً)** ؛ إذ إنَّ الاستكبار يستدعي النفور والإعراض ، ومن ثم يقتضي التحرك بلا عقل ولا ضابط وهذا الأخير يؤدي به إلى التيه ، فيُلحظ الخطِّيَّة في هذه الأحكام وتزامن وقوعها في نسيج متماسك متلاحق في أجزائه ، ثم إنَّ هذه الأحكام لا تخص جميع البشر وإنَّما ذكرها المتكلم من باب إطلاق الحكم على الكلي وتغليب العموم على الخصوص ، بل إنَّ بعض الأفراد مسكوت عنهم[2] ، وهي المسماة في علم المنطق بـ(القضية المهملة)[3] ، فحينما أطلقها

أراد الإشارة إلى ((الإنسان المطلق في قوة البعض لا الإنسان العام؛...لأن الأوصاف المذكورة إذا صدقت على المطلق فقد صدقت على بعض الناس وذلك البعض هم العصاة المردة بهذه الأوصاف))[4] تقريعا لهم وتنبيها للغافل ، وحث الطائع على دوام الشكر والامتثال لأوامر الله جل شأنه ونواهيه .

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 344، (خبط : خبطه يخبطه خبطا ، خبط البعير : إذا ضرب بيديه الأرض لا يتوقى شيئا ، وخبط عشواء : هي الناقة العمياء إذا مشت لا تتوقى شيئا ، وسادرا : حائرا ، والمعنى انه لا يهتم ولا يعي ما يصنع ، ظ : نهج البلاغة ، محمد عبدة : 146، ظ : لسان العرب : 7 / 280 – 281، ماتحاً : متح الماء : نزعه وهو في أعلى البئر والماتح الذي ينزل البئر إذا قل ماؤها فيملأ الدلو ، والغرب : بسكون الراء الدلو العظيمة ، أي لا يستقي إلا من الهوى، بدوات : جمع بدأة وهي ما بدا من الرأي ، أربه : حاجته ، والمعنى أي ذاهبا بما يبدو له من رغائبه وحاجته ، ظ نهج البلاغة ، محمد عبدة : 146 ، ظ : لسان العرب : 1 / 208)

[3]) ظ : شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2 / 271.

[4]) القضية المهملة : وهي من القضايا المقسمة باعتبار الموضوع الكلي ، وتعني ((أن يكون الحكم فيها على الكلي بملاحظة أفراده ، بأن يكون الحكم في الحقيقة راجعا إلى الأفراد ، والكلي جعل عنوانا ومرآة لها، إلا أنه لم يبين فيه كمية الأفراد ، لا جميعها ولا بعضها.... مثل الإنسان في خسر)) ، المنطق ، العلامة محمد رضا المظفر : 123 .

[4]) شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2 / 271 .

ويبدو في الفصل بين قوله(خبط سادرا) وقوله (**مَاتِحَاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحَاً سَعيَاً لِدُنيَاهُ)** وجود سؤال مقدر غير متجل في سطح النص ، يستشعره القارئ ، كما استشعره المتكلم في أذهان سامعيه وهو عن كيفية التخبط والنفور والاستكبار، فكان جوابه لبيان حال المتخبط في تيهه بكونه مندفعاً في أهوائه ، ساعياً في جلب المال أياً كان مصدره ، منغمساً في لذاته ، مستبداً بآرائه ، لم يمهل نفسه بالرجوع عن غيّه وطيشه ، والتفكير ملياً بعاقبة الأمور، ولم يصغِ إلى موعظة أو نصيحة يخشع لها قلبه ، وهذا ما يجعل الكلام قوياً متصلاً على خط أفقي من دون وجود رابط شكلي ظاهر سطحياً على الرغم من وجود الفصل ، ومن ثم جاءت أداة العطف (ثم) الدالة على البعد والتراخي في الزمان [1] ، والمردفة بـ(لا النافية) التي نفت هذا الإمهال والتراخي الزماني ؛ لتعطي مؤشراً واضحاً على هذا المعنى الخطِّي التعاقبي للأحداث المتتالية التي تمثل مظهراً من مظاهر الانسجام النصي ، المتخلل إلى حلقات النص بمستوياته الخطِّيَّة ، ثم جاءت القضية الحملية المقترنة بـ(الفاء) التي أفادت التعقيب من غير مهلة والمنعطفة عليها قضية حملية أخرى بـ(الواو) التي دلت على مطلق والضلال((حتى اختطفه الموت))[2] من غير إفادة من الكمالات ولا إجابة لما فرض عليه من الطاعات .

إنَّ هذا التدرج الخطِّي التتابعي لمراحل خلق ذلك الموجود الخارجي المزدوج ، يكشف عن حركية النص وتجدده فضلاً عن استمراره المتوائم مع استمرارية المنظومة الكونية الخاضعة لخطِّيَّة الزمان ، وإنَّ الروابط الحرفية المتمثلة بـ(الواو، الفاء ، ثم) ما هي إلا أمارات

---

[1]) ظ : معاني النحو : 3 / 209 .

[2]) في ظلال نهج البلاغة ، محمد جواد مغنية : 1 / 409 .

دالة على التنظيم الخطِّي التعاقبي للأحداث داخل الوحدة النصية المتناغمة مع التنظيم الخطِّي التعاقبي لعالم الوجود ولا سيما الوجود الخارجي . والأفعال الواقعة في النص تخضع لترتيب خطِّي زماني فيه تفصيل وتدرج ، وهي مجتمعة تكوِّن اللوحة النصية المتلاحمة الأجزاء ، ويمكن توضيح مراحل خلق الموجود الخارجي(الإنسان) في هذه الخطاطة اليسيرة :

خطاطة تبين مراحل خلق الموجود الخارجي (الإنسان)

أ – **الوجود المادي :** وهو أحد أقسام الوجود الخارجي ؛ لكونه يترتب عليه أثر ، وقد أطلق عليه الفلاسفة الوجود الجسماني ؛ لأنَّ الجسمية ((تقتضي امتداده في الأبعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق))[1] ، وهذا يعني أنَّ الموجود المادي يشغل حيزاً من الفراغ فهو من المفاهيم الدالة على الطبيعة والعالم الخارجي ، في مقابل الوعي والفكر اللذين يقعان تحت المفهوم المجرد ، ومثاله الإنسان في أحد جزئيه والأرض والسماء والشجر والجبال وكل ماله إثبات حسي أو ما يشاهد ، وقد وردت هذه الوجودات المادية في كلام الإمام **(عليه السلام)** لبيان

[1]) شرح بداية الحكمة ، محمد مهدي المؤمن : 1 / 100.

قدرة الباري (**جل شأنه**) في إيجادها ، من ذلك ما قاله عن صفة الأرض: **((كَبَسَ الأَرضَ عَلَى مَورِ أَمواجٍ مُستَفحِلَةٍ ، وَلُجَجِ بِحارٍ زَاخِرَةٍ ، تَلتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمواجِها ، وَتَصطَفِقُ مُتقَاذِفَاتُ أَثبَاجِهَا ، وَتَرغُو زَبَداً كَالفُحُولِ عِندَ هِيَاجِها ، فَخَضَعَ جِمَاحُ الماءِ المُتَلَاطِمِ لِثُقلِ حَملِهَا ، وَسَكَنَ هَيجُ اِرتِمَائِهِ إِذ وَطِئَتُهُ بِكَلكَلِها ، وَذَلَّ مُستَخذِيَّاً إِذ تَمَعَّكَت عَلَيهِ بِكَوَاهِلِها ، فَأَصبَحَ بَعدَ اِصطِخَابِ أَمواجِهِ ، سَاجِياً مَقهُوراً ، وَفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنقَاداً أَسِيراً ، وَسَكَنَتِ الأَرضُ مَدحُوَّةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ ، وَرَدَّت مِن نَخوَةِ بَأوِهِ وَاعتِلَائِهِ ، وَشُمُوخِ أَنفِهِ وَسُمُوِّ غَلوَائِهِ ، وَكَعَمَتهُ عَلَى كِظَّةِ جَرِيَتِهِ، فَهَمَدَ بَعدَ نَزَقَاتِهِ ، وَلَبَدَ بَعدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِهِ))** [1] . من اللافت للنظر أنَّ النص فيه إشارات دالة على حقيقة الوجود المشككة –أي المتفاوتة – والمحدودية والخطِّيَّة التراتبية ، يمكن توضيحها بالاتي :

1–إنَّ الأرض من الوجودات المادية ، إذن هي جسم ، والجسم يقتضي المحدودية والحيز ، وهذا يومئ إلى المكان ، والأخير يستدعي المسافة والاتجاه والامتداد ، فعملية الكبس تستدعي تحديد المسافات والإحاطة.

2– وجود الماء خلقاً قبل وجود الأرض وهنا يشير إلى التعاقب الخطِّي في الوجود .

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 452 ، (أواذي : أعلى الموج ، أثباجها : جمع ثبج – بالتحريك– وهو في الأصل ما بين الكاهل والظهر،...، استعارة لأعالي الموج التي يقذف بعضها بعضا، مستخذيا : منكسرا مسترخيا ، أو منقادا ، كلكلها : هو الصدر ، والمراد منها ملاقاة الماء للأرض ، تمعكت: تدلكت أو تمرغت في التراب ، اصطخاب : ارتفاع صوت أمواجها ، ساجيا : ساكنا ، بأوه : الزهو والفخر ، الكظة:–بالكسر– الامتلاء ، ويراد بها هنا ما يشاهد في جري الماء من ثقل الاندفاع ، نزقاته : الطيش ، والمعنى انه سكت بعد هيجانه ، ولبد بعد زيفان وثباته : أي أقام فيها بعد تبختره وهيجانه وعدم استقراره ، نهج البلاغة ، محمد عبدة : 171–172، ظ : في ظلال نهج البلاغة : 2 / 31) .

٣ -ثراء الكوكب بالماء ، اذ ان النص من بدايته الى نهايته يؤكد أهمية الماء للأرض فلولا الماء لكان كوكباً ميتاً لا حياة فيه ، فهو العنصر الذي يتوقف عليه حياة الكون ولا سيما كوكب الأرض وقد ذُكرت أهمية الماء في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[الأنبياء : 30].

4-وجود قوة هائلة أشد من قوة الماء وهيجانه وتلاطم أمواجه ، وهي قوة الذات المقدسة؛ الذي دل عليها الضمير المستتر في الفعل (كبس) فضلا عن معناه الذي يحتاج إلى قوة كبيرة لتحققه ، فكبسُ الأرضِ بقوة على الماء دلالة على أنَّ قوة الماء أشد وجوداً من قوة الأرض ، فاحتاج إلى قوة اشد وأعظم للهيمنة على قوة حركته ، فتنشأ من ذلك ثلاث قوى أحدها أشد من الأخرى في الوجود ، وهذا ينم عن النظام الكوني الدقيق الذي يسوده التعاقب الخطِّي والتزامني ، الذي ينسجم مع النظام النصي في التراتب الخطِّي ، ويمكن الإشارة إلى هذه القوى بحسب الشدة بالرسم الآتي:

رسم توضيحي يبين القوى الثلاث من
حيث الشدة والضعف

5- يُلحظ نوعان من التراتب الخطِّي ، وهما (التزامني) ونعني به سير الأحداث في مستوى زمني أفقي واحد ، والمتمثلة بالأفعال المضارعة الدالة على الاستمرار والحركة والتجدد(تلتطم ، تصطفق ، ترغو) وكلها تشير إلى حركة الماء واضطرابه ، وسبب ذلك يبينها النوع الثاني من التراتب ((الخطِّي المنطقي))[1] الذي يربط بين السبب ومسببه ، فسبب تلاطم الأمواج واصطفاقها ، أي اضطرابها ، وصدور الأصوات الهائجة منها ، هو كبس الأرض بقوة على أمواج الماء المتفاقمة .

6-يُلحظ التعاقب الخطِّي في سير الأحداث بدلالة (الفاء) المقترنة بالفعل الماضي(خضع) ، والمنسجم معناه مع لفظة (جماح الماء) التي تعني((صعوده وغليانه))[2] ؛

---

[1]) نسيج النص ، الأزهر الزناد : 48 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3/ 452 .

إذ إنَّ الخضوع يكون للعلو والطغيان ، والسكون والهدوء يكون للهيجان والاضطراب ، فالأفعال الماضية (سكن ، ذلَّ ، فهمد ، ولبد) التي هي وصف للماء ، والأفعال المتعلقة بالأرض ، المتمثلة بـ(وطئته ، تمعكت ، سكنت ، وردَّت، كعمته) فهي وإن كان لفظها يشير إلى الماضي إلا إنَّ دلالتها مستقبلية بدلالة ظرف الزمان(بعد) ، فضلا عن دلالته على الخطِّيَّة التعاقبية التي تنبئ عن تقدم الأحداث بعضها على بعض .

كل الأفعال المتقدم ذكرها ترتبط بجامع معنوي واحد هو الثبات والاستقرار للأرض ، والسكون والهدوء للماء بعد غليانه وطغيانه ، على الرغم من تتابعها وتعاقبها خطِّيّاً ، وضمن تراتبية زمنية واحدة ، فبعد الخضوع يكون السكون ، بعده يكون الاسترخاء ومن ثم الانقياد والانبساط للأرض وانطفاء ثورة الماء وغليانه ، ومن ثم استتباب السكون لكليهما(الماء والأرض) ، وما هذه المراحل المتسلسلة لانبساط الأرض واستقرارها على الماء إلا بمثابة مرحلة واحدة يمكن أن نطلق عليها مرحلة (الدحو) ؛ أي انبساط الأرض ، وهي ما أشار إليه الكتاب العزيز بقوله: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴾ [النازعات:30] ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنَّما أخذ الإمام(**عليه السلام**) في بيان أحوال الأرض بعد سكونها وإرسائها بقوله : ((**فَلَمَّا سَكَنَ هَيجُ المُاءِ مِن تَحتِ أَكنَافِهَا ، وَحَمَلَ شَوَاهِقَ الجِبَالِ الشُّمَّخِ البُذَّخِ عَلَى أَكتَافِهَا ، فَجَّرَ يَنَابِيعَ العُيُونِ مِن عَرَانِينِ أُنُوفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيَدِهَا وَأَخَادِيدِهَا ، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِن جَلَامِيدِهَا ، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِن صَيَاخِيدِهَا ، فَسَكَنَت مِنَ المَيَدَانِ لِرُسُوبِ الجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا ، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوبَاتِ خَيَاشِيمِهَا ، وَرُكُوبِهَا أَعنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا ، وَفَسَحَ بَينَ الجَوِّ وَبَينَهَا ، وَأَعدَّ الهَوَاءِ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِها، وَأَخرَجَ إِلَيهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا ، ثُمَّ لَم يَدعُ جُرُزَ الأَرضِ الَّتِي تَقصُرُ مِيَاهُ العُيُونِ عَن**

رَوَابِيهَا ، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ الأَنهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا ، حَتَّى أَنشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحيِي مَوَاتَهَا ، وَتَستَخرِجُ نَبَاتَهَا))[1] .

الفاء في (فلمَّا) كانت ممهدة للمرحلة السابقة ورابطة للمرحلة اللاحقة وهي مرحلة (الحياة) ، التي تكون نتيجة للمقدمتين السابقتين المتعاطفتين بالواو العاطفة التي أفادت الترتيب و(لمَّا) أعطت معنىً تبريرياً لما حصل وسيحصل ، والمتمثلتين بقوله :(**فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها، وحمل شواهق الجبال الشُّمَّخ البُذَّخ على أكتافها)** ، فضلا عن أنَّ (من) الداخلة على ظرف المكان (تحت) قد أفادت الابتداء [2] ؛ لأنَّ مبدأ السكون من جوانب الأرض ونواحيها ، ما يشير إلى التراتبية الخطِّيَّة التي بدأت من نقطة سكون الماء نتيجة كبس الأرض عليه ، ومن ثم تثبيتها بإرساء الجبال عليها كالأوتاد ، وقد عرض النص التعاقب الخطِّي المتمثل بتفجير ينابيع العيون من أعاليها بعد سكون هيج الماء وتثبيت الأرض بالجبال الشاهقات ، ومن ثم جريانها على شكل شقوق أو أنهار أو جداول في فلواتها، بعدها عدَّل حركات الأرض بصخورها الثقيلة وتغلغل أصول الجبال فيها حتى سكنت من التمايل في حركتها ، وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر ، قال تعالى : ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ**

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 452 ،(الشُّمخ البُذَّخ : جمع شاخ وباذخ ، أي عالٍ ومرتفع ، وقد يراد منها الضخامة مع الارتفاع ، عرانين : جمع عرنين –بالكسر– وهو ما صلب من عظم الأنف والمراد أعالي الجبل، سهوب : الفلاة ، أخاديد : جمع أخدود الحفر المستطيلة في الأرض ، جلاميدها : جمع جلمود وهو الحجر الصلد ، الشناخيب الشُّمِّ: جمع شنخوب وهو رأس الجبل ، والشم : الرفيعة ، والمراد رأس الجبل الرفيع الدقيق ، صياخيدها : جمع صيخود ، وهو الصخرة الشديدة ، لرسوب الجبال في قطع أديمها : سطحها، جوبات : جمع جوبة وهي الحفرة ، جراثيمها : ما سفل عن السطوح من الطبقات الترابية، واستعلاء الجبال

[2]) معاني النحو : 2 / 168 .

أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾[النحل:15] ، وإنَّ الذي دلَّ على التعاقب الخطِّي في النص العلوي، الأفعال الماضية اليقينية المخبرة عن هذه الحوادث المرحلية(فجَّر، فرَّق ، عدَّل) التي جاءت على صيغة (فعَّل) المفيدة للمبالغة والشدة وتكرار الفعل مرة بعد مرة [1] ، فكانت مؤشراً واضحاً على استمرارية الحدث بدلالة وجود آثاره المتمثلة بالأنهار والبحار والمحيطات والآبار، وحركة الأرض المتزنة بعد أن عدَّل حركتها عن طريق الجبال الراسيات ، وهنا لابد من الإشارة إلى أمرين:

الأول : مرور الأرض بسكونين ، سكونها على الماء وسكون الماء بها ، وسكونها بإرساء الجبال عليها.

الثاني : شدة ضعف قوة الأرض – وهذا ما أشرت إليه في الصفحات المتقدمة – الذي ألمح إليه السكون الثاني لها .

ومازال الترتيب الخطِّي قائماً في الواقع وفي اللغة الحاكية عنه ، بدلالة (الواو) العاطفة التي أفادت الاسترسال في الأحداث فضلا عن التفسير لما قبلها ، فيذكر المتكلم بعد إرساء الأرض وتثبيتها ، أعدَّ الهواء الذي لولاه لما كان هناك حياة على هذا الكوكب الترابي ، بعد ذلك أنشأ السحاب الناتج عن الماء والهواء ؛ لأجل إيصال الحياة إلى الأرض الموات التي لا يصلها الماء ، واستخراج النبات منها ، وكأنَّ هناك فسحة زمنية بين إعداد الهواء وإحياء الأرض الموات أشارت إليها أداة العطف (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي بين الأحداث ووقوعها ، ومن ثم استخراج النبات الذي ينبئ عن الغاية من إنشاء السحاب ، التي أكدتها(حتى) الدالة على معنى الغاية أو الهدف المرسوم ، كل ذلك إنَّما يكون بالإمكان

[1]) ظ : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : 3 / 35 .

الاستعدادي[1] ؛ لكون الأرض والجبال والماء والهواء وجودات مادية ، ومن صفاتها الحركة والتغير والتبدل والتعدد ، فهي مستعدة لأن تتحول إلى شيء آخر ، كإعادة الحياة إلى الأرض الميتة لقابليتها على العودة .

هذه الحقائق الوجودية المترتبة بأشكال مختلفة ، التي جاءت على وفق نظام كوني دقيق ثابت ، إنما نُقِلت إلينا عن طريق اللغة المشتملة على الألفاظ والجمل الكاشفة عن هذه الحقائق ؛ إذ إنَّ هذه الألفاظ تمثل ((النقاط المشعة في الجملة وعلى مستوى النص بحيث تصبح دلالات خطابية تشير إلى فكرة النص)) [2] المتمثلة ببيان صفة الأرض التي تعد البؤرة الأساسية للنص ، المرتكزة عليها كل الوجودات المادية المذكورة في المتوالية اللفظية((التي تعين فكرة الخطاب كونه أثرا دالا على المعنى))[3] ؛ لأنَّ المعنى بنية مضمونية تجتمع حولها كل تلك النقاط المشعة الدالة على حقائق الوجود .

ب- الوجود المجرد : وهو القسم الثاني من أقسام الوجود الخارجي ، وهو الوجود المقابل للوجود المادي أو الجسماني ؛ لذا يسمى بالوجود غير المادي أو غير الجسماني ((فلا يصدق عليه أنه جسم ولا تنسب إليه خصائص الأجسام كوجود الله الأقدس ، فانه ليس بجسم ولا يخضع لخصائص الأجسام)) [4] كالتغير والتبدل والحركة والإشارة إلى جهته ، وكذا الحال في وجود الملائكة والروح والعقل ، بل إنَّ العقل هو الفيصل الحاكم في إدراكها ،

---

[1])((الامكان ألاستعدادي : وهو قابلية مكنونة في شيء تؤهله لأن يكون شيئا آخر....كقابلية النبتة لأن تكون شجرة وهذا ينحصر في الموجودات المادية ؛ لأنها في حركة ونمو وتبدل دائما)) ، نافذة على الفلسفة ، صادق الساعدي : 48.

[2]) محنة المثقف ، د.عبد الحسين العمري : 170.

[3]) المصدر نفسه : 170 .

[4]) نافذة على الفلسفة ، صادق الساعدي : 41 .

وليس للحواس أثر في بعض مواردها ، وإنما تدلنا آثارها عليها بحكم العقل القاطع بأنَّ لكل أثر مؤثراً ولكل معلول علة ، كإثبات الجاذبية الأرضية عن طريق سقوط الأجسام ووجود التيار الكهربائي عن طريق توهج المصباح [1] ، وكذا الحال بالنسبة للغة فوجودها مجرد لا يمكن أن يستدل عليها إلا عن طريق أصواتها ورموزها وعلاماتها الدالة عليها بحكم العقل فضلاً عن أنَّ مسكنها فيه ، فاللغة هي الأداة الناقلة للمجردات والمحسوسات على السواء ، وقد نقل إلينا الإمام **(عليه السلام)** عن طريقها –وهو في معرض بيان عظمة الخالق وقدرته– صفة الملائكة التي تعد من الموجودات الممكنة المجردة ، التي لا يمكن للحواس أن تدركها ، وأنَّها أشرف هذه الممكنات ((بكمال العبودية لله)) [2] ، فكان حقاً على الله تعالى أن يسكنها في المكان الأشرف والأطهر؛ لأنَّهم أحقُّ به من غيرهم من الموجودات الممكنة ، فقال: ((**ثُمَّ خَلَقَ سُبحَانَهُ لإسكَانِ سَمَوَاتِهِ ، وَعِمَارَةِ الصَّفِيحِ الأَعلَى مِن مَلَكُوتِهِ ، خَلقاً بَدِيعاً مِن مَلَائِكَتِهِ ، وَمَلأَ بِهِم فُرُوجَ فِجَاجِها ، وَحَشَا بِهِم فُتُوقَ أَجوَائِهَا ، وَبَينَ فَجَوَاتِ تِلكَ الفُرُوجِ زَجَلُ المُسَبِحِينَ مِنهُم فِي حَظَائِرِ القُدسِ ، وَسَتُرَاتِ الحُجُبِ ، وَسَرَادُقَاتِ المَجدِ ، وَوَرَاءِ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَستَكُّ مِنهُ الأَسمَاعَ سَبُحَاتِ نُورٍ تَردَعُ الأَبصَارَ عَن بُلُوغِهَا ، فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا...**))[3] .

---

[1]) ظ : المصدر نفسه : 42 - 43 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2 / 368.

[3]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 442–443.(العمارة : الآهلة بالسكان ، الصفيح الأعلى : السطح أو السماء العليا ، زجل : رفع الصوت ، فجاجها : الطريق الواسع ، ستُرات : ما يستتر به ، سرادقات : جمع سرادق ، وهو ما يمد على صحن البيت فيغطيه ، الرجيج : الزلزلة والاضطراب ، تستك منه: أي تصم الآذان منه لشدته ، سَبُحات نور : طبقات نور ، وأصل السبحات الأنوار نفسها ، خاسئة :

بعد أن خلق الله السموات خلقاً بديعاً جيء بـ(ثم) شروعاً بترتب إبداع خلق آخر وهو الملائكة ؛ لأنَّها أعطت معنى المهلة الزمنية بين حدثي الخلق ، فجعل السموات سكناً لهم ومحلاً لإقامتهم ، ومن ثم عمارة هذا السكن بالإصلاح والحراسة والذكر والعبادة والتقرب ، وكانت الأفعال الماضية (خلق ، ملأ ، حشا) خير مرشد للتعاقب الخطِّي الموائم للتعاقب الكوني ؛ أي بعد أن أوجدهم ، نشرهم في السموات وغمرها بهم ، ولما فاق عددهم السموات عبَّأهم فيما بينها . وقد ذكر هذا النوع من الخلق في موضع آخر من خطبه ، التي بيّن فيها قدرة الله تعالى وانفراده بالعظمة . ومن علامات قدرته ، هذا الخلق المسيَّر لطاعته الذي رفعه عن أرضه وأسكنه سماواته ، فكان علمهم بعظمة الله وقدرته هي التي جعلتهم أكثر قرباً وخوفاً منه وطاعة له سبحانه ؛ إذ قال **(عليه السلام)** : ((**مِن مَلَائِكَةٍ أَسكَنتَهُم سَمَاوَاتِكَ ، وَرَفَعتَهُم عَن أَرضِكَ ، هُم أَعلمُ خَلقِكَ بِكَ ، وَأَخوَفُهُم لَكَ ، وَأَقرَبُهُم مِنكَ...وَإِنَّهُم عَلَى مَكَانِهِم مِنكَ ، وَمَنزِلَتِهِم عِندَكَ ، وَاستِجمَاعِ أَهوَائِهِم فِيكَ ، وَكَثرَةِ طَاعَتِهِم لَكَ ، وَقِلَّةِ غَفلَتِهِم عَن أَمرِكَ**))[1] ، وكأنَّه أراد المتكلم بتقديم السبب على المسبب والعلة على المعلول بقوله (لإسكان سمواته ، وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته) متدرجاً حسب الأولية في الوجود فالسموات متقدمة رتبة على صفيح الملكوت الأعلى ، وكلاهما متقدم على وجود الملائكة . ولما كان الامتلاء غير الحشو جاءت (الواو) العاطفة المفيدة لمعنى المغايرة والترتيب ، فضلا عن إعطائها معنى التعاقب الخطِّي لفعلي الامتلاء والحشو ، بتقديم الفعل (ملأ) ؛ لأنَّه لا يكون

متحيرة ، ظ : محمد عبدة: 167 ، ظ : شرح البحراني : 2 / 368 ، ظ : في ظلال نهج البلاغة : 2 / 22.)

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 4/ 130.

إلا للمكان الواسع ، على الفعل (حشا) الذي لا يكون إلا للمكان الضيق ، أو أنَّه أراد ملء داخل السموات بهم ، وحشو خارجها ما بين السماء والأرض منهم ، وفي هذا إيماءة لكثرتهم، وهذه الكثرة أوحت إليها العبارة المردفة بعدها (**زَجَلُ المُسَبِحِينَ مِنهُم فِي حَظَائِرِ القُدسِ)** ، **(وَوَرَاءِ ذَلِكَ الرَّجِيجِ الَّذِي تَستَكُّ مِنهُ الأَسمَاعَ)** ، فنلحظ التتابع الخطِّي في النص المنسجم مع الحدث الفعلي ؛ أي نتيجة ارتفاع أصوات الملائكة بالتسبيح لله تعالى في أماكن الطهر المقدسة يحصل الاختلاط واضطراب الأسماع منها ، وظرف المكان(وراء) أظهر التعاقب الخطِّي أيضاً بشكل جلي ؛ إذ يقتضي وجود أحداث قبلية أُشير إليها باسم الإشارة (ذلك) وأحداث بعدية ، ما يصحبه من تجل لنور الله وعظمته التي ((تردع أبصار البصائر عن إدراكها فترجع حسيرة متحيرة واقفة عند حدودها وغاياتها من الإدراك)) [1] ، بعد ذلك تكلم عن البنية أو الهيأة التي خلقوا أو كانوا عليها ؛ إذ خلقهم على صور وأشكال شتى كما هو حال البشر وسائر الممكنات ، فقال : ((**وَأَنشَأَهُم عَلَى صُورٍ مُختَلِفَاتٍ ، وَأَقدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ ، أَولِي أَجنِحَةٍ تُسَبِّحُ جَلَالَ عِزَّتِهِ ، لَا يَنتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الخَلقِ مِن صُنعِهِ ، وَلَا يَدَّعُونَ أَنَّهُم يَخلُقُونَ شَيئاً مَعَهُ مِمَّا انفَرَدَ بِهِ ، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ● لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنبياء : 26 – 27] جَعَلَهُمُ اللهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهلَ الأَمَانَةِ عَلَى وَحيِهِ وَحَمَّلَهُم إِلَى المُرسَلِينَ وَدَائِعَ أَمرِهِ وَنَهيِهِ ، وَعَصَمَهم مِن رَيبِ الشُّبُهَاتِ ، فَمَا مِنهُم زَائِغٌ عَن سَبِيلِ مَرضَاتِهِ))** [2] ، إلا إنَّهم يفترقون عنها لكونهم أجساماً لطيفة لا تخضع لخصائص المادة ، وأكثر ما قرنهم بالإنسان في المشابهة ، من ناحية خلقهم على صور شتى ، وجعلهم في مراتب مختلفة ، والمخالفة تكون من ناحية أطوار خلقته ؛ إذ ينفي عنهم المراحل

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2 / 370 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 443 .

العمرية التي يمر بها الإنسان ، والكيفية التي جاء بها عن طريق التناسل ، وذكر ذلك في أحدى خطبه فقال:((لم **يَسكِنُوا الأَصلَابَ ، وَلَم يُضَمَّنُوا الأَرحَامَ ، وَلَم يُخلَقُوا مِن مَاءٍ مَهِينٍ ، وَلَم يَتَشَعَّبهُم رَيبَ المَنُون**)) [1] ، ومن الناحية السلوكية ، فالإمام **(عليه السلام)** ينفي عنهم ما قد يفعله الإنسان من ادعاء الربوبية وانتحال منزلة الإله كما هو الحال في فرعون ، والإشراك بالله تعالى بقوله **(عليه السلام)** : **(لَا يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الخَلقِ مِن صُنعِهِ ، وَلَا يَدَّعُونَ أَنَّهُم يَخلِقُونَ شَيئاً مَعَهُ مِمَّا انفَرَدَ بِهِ)** أو مَن يجعلهم من بني البشر الجهلاء بأنَّهم هم من يخلقون ويرزقون [2] وهذا منافٍ ، ((بل غايتهم أنهم وسائط في إفاضة الجود على مستحقه))[3] ، وأنَّ الله وحده من ((انفرد بذاته في إبداعه فلا يدعون القدرة عليه أصلا ؛ وذلك لكمال معارفهم بأقدارهم ونسبتهم إلى بارئهم وقد أكرمهم الله تعالى بالتقديس عن النفوس الأمارة بالسوء التي هي مبدأ مخالفة أمره والخروج عن طاعته))[4] .

لو دققنا ملياً في الأحداث الماثلة في النص وجدناها تحولت من عالم الكون إلى ألفاظ وجمل تمثل عالم الخطاب ، محاولة رسم صورة للحدث الأصلي في ذهن السامع ، ومن ثم إدراكه لها على الرغم من غيابه عن النص ، مع مراعاة التتابع الخطِّي المتعاقب والمتزامن للأحداث المنقولة من قبل منشئ النص بشكل تراتبي ذلك ((أن اللفظ تبع للمعنى في النظم ، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس ... وأنه يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك))[5] ظهرت الاقتباسات القرآنية في النص العلوي التي أسهمت إسهاماً فاعلاً في

---

[1] المصدر نفسه :4 / 130 .
[2] ظ : في ظلال نهج البلاغة : 2 / 24 .
[3] شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2 / 370.
[4] المصدر نفسه : 2 / 370 .
[5] دلائل الإعجاز : 55 – 56 .

إظهار الخطِّيَّة والانسجام الموضوعاتي بين النصين القرآني والعلوي ؛ إذ إنَّ القرآن يعد الركيزة الأساسية التي أعتمد عليها الإمام (عليه السلام) كيف لا وهو ابن القرآن ، فساعدت على نسج النص في مجرى ملائم من الكلام ، الذي أسهم في التأثير في المتلقي وإمتاع

ثانياً// الوجود الذهني : وهو القسم الثاني من أقسام الوجود المقابل للوجود الخارجي ، وهو الوجود الآخر للماهية الذي لا تترتب عليه الآثار الخارجية ، والدليل على وجوده[1] :

-إنَّنا نحكم بأحكام ايجابية على الأمور المعدومة التي لا وجود لها في الخارج كاجتماع النقيضين، وشريك الباري محال .

- إنَّ هذه الأمور المعدومة إذا لم تكن موجودة في الخارج تعيَّن وجودها في الذهن وإلا لما صح الحكم عليها ؛ لأنَّه لا يصح الحكم على معدوم مطلقاً.

فالجنة إذا نظرنا إلى معناها عند أهل اللغة ، نجدها تعني البستان [2] ، وهي بذلك مفهوم مجازي يحتمل أكثر من معنى ، وإذا نظرنا إليها عند أهل الشرع أو الاصطلاح ، فهي مفهوم على وجه الحقيقة لها مصداق واحد فقط الذي هو في الآخرة ، والكلام نفسه يقال عن النار، وقد ذكر القرآن كلا المفهومين(المجاز والحقيقة) للجنة والنار، قال تعالى :﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** ﴾[الكهف :35] ويريد بها دخل بستانه ، فجاءت

---

[1]) ظ : بداية الحكمة : 35 ، و ظ: شرح بداية الحكمة ، تح : محمد مهدي المؤمن : 102.

[2]) ظ : لسان العرب : 13 / 100 ، مادة (جنن).

هنا مفهوماً مجازياً ، أمَّا المفهوم الحقيقي ليس له إلا مصداق واحد وهي الجنة التي في الآخرة

قال تعالى : ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَ اوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران:133] ، وأمَّا النَّار التي في الآخرة ، قال تعالى : ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾[البقرة : 24] ، وقوله تعالى : ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾[الأنبياء : 69] ،أراد بها المعنى المجازي ، وينظر في وجودهما من حيثيتين :

١ -من حيث وجود الرسل والأنبياء يكون وجودها خارجياً ؛ لأنَّهم هم من أخبرونا عنها.

٢ -من حيث قوانين المادة والتشخص الخارجي يكون وجودها ذهنياً ؛ إذ ليس لهما وجود في عالم الدنيا ؛ لكون وجودهما في عالم الشهود ، ومن هذه الحيثية سيكون محل البحث .

استهل الإمام (**عليه السلام**) خطابه في وصف الجنة بقوله:((**فَلَو رَمَيتَ بِبَصَرِ قَلبِكَ نَحوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنهَا ، لَعَزَفَت نَفسُكَ عَن بَدَائِعِ مَا أَخرِجَ إِلَى الدُّنيَا مِن شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ، وَلَذَهِلَت بِالفِكرِ فِي اصطِفَافِ أَشجَارٍ غُيِّبَت عُرُوقُهَا فِي كِثبَانِ المِسكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنهَارِهَا ، وَفِي تَعلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤلُؤِ الرَّطِبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفنَانِهَا ، وَطُلُوعِ تِلكَ الثِّمَارِ مُختَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكمَامِهَا، تُجنَى مِن غَيرِ تَكَلُّفٍ فَتَأتِي عَلَى مُنيَةِ مُجتَنِيهَا ، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفنِيَةِ قُصُورِهَا بِالأَعسَالِ المُصَفَّقَةِ وَالخُمُورِ المُرَوَّقَةِ**)) [1] ، فجاء الاستهلال

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 5 / 181(اصطفاف الأشجار : تضارب أوراقها بالنسيم بحيث يسمع لها صوت، كثبان : الكثبان جمع كثيب – وهو التل ، كبائ س : عساليج : جمع عسلوج أي ما لان من قضبان الشجر، أفنان : جمع فنن –بالتحريك– وهو الغصن ، الأكمام –جمع كم بكسر الكاف– : وهو

مطواعاً ومنسجماً مع الموضوع (الوجود الذهني) فهو خطاب للنفس والفكر على السواء ، فضلا عن طواعية النص المتمثلة بضمائر الغيبة المتناثرة في تضاعيفه ، والأفعال المبنية للمجهول كـ(**يُوصَفُ، أَخرِجَ ، غُيِّبَت ، تُجنَى ، يُطَافُ**) جاءت لتؤكد غياب جنة الآخرة المادي عن ساحة الدنيا ، وحضورها في الذهن وبصيرة القلب لو أزيل غبارها ، وقوله بقلبك لا يعني القلب الجارحة وإنَّما القلب الذي ينتج الفكر؛ إذ إنَّ انشغال القلب انشغال للذهن ، وإنَّ التأمل وانطباع صور الأشياء إنَّما يكون في الذهن ، وهذا الأخير ليست حالة دائمة للفكر الإنساني؛ ولهذا جيء بأسلوب الشرط (**لَو رَمَيتَ بِبَصَرِ قَلبِكَ نَحوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنهَا**) ، ما يعني أنَّه ليس كل من وُصفِت له الجنة تأمَّل في أوصافها ، فهي حالة افتراضية قليلة الحصول ؛ لأنَّ الأداة (لو) حرف امتناع لامتناع ، فامتنع عزوف النفس وذهول الفكر لامتناع التأمل والتفكر؛ لانشغال الذهن بملذات الحياة وتلوثه بها.

ولو تحقق الشرط وهو التأمل والتصور فيما يقال في وصف الجنة جاء جواب الشرط مكوناً من شطرين متتاليين تربطهما أداة الربط (الواو) التي أفادت المخالفة بين المتعاطفين حسب قاعدة الربط الخلافي[1] ، بقوله : ((**لَعَزَفَت نَفسُكَ عَن بَدَائِعِ مَا أَخرَجَ إِلَى الدُّنيَا مِن شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ، وَلَذَهِلَت بِالفِكرِ فِي اصطِفَافِ أَشجَارٍ غُيِّبَت عُرُوقِهَا فِي كِثبَانِ المِسكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنهَارِهَا**).

وعاء الطلع وغطاء النور ، المصفَّقة : المصفاة ، ظ : نهج البلاغة ، محمد عبدة : 298، ظ: في ظلال نهج البلاغة : 478/2).

[1])ونعني بـ(قاعدة الربط الخلافي (بالأداة): كل جملتين متتاليتين في النص ثانيهما تخالف الأولى ترتبطان بأداة ربط) ، نسيج النص :28 .

يلحظ التتابع الخطِّي المنطقي المبني على قانون العلِّية ، الذي يعني في المقام أنَّ عزوف النفس عن بدائع الدنيا وزخرفها ؛ هو نتيجة ذهولها ودهشتها بالصور التي جسَّدها الإمام (**عليه السلام**) وشخَّصها ، فظهر معناها في ذهن المستمع في صورة حسية مجسمة ، تمثلت باصطفاف الأشجار وانتظامها وتمايل أغصانها وثمارها مغلفة بوعاء كاللؤلؤ ، بعد ذلك يشير إلى جنيِها من غير تعب وجهد ، ثم يقول (يُطاف) ، وهي لفظة قرآنية اقتبسها الإمام(**عليه السلام**) من قوله تعالى :﴿**يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[الزخرف : 71] ، وجاءت بصيغة المبني للمفعول؛ لتنبئ عن استقرار وانتعاش حال نازليها–الذين وقع عليهم الطواف– فيما نزلوا ، بعد ذلك يأتي بأسلوب شرط آخر قائلاً:((**فَلَو شَغَلتَ قَلبَكَ أَيُّهَا المُستَمِعُ بِالوُصُولِ إِلَى مَا يَهجُمُ عَلَيكَ مِن تِلكَ المَنَاظِرِ المُونِقَةِ ، لَزَهِقَت نَفسُكَ شَوقاً إِلَيهَا، وَلَتَحَمَّلتَ مِن مَجلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهلِ القُبُورِ استَعجَالاً بِهَا جَعَلَنا الله وَإِيَّاكُم مِمَّن يّسعَى بِقَلبِهِ إِلَى مَنازِلِ الأَبرَارِ بِرَحمَتِهِ**))[1] ، هذا التكرار في الأسلوب الشرطي ، فضلا عن جواب (لو) الذي يأتي دائما مسبوقا ب(لام) التأكيد ، فيهما تأكيد على ندرة حصول هذا التأمل من لدن المستمع ، أو أنَّه دعوة إلى إشغال الفكر بالتأمل في جنَّة الخلد التي أعدَّها الله لذوي الألباب ، ثم ينهي الإمام خطابه بالدعاء له ولهم ، فهو لم يجرد نفسه عنهم وكأنَّه يوجِّه خطابه لنفسه أولاً ، ثم إنَّ هذه العناصر المؤلف منها الدعاء مفيدة في بناء النص وتتابعه الخطِّي ؛ إذ شكَّل الدعاء الحد الفاصل بين المتكلم والمستمعين في عملية التلفظ ، فهي وان بدت لحظة انقطاع بينهم لكنَّها في الوقت نفسه ، تشير إلى التفاعل والتواصل المتجلِّي في التتابع الخطِّي للكلام الذي يسبق الدعاء ، فهذه

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 5 / 181،(المونقة : المعجبة ، نهج البلاغة ، محمد عبدة : 298، ظ : في ظلال نهج البلاغة : 2 / 478). .

الخاتمة تكشف عن طبيعة العلاقة بين المتكلم بوصفه الواعظ والمرشد ، والمتلقي بوصفه المستمع والمسترشد ، وجاء في كتابه العزيز قوله: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:17] ، وهذا الأمر لا ينطبق على وصف النعيم الأبدي في جنة الآخرة ، وإنَّما يتساوى في ذلك الجحيم والعذاب الأليم في نار الآخرة ، التي وصفها الإمام (**عليه السلام**) في أثناء حديثه عن مراحل خلق الإنسان وما سيؤول إليه ؛ نتيجة تفضيله طريق الرذيلة على الفضيلة ، فيقول : ((**وَأَعظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُلُ الحَمِيمِ ، وَتَصلِيَةُ الجَحِيمِ ، وَفَورَاتُ السَّعِيرِ، وَسَورَاتُ الزَّفِيرِ ، لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ ، وَلَا دِعَةٌ مُزِيحَةٌ ، وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ ، وَلَا مَوتَةٌ نَاجِزَةٌ ، وَلَا سِنَةٌ مُسلِيةٌ ، بَينَ أَطوَارِ المَوتَاتِ ، وَعَذَابِ السَّاعَاتِ إِنَّا بِاللهِ عَائِذُونَ**))[1].

يتجلى التعاقب الخطِّي في النص عن طريق اسم التفضيل(أعظم) الذي يشير إلى النهاية العظمى للعذاب الذي لا يضاهيه شيء آخر، تلك النهاية التي تقتضي وجود بداية تتدرج فيها أنواع العذاب والبلاء ، ولفظة (بلية) جاءت استتماماً لمرور سلسلة من البلايا والنكبات على بني البشر في العالم السفلي والبرزخي ، حتى يصل إلى النهاية المستقبلية التي دلت عليها لام البعد المقترنة في اسم الإشارة (هنالك) ، فضلا عن إيمائها إلى التتابع الخطِّي، وأنَّ الجمل القصيرة المنفية بـ(لا) توحي إلى عدم وجود برهة زمنية بين أنواع العذاب

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3/ 344 ،(الحميم في الأصل الماء الحار ، والتصلية : الإحراق، والمراد هنا دخول جهنم ، سورات : جمع سورة وهي الشدة ، الزفير : صوت النار عند توقدها ، لا فترة مريحة : الفترة بالسكون ؛ أي لا يفتر العذاب حتى يستريح المعذب من الألم ، ولا دعة مزيحة : ولا تكون – أي راحة– حتى تزيح ما أصابه من التعب ، ولا قوة حاجزة : أي لا توجد قوة تحجز عن العذاب أو ترد غواشيه ، ولا موتة ناجزة : أي حاضرة ، سنة مسلية : أي أوائل النوم : مسلية ملهية عن الألم ، أطوار الموتات : ألوانها وأنواعها ، ظ : نهج البلاغة : محمد عبدة : 147–148 ، ظ في ظلال نهج البلاغة : 1/ 406).

وإنما يكون بشكل متزامن متواصل ، فضلا عن أنَّ معناها قد أعطى الدلالة وضوحاً ، وقوله (بين أطوار الموتات وعذاب الساعات) إشارة إلى مراحل متعددة من العذاب أو أنَّ هناك سلسلة من أشكال العذاب ، كل ذلك استوعبته اللغة شكلاً ومعنىً أو روحاً وجسداً ، فكانت خير معبِّر في إيصال كل المفاهيم التي تحدَّث عنها الإمام (**عليه السلام**) ووضع الحدود لها ، ورسمها في ذهن المستمع ((من منطلق كون الوجود هو الذي يكشف ذاته بوساطة مستعمل اللغة الذي يقوم بدور الوسيط من خلال استعماله اللغة في الدلالة على الحقيقة الوجودية))[1]؛ أي أنَّ الحقيقة الوجودية تمنح مستعمل اللغة وسيلة في الوصول إلى الموجودات التي يتكون منها الكون بكل مفرداته بوصفها تنتظم في تراتبية خطِّيَّة ، تنفتح أفقياً أو عمودياً بغية توسيع الرؤية التي تجد أنَّ الكون يتواءم مع اللغة في نظامها المتجدد.

المبحث الثالث

خطِّيَّة الخلق الفكري

[1]) الامتداد الزمكاني ، د . عبد الحسين العمري : 159 .

ونعني به الخلق الذي ينتجه الفكر بشكل مجرد ، وهو بهذا يشمل الحيوان الناطق وغيره ، إلا إنَّ الأخير يكون فكره شهوانياً غريزياً ، فهو يميز بين ما يضره وما ينفعه غرائزياً، ولا يهتم بشيء خارج نطاق الغريزة ، كإدراك القوانين الخاصة بالمادة وإيجاد العلائق بينها ، مع أنَّ الحيوان له مستوى ذكاء غريزي عالٍ وقدرة قد تفوق الإنسان من الناحية الجسدية إلا إنَّ هذه القدرة العالية من الذكاء والقوة البدنية لا تكون إلا في حدود الغريزة ولا تتعداها [١] ، على العكس من الإنسان ذلك المخلوق الضعيف بدناً فقد زوده الله **(جلَّ شأنه)** بالعقل ، ووهبه الشعور والتمييز بين الضار والنافع والخير والشر؛ لأنَّه ((يمتاز عن فصائل الحيوان بادراك الروابط بين الأشياء والقدرة على التمييز بين ما يعرض له من ظواهر الكون وصور الوجود))[٢] ، وبين ما يحظى به الذهن من أفعال وأفكار ذهنية تصل إلى أرقى صورها في التفكيك والتنظيم والتركيب محاولاً في ذلك المزج بين الصور الذهنية والأحداث الخارجية ، وما ذلك إلا بفضل الفكر الذي يعني به انتقال الإنسان ((عن أمور حاضرة في ذهنه أو مصدق بها تصديقا علميا أو ظنيا "..." إلى أمور غير حاضرة فيه ، وهذا الانتقال لا يخلو من ترتيب)) [٣] للمعلومات أو الأسس الموجودة مسبقا في الذهن ، والمأخوذة من البيئة والمحيط الخارجي عن طريق الأدوات الإجرائية المتمثلة بالسمع والبصر وصولاً إلى المطالب أو الحلول ومن ثم إلى النتائج ، أو يُعنى بالفكر بوصفه((الوعاء الذي يحوي التصور والتخيل والذاكرة والذكاء)) [٤] ، التي هي من العمليات الإدراكية أو المعرفية ، والتفكير يعد أرقاها؛ لكونه يتعامل مع المجردات . وقد وردت مادة(فكّر) ومرادفاتها(يعقلون ، يعلمون ، يتذكرون

---

[1]) ظ :الإنسان والحيوان والآلة ، فردريك كابلن وجورج شابوتييه ، ترجمة : ميشيل حنا : 32 ، 37 ، 53.

[2]) اللسان والإنسان ، حسن ظاظا : 25 .

[3]) الإشارات والتنبيهات ، ابن سينا : 1 / 119 – 5

[٤]) العلاقة بين اللغة والفكر ، د . أحمد عبد الرحمن حماد :17 – 18 .

...الخ) كثيرا في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾**[آلعمران:191]** ، وقوله تعالى :﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾**[البقرة:171]** ، وقوله تعالى:﴿**بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾**[القصص:43]** ، ولإيصال ما يجول في الفكر من صور وخيالات وأفكار إلى الآخر لابد من وجود لغة ، ((فالفكر لا يستطيع أن يعبر عن شيء إلا بواسطة اللغة ؛ لأنَّ الله منح الإنسان فكراً وجهازاً لغوياً ، فوظيفة الفكر التفكير ووظيفة الجهاز اللغوي النطق والتعبير ولا يكون ذلك إلا بلغة)) [١] مكونة من أصوات أو حروف ، التي هي ((أساس معرفة كل العلوم ؛ لأن معرفة ودرك كل المفاهيم في عالم الوجود من الغيب والشهود والمعاني كامن في الصورة الفردية والتركيبية للحروف . فمن عرف الحروف فهم معاني الكتب السماوية ، وجميع اللغات محتاجة إلى الحروف المكونة منها)) [٢] الكلمات ، ومن الأخيرة تتكون التراكيب والجمل حتى تصل إلى النص الذي يتحرك فيه الفكر إذ إنَّ ((الفكر يقوم بخلق عالمه الذي يتحرك فيه "..." هذا العالم هو عالم النص حيث تقوم الكتابة بتثبيت الدلالات والعلاقات التي يولدها الفكر)) [٣] أثناء حالة تفكيره بالكون ، فحركة الفكر من المبادئ التي هي الأسس إلى المطالب ، نعني بها من الحلول إلى النتائج ، هي حركة خطِّيَّة تنطوي تحتها محاورها الثلاثة –التعاقبية والتزامنية والتراتبية– تقابلها الخطِّيَّة اللغوية في التعبير؛ إذ تتدفق الألفاظ على وفق المعاني المراد الوصول إليها بشكل تعاقبي تراتبي عن طريق اللسان ؛ الذي يقوم بنطقها بعد أن يتم نضجها في الوعاء الفكري ؛ لأنَّ

---

[١]) المصدر نفسه : 18 .

[٢]) أسرار الحروف والأعداد ، علي بوصخر : 13- 14 .

[٣]) اللغة والتأويل ، عمارة ناصر : 20 .

اللغة ((نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار)) [1] ، أو هي ((نظام نحوي يوجد – بالقوة– في كل دماغ ، أو في أدمغة مجموعة من الأفراد)) [2] ، يقتضي هذا النظام تراتب الأفكار ليعبر عنها –بالفعل– لفظاً ومعنىً ، فهذا التوالي في اللغة هو توالٍ في الأفكار ومن ثم توالٍ في الوجود [3] ، وهو المعبّر عنه بالجريان ؛ إذ تتحرك اللغة من الحرف إلى الحرف والتاريخ من الحدث إلى الحدث ، فالمتكلم حينما ينتقل من الحرف الصامت إلى مجاوره فهذا الحرف المنطوق به إنَّما حدث لجريان النفس وامتداده فلذا صحَّت تسميته بالمجرى ، وهذا الجريان اللغوي والتاريخي يحقق الانتقال الآني والمكاني لتاريخ اللغة [4] ، والفكر على الرغم من تزاحم الأفكار وحشدها إلا إنَّ الإمام **(عليه السلام)** وصفه بالمرآة المقيّدة بالصفاء والوضوح؛ لكون الفكر كاشفاً عن صور المعقولات المجردة المتصورة ، كما المرآة كاشفة عن صور المحسوسات أو الأشياء المادية الماثلة أمامها ، فقال الإمام **(عليه السلام)** في باب الحكم والكلمات القصار: **((العلمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ، وَالآدَابُ حُلَلٌ مُجَددةٌ، وَالفِكرُ مِرآةٌ صَافِيَّةٌ))**[5]، فقد جعل صفاء الفكر ونقاءه نهاية لسلسلة خطِّيَّة ، أو نتيجة لقاعدة معرفية تمثلت بالعلم والأدب ؛ إذ إنَّ قاعدة الفكر الصافي لها صلة تقوم على أساس معرفي ينسج على نسيج واحد ، وهو أنَّ ذا الفكر الصافي يستقي تبتلات معرفته من الإرث الإلهي الذي يهبه الله تعالى لمن يحب والمتمثل بـ(العلم وراثة كريمة ، والآداب حلل مجددة) فالمتعلم أو

---

[1] اللغة والفكر والعالم ، د . محي الدين محسب : 30 .

[2] المصدر نفسه : 30 .

[3] ظ : اللغة والتأويل : 192 .

[4] ظ : المصدر نفسه: 193 .

[5] شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 9 / 238 .

الذي يبغي علماً يكتسب علمه ، أو يرثه من أستاذه كوراثة الأبناء لآبائهم في المال ، فالعلم هبة إلهية جودها لا ينفد وكمالها دائم لا يفنى عند مفيدها ومستفيدها ، وبالعلم ترتقي النفس وترتفع عن الدرائن التي تلوث الروح وتكسوها غباراً يحيدها عن طريق الحق ، فتتزين بالأدب والخلق الرفيع الذي يسعى إليه الدّين ، وقد أشار الإمام **(عليه السلام)** في موضع آخر يخص وراثة الأدب وضرورة التحلي به فقال : **((ولا ميراث كالأدب)**)[1] ، ويعني التحلي بالخلق القويم، فهو أفضل وراثة من المال وغيره ، فإذا أرست هذه الأسس أوتادها في الروح ؛ نتج عنها فكر نقي صافٍ كما هي طبيعته المجردة . ولا يهب الله تعالى هذا الإرث إلا لمن يجد فيه استعداداً لترويض ذاته ، وترويض الذات لا يكون إلا بإعمال الفكر واستخدام العقل بالتفكر في الوجود وصانعه ، ومنه يحصل العلم بوجود مقدر ومنشئ لهذا الكون ، ولهذا جعل الإمام **(عليه السلام)** أفضل العلم هو التفكر بقوله : **((ولا علم كالتفكر**"..." **ولا شرف كالعلم))**[2] ، فالإمام (عليه السلام) دقيق في اختيار الألفاظ لم يقل التفكير؛ لأنَّ التفكير وظيفة العقل أو الفكر ، التي لا تنفك عنه ، بل قال التفكر الذي هو لبّ العمل الذهني وأسُّه ، وهو تفكير مع زيادة وتكلُّف ومبالغة، ودلالة ذلك وزن الفعل (تفعَّل) الدال على التكلف والكثرة والتدرج[3] ؛ أي إعمال الفكر إرادياً وقصدياً مع التدبر والتمعن والاتعاظ في الشيء المفكَّر فيه، وهذا يتطلب التدرج في الشيء وصولاً إلى الغاية المبتغاة من التفكر ، وهي التكامل الروحي والعقلي ؛ لأنَّ الحصول على العلم ، والمعرفة بحقيقة الوجود ومنشئه هي

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 9/ 336 .

[2]) المصدر نفسه :9 / 336-337 .

[3]) ظ : شذا العرف في فن الصرف ، أحمد الحملاوي ، ضبط وتصحيح ، محمود شاكر : 33.

أشرف درجات الكمال وأرقاها ؛ لذا قال **(عليه السلام)** **(ولا شرف كالعلم)** ، بمعنى أنَّ العلم لابد من أن يصحبه تفكير وإلا كان علماً تلقينياً ، لهذا صار العلم المصحوب بالتفكر من أرقى مراتب المجد وأشرفها وأرقى الرُّقيِّ هو التفكر ، فهناك ملازمة بين العلم والتفكر هي الشرفية والرُّقيِّ ، فإذا كان الشرف هو العلم والعلم هو التفكر، فالتفكر هو الشرف ، فنلحظ التدرج الخطِّي المنطقي المبني على السببية ، فالتفكر سبب في جعل الفكر كاشفاً عن الحقائق كالمرآة الصافية ، وبصفائه يحصل على العلم الذي هو أشرف مراتب الكمال ، ومن ثم صار إرثاً ينتفع به في الحياة وبعد الممات ، فهي عملية مترابطة كونياً ووجودياً في الإنسان .

ولأنَّ مرحلة التفكر توصل الذات العاقلة المفكرة إلى أعلى مراتب الفضيلة ، فقد وردت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، واغلبها جاء بأسلوب الترجي والاستفهام المردف بالنفي كقوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا الْحَقِّ** ﴾ **[الروم: 8]** ، وقوله تعالى:﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾**[الحشر:21]** ، ما يعني أنَّ هذه المرحلة لا تحصل لكل فرد ، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام **(عليه السلام)** في قوله : **((وَلَو فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ القُدرَةِ ، وَجَسِيمِ النِّعمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَخَافُوا عَذَابَ الحَرِيقِ ، وَلَكِنِ القُلُوبُ عَلِيلَة ، وَالبَصَائِرُ مَدخُولَة . أَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ ، كَيفَ أَحكَمَ خَلقَهُ ، وَأَتقَنَ تَركِيبَهُ ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمعَ وَالبَصَرَ ، وَسَوَّى لَهُ العَظمَ وَالبَشَرَ!))**[1] .

في النص دلالات مضيئة ترشدنا إلى عدم وجود هذه الحالة أو الوصول إلى هذه المرحلة لكل من يمتلك عقلاً منها :

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 7 / 38 .

– أسلوب الشرط المتضمن الأداة (لو) التي هي حرف امتناع لامتناع المردفة بالفعل الماضي (فكَّروا) ، و(اللام) الواقعة في جواب الشرط (رجعوا)– أي امتنع التفكر ، فامتنع الرجوع إلى جادة الصواب – فيه دلالة نفي مبطنة وهو أنَّه لم يفكِّروا في عظمة الكون وانتظامه ، الذي تتناغم حركته مع حركية اللغة المعبِّرة عن هذه العظمة ، ومنه يُفهم ويُدرك وجود منشئ لهذا النظام والانسجام الكوني واللغوي ، وإنَّ نفي التفكر يحيدهم عن طريق الحق والخوف من عذاب الحريق ؛ لأنَّ التفكر يستدعي حصول العلم اليقيني بكون الله قادراً ، القادر الذي لا يتوسل بالأسباب عند إيجاد الأشياء ، فيستدل بفكره على عظيم قدرته وجلال نعمته .

– حرف (الواو)الذي أفاد المغايرة والاختلاف بين المفاهيم ، والمردفة بـ(لكن) التي هي نوع من أنواع الوصل العكسي ، ما يعني أنَّ ما بعدها على عكس ما هو متوقع [1] ؛ لذا استدركت كلاماً محذوفاً دل عليه المفهوم السابق ، المتضمن أسلوب الشرط بانتفائه وعدم حصوله وتقدير المحذوف (ولكن لم يفكِّروا بعظمة الوجود وعظمة منشئه) ؛ لأنَّ (القلوب عليلة والبصائر مدخولة) ؛ أي منغمسة في الملذات والشهوات ، وهذا ينافي صحتها وسلامتها فأدى إلى اعتلالها ومعيبها ، ((ومع وجود المنافي لصحة قلوبهم وسلامة إبصار بصائرهم لا يحصل الصحة التي هي من شرط الفكر فلا يحصل الفكر فلا يحصل معلوله وهو الرجوع إلى الله)) [2] ، فأخَّر العلة عن المعلول ، لربما أراد الاستئثار في تقديم متممات الكلام ؛ التي هي المعلولات المتمثلة بـ(التفكير في عظيم القدرة ، وجسيم النعمة ، من أجل الرجوع إلى طريق الحق ، والوقاية من عذاب الحريق) على نتائجها أو علتها .

---

[1]) ظ : أدوات الاتساق وآليات الانسجام : 31 .
[2]) شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 4 / 119 .

– أداة الاستفتاح (ألا) التي أفادت التنبيه والتأكيد ، وما بعدها الفعل المضارع (ينظرون) ، ما يعني أنَّه افتتح عقولهم من خلال التنبيه إلى طريق من طرائق الفكر المؤدية إلى إعماله ، وهو طريق الحس المتمثل بالعين الباصرة ، فهو طريق يقيني لا شك فيه ولا ريب ؛ لأنَّ هناك شيئاً مادياً مجسداً منظوراً إليه ؛ لذا فهذا السبيل مدعاة حجة عليهم، ودليل قطعي لهم ، ثم أخذ الإمام **(عليه السلام)** بعد التنبيه إلى صغير ما خلق على نحو الإجمال لا التفصيل ؛ يبين إحكام خلقه وإتقانه على الرغم من صغر حجم المخلوق ، وما أودع فيه من مجارٍ للسمع والبصر لتكون حلقة وصل بين الفكر وهذا الكون الفسيح الذي هو ضمن منظومته ، ثم ساوى وناسب بين عظمها وجلدها ، وفي ذلك ترميز عالي المستوى بين حجم المخلوق والوظائف المناطة به لا يمكن إدراكها إلا بالتفكر العميق .

ولما كان الإمام **(عليه السلام)** قد عرض لنا وسيلة من الوسائل الناقلة للصور المادية إلى الفكر وهي حاسة البصر ، شرع في بيان طرق الفكر مجتمعة بشكل متسلسل واصفاً من يُعمِلها بالبصير الواعي ، فقال : **((فَإِنَّمَا البَصِيرُ مَن سَمِعَ فَتَفَكَّر ، وَنَظَرَ فَأَبصَرَ ، وَانتَفَعَ بِالعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرعَةَ فِي المَهَاوِي وَالضَّلَالَ فِي المَغَاوِي))**[1].

الإمام **(عليه السلام)** دقيق في انتقاء ألفاظه ، فانتقى لفظة (البصير) التي هي صفة من صفات الباري جلَّ شأنه ، والتي تعني علمه تعالى بخفايا الأمور علماً مطلقاً لا حدود له ، غير مقيَّد بآلة ولا بالوجودين اللحظي والموضعي ، بخلاف من قرنهم بها ؛ بل حصرها فيهم بدلالة أداة الحصر (فإنَّما) ؛ التي أفادت تأكيد الصفة لهذا الصنف الخاص من النوع الإنساني ، إلا إنَّ بصيرتهم محدودة بحدود بشريتهم ، ومقيَّدة زماناً ومكاناً بالآلة اللتان هما

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 5 / 103.

حاستا السمع والبصر المتآزرتان والمرتبطتان بحاسة القلب أو الفكر ، فضلاً عن أنَّها امتداد لبصيرة الخالق ، التي تأتي في مرحلة الاختيار ؛ التي أشرنا إليها في مبحث الخلق الوجودي، وهي المرحلة الثالثة بعد مرحلتي التكوين المادي والإبداعي ، اللذين نعني بهما تكوين الجسد والروح ، وهي مرحلة تنشطر إلى طريقين هما :

-عدم إعمال الفكر وهو المؤدي إلى طريق الغي والضلال والاستبداد وهو ما ذكرناه سابقا في المبحث الثاني[1] .

-طريق إعمال الفكر وأدواته الإجرائية الذي هو محل البحث .

فيلحظ التدرج الخطِّي بدءاً من لفظة البصير الممتدة من بصيرة الخالق ، وصولاً إلى الكمال المستمد من الكمال المطلق ، فالبصيرة هي فيض الهي يودعه الله تعالى في صنف خاص من عباده ممن تحلَّوا بالتقوى والالتزام بأوامره ونواهيه ، والخوف من عقابه وعذابه ، وهذا الشعور لا يكون في النفس ولا ينفذ إلى القلب إلا بعد إعمال الفكر عن طريق السمع والبصر ، انتهاءً إلى التكامل الروحي .

إنَّ هذا العمل الفكري تصحبه خطِّيَّة تعاقبية تراتبية بدلالة حرف العطف (الفاء) التي أفادت التعقيب والترتيب والسببية حينما قال (من سمع فتفكَّر) ، عطف التفكر الذي هو عملية عقلية مجردة على السمع ؛ الذي هو إحساس يُدرك به الصوت المجرد ، عطفُ نتيجة على سبب ؛ أي أنَّ التفكر نتيجة مترتبة عن سمع الآيات والدلائل التي تعبر عن حقيقة الوجود وصانعه ، ومن ثم إدراكها والإذعان لها ، والعمل على وفق الفهم والمعرفة المتحصلة منها ، وكثيرا ما ورد في القرآن الكريم السمع الإدراكي ؛ بمعنى سمع ففهم ووعى واستجاب وأطاع

---

[1]) المبحث الثاني من البحث : خطِّيَّة الخلق الوجودي : الوجود الخارجي :46 وما بعدها .

وانقاد لما وعى وأدرك ، من ذلك قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾**[الأنعام : 36]** ، ما يعني أنَّ هناك سمعاً لا عن وعي مجرد أصوات تكون حجة على سامعها ، فتصل إلى آلة السمع التي هي الأذن الجارحة ، فيعرضون عن الامتثال إلى الحق ، فيكونون في حكم الأصم الفاقد لهذه الحاسة ، وقد ذُكِر ذلك في الكتاب العزيز، قال تعالى : ﴿**وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾**[الأعراف: 179]** ، والأمر نفسه في قوله (نظر فأبصر) فقد يراد منهما معنيان :

-النظر الحسي الذي يكون عن طريق العين الجارحة بمعونة الفكر الذي عبَّر عنه بالإبصار، ذلك أنَّ النظر هو بداية الإبصار الأولى من غير روية ، فإذا أعمل الفكر فيما نظر إليه من هذا الكون وما فيه من الخلائق ، وأدرك أنَّ كل ما في الوجود معلول ولابد من علة أوجدته حين ذاك سمي هذا التفكُّر إبصاراً، وهو نفاذ البصر إلى القلب الذي يعني نظره وخاطره[١].

-النظر العقلي الذي يكون الفكر هو المحور الأساس ؛ لأنَّ الأعمى الفاقد للجارحة المسؤولة عن الإبصار والنظر إلى الأشياء ، وكذا الذي يجلس في مكان مظلم ، يحصل له التفكر في المجهول من أجل الوصول إلى المعلوم ؛ لأنَّ النظر هو فعل صادر عن مركز الفكر لاستحصال المجهول عن طريق المعلومات المناسبة والمرتبة [٢] ، ومن ثم ((استقصاء النظر إلى الشيء والتبصر فيه ، وتأمله ، فكأنها رؤية عقلية تستقصي بها حقائق الأشياء وبواطنها ، أو حدس تدرك به المعقولات)) [٣] عن طريق القلب والعقل اللذين هما موطنا

---

[1]) ظ : المعجم الفلسفي : 1 / 211.

[2]) ظ : المصدر نفسه : 2 / 473 .

[3]) المعجم الفلسفي : 1 / 211.

الفكر، وقد ورد المعنيان في الكتاب العزيز، قال تعالى :﴿**ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون** ﴾**[يس : 66]** ، وقوله تعالى :﴿ **أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا**﴾**[الأعراف : 195]** إشارة إلى المعنى الحسي ، وقال تعالى :﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي** ﴾**[الرعد: 16]** إشارة إلى المعنى العقلي ، وفي آية أخرى فرّق فيها بين النظر والبصر، قال تعالى :﴿**وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** ﴾**[الأعراف : 198]** ، فقد أومأت الآية الشريفة إلى النظر بالآلة الجارحة وهي العين ، والى البصر بنظر القلب وخاطره، وكل ذلك من أجل فهم المعنى فهماً سليماً والانتفاع بالعبر ، ومن ثم سلوك جادة الحق والفضيلة والابتعاد عن جادة الباطل والرذيلة .

وهنا مسألة تجدر بنا الإشارة إليها وهي مسألة مقترنة بالقرآن الكريم ، ألا وهي مسألة تقديم السمع على البصر ، فقد ذكر صاحب البرهان أنَّ سبب التقديم هو من جهة شرف الإدراك ، ومن جهة القرب ؛ لأنَّه من يسمع حسَّك يكون أقرب [1] ، ويبدو أنَّ السمع مقدَّم على البصر للأمور الآتية :

-السمع أشمل وأعم من البصر ؛ لأنَّ المسموعات يدركها الأعمى والبصير ، وتدرك في الضياء والعتمة من دون واسطة ، والبصر لا يدرك المبصرات إلا بالواسطة وهو الضوء حال سقوطه على الأجسام وانعكاسها على العين فتبصرها .

-السمع منفرد والبصر مشترك ، فلا يمكن إدراك أكثر من صوت في لحظة واحدة عند سماعه ؛ لأنَّه يوقف عملية الفكر أو يشوشها فيحدّها عن إدراك المسموع ، على العكس من

---

[1]) ظ : البرهان في علوم القرآن : 3 / 249 ، 254 .

البصر الذي يمكن مشاهدة أكثر من صورة في آن واحدة ، وهي التي عبر عنها دي سوسير بخطِّيَّة الدال السمعي ، والدال البصري .

–السمع متعلق بالمجردات التي يدركها العقل ولذا قُرِن بالتفكر ، والفكر هو موطن الإدراك ، والبصر متعلق بالأشياء المجسمة المحسوسة .

إنَّ عملية التفكر التي تقود الإنسان إلى الجادة الصحيحة في العالم الدنيوي حتى يصل إلى التكامل الروحي ، ما هي إلا جزء صغير جداً من مظاهر النظام الكوني العجيب ؛ إذ إننا نلحظ التراتب الخطِّي التعاقبي في هذه العملية الكونية الوجودية المهيمنة في العقل الإنساني، والدال على الخطِّيَّة الفكرية في النص عن طريق أدوات الربط الخلافي المتمثلة بـ(الفاء) الدالة على الترتيب والسببية التي أشرنا إليها أعلاه ، و(الواو) الدالة على الجمع المطلق مع المغايرة بمعنى أنَّ عملية التفكر المرافقة للحاستين السمعية والبصرية تتزامن في آن واحدة ، وفي هذا إشارة إلى محور من محاور الخطِّيَّة وهو التزامنية ، والأداة(ثم) التي أفادت الترتيب الزمني مع الإمهال ؛ أي بعد استغراق الزمن لعملية السمع الإدراكي ، والرؤية العقلية ، والانتفاع بالعبر أدى به إلى اجتناب طرق المهاوي والمغاوي التي بها فرح الشيطان وغضب الرحمن ، فيلحظ من بداية النص إلى نهايته ، أنَّ الألفاظ تطلب بعضها بعضاً وكأنَّها سلسلة متلاحمة الأجزاء لا تنفك عن بعضها البعض.

الفصـــل الثاني

خطَّيِّة البناء

• مدخل :

من الضروري قبل الغور في تفاصيل البحث ، التدقيق في معرفة هذا المصطلح الذي يشكل الجزء الثالث من عنوان البحث والوقوف عنده من الجانبين اللغوي والاصطلاحي، فالسامع والقارئ للفظة البناء للوهلة الأولى ينصرف ذهنه إلى البناء الهندسي أو المعماري ، وفي((حقيقة الأمر إن المعاجم الأوربية تنص على أن فن المعمار قد استخدم هذه الكلمة منذ منتصف القرن السابع عشر))[١] بمعناها الهندسي ، لكنَّ المعجمات العربية استعملتها للدلالة على التشكيل والتماسك والتركيب والثبات ، فالبناء من الفعل "بني" و((الباء والنون والياء أصل واحد ، وهو بناء الشيء بضم بعضه إلى بعض . تقول بنيت البناء أبنيه ، وسمى مكة البَنِيَة))[٢] ؛ أي الشكل أو التركيب المتماسك ، ودلالته على الثبات ما ذكره ابن منظور بقوله: ((وسمي بناء من حيث كان البناء لازما موضعا لا يزول من مكان إلى غيره)) [٣] ، ومن هنا أطلق النحاة على الحالة التي يكون فيها آخر الكلمة الملازمة لحركة واحدة في الإعراب على

---

[١]) نظرية البنائية في النقد الأدبي ، د . صلاح فضل : 120.

[٢]) معجم مقاييس اللغة : 1/ 302 ، مادة (بني) .

[٣]) لسان العرب : 14 / 94 ، مادة(بني).

الرغم من تغير العوامل الداخلة عليها حالة بناء ، وبهذا المعنى الأخير يقترب من معنى الخطِّيَّة ومحاورها ؛ لكونه يقتضي وجود أجزاء مهما تغيرت مواضعها تترابط فيما بينها بشكل تعاقبي تراتبي متخذة اتجاهاً واحداً ثابتاً لا تراجع فيه.

أمَّا البناء في الاصطلاح فهو ((اختيار المباني التي يقدمها الصرف للتعبير عن المعاني النحوية))[١] ، أو يعني ((إعادة بناء الشيء لإبراز وظائفه من خلال عمليتين هما الاقتطاع والتركيب ، أي اقتطاع الأجزاء الدالة للشيء ، للكشف عن كيفية قيامها بوظائفها ومدى تأثيرها في الكل ، ثم تركيب هذه الأجزاء بعد اكتشاف قوانين حركتها في كلٍّ عضوي وتحليل القواعد المتصلة بإيحاءاتها وأنظمتها المختلفة)) [٢] ؛ لأنَّ النص نظم يقوم على مجموعة من الأصوات المرتبطة بالمعنى ، وعلى العلاقات القائمة بين الوحدات أو الأجزاء المكونة للخطاب ، فلو اختلف تكوين النص في نظمه وبنائه ، لاختلفت دلالاته ومعانيه ، تبعاً لتغير مبانيه في الموقع والوظيفة ؛ لكون المباني هي رموز للمعاني التي تقوم عليها اللغة، ويلحظ من السابق أنَّ الخطِّيَّة في البناء اللغوي على ضربين :

أولا : خطِّيَّة أفقية بالنظر إلى المباني ؛ أي النظر إلى تراصف العناصر أو المكونات واتساقها بعضها بجنب بعض بعيداً عن المعنى ، وهذه الصفة مهيمنة في تكوين الجملة عند سيبويه [٣] . ويظهر التتابع الخطِّي الأفقي على مستوى تتابع الكلمات والجمل وترابطها عن

---

[١]) اللغة العربية معناها ومبناها : د . تمام حسان : 187 .

[٢]) نظرية البنائية في النقد الأدبي : 140 .

[٣]) ظ : الكتاب : 1 / 33– 38 ، و ظ : مفهوم الجملة في كتاب سيبويه : 105 .

طريق الأدوات النحوية والإحالات التي تساعد على تحليل النص ، وهو الذي يدرسه البناء التركيبي من هذا الفصل .

ثانيا : خطِّيَّة عمودية بالنظر إلى المعاني ودلالة المباني أو التراكيب التي يُبنى منها النص ، وانتهاءً إلى نقطة التكامل في المعنى الذي يحمل في طياته الهدف المراد من وراء فكرة النص ، وهذا ما سيبحث في البناء الدلالي من هذا الفصل.

وهي بهذا تنسجم مع خطِّيَّة البناء الكوني ، المتمثلة بالتتابع الخطِّي لسير الأحداث الذي نعني به الزمان المهيمن على هذا البناء في قبالة أفقية المباني الناقلة لهذه الأحداث. والخطِّيَّة العمودية تمثلت بالمكان ؛ لكون الأحداث يتعاقب وجودها في المكان الواحد ضمن مدد زمنية أفقية متباعدة أو متقاربة ، وهي بهذا تقابل البناء الدلالي للنص ، الذي هو بمثابة المكان الذي تتهاوى عليه الكلمات المنتجة له عن طريق تركيبها أفقياً ، والبحث عن المعنى الذي تنتجه هذه التراكيب ، الذي يضمن الانسجام والتجانس المتتالي للمعاني النصية التي تواكب الأحداث الكونية.

ومن المفردات التي تقارب هذه المفردة في المعنى ؛ لكونها تنتمي إلى الجذر الثلاثي نفسه (ب ، ن ، ي) ، كلمة "بنية" وهي تعني في اللغة ((الهيئة مثل المِشية والرِّكبة،...، ويقال فلان صحيح البنية ، أي الفطرة)) [1] ، وهنا تشير إلى المعنى الذهني أو المجرد ، وقد استعملت في كثير من العلوم ، وفسرها أصحاب كل علم بما يلائم صناعة ذلك العلم ، فعلى سبيل المثال في مجال علم الاجتماع فُسِّرت على أنَّها البناء أو التركيب الذي يكون من إنشاء الفكر العقلاني ، وفي علم النفس والفسيولوجيا يرون أنَّها مجرد مرادف لكلمة "صورة"مع

---

[1]) لسان العرب : 14 / 95 ، مادة (بني) .

التأكيد على العلاقات القائمة بين المكونات ، ما يؤدي إلى رسم أشكال من المعاني والدلالات عن طريق اللغة ، ومنهم من جعلها قرينة على المعنى النحوي الذي تؤديه الكلمة في الجملة، وهناك من علماء الرياضيات من أطلق (البنية الجبرية) على مجموعة من العناصر المتراتبة التي يتحدد فيما بينها قواعد أو قوانين تتحكم في صياغتها وتكوينها ومختلف عملياتها [1] ، وهي بهذا تشير إلى الخطِّيَّة الرياضية ، والمنسجمة مع التتابع الخطِّي اللغوي والكوني ؛ لأنَّ اللغة والكون نظامان مؤلفان من سلسلة من الوحدات ، والعناصر اللفظية الناقلة للأحداث الفعلية ، والحقائق الخارجية الناتجة عن حركة الكون بشكل منتظم متعاقب تارة ، ومتزامن تارة أخرى . والبنية في نهاية الأمر هي مفهوم مجرد أو إطار ذهني لصورة الكلمة أو الشيء التي تسمح بفهمه وإدراك تكوينه[2] ، ثم يأتي البناء مترجماً هذا المفهوم وإعطائه شكلاً ملموساً يسهم في فهم المعاني الحاصلة من ترابط مبانيها وترجمة العلاقات القائمة بينها .

ويتضح من السابق أنَّ البنية سابقة على البناء ؛ لكون البنية فكرة أو صورة ذهنية لشيء يراد تجسيده أو تشكيله عن طريق البناء على السطح المرئي الذي عن طريقه يمكن الوصول إلى المعنى الماورائي لسطح النص . وهناك من الباحثين من يعترف بأنَّ الهدف من استعماله لكلمة "بنية" هو إدراك ومعرفة ما في الواقع –الذي يقوم بتحليله وتركيبه– من أنساق، وبهذا يحصل لديه شعور بما في موضوعاته من وحدة نسقية ، لكنه يبقى عاجزاً عن إظهار تلك الوحدة بشكل واضح[3] من دون البناء الذي يعد صورة شكلية بارزة لهذه الأنساق.

---

[1]) ظ : مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية ، د. زكريا إبراهيم : 16، و ظ :البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان : 17.

[2]) ظ : نظرية البنائية في النقد الأدبي : 140 ، و ظ : البيان في روائع القرآن : 17 .

[3]) ظ : مشكلة البنية أو البنيوية : 17 .

وقد وردت هذه المفردة في القرآن الكريم ، وبصيغ اشتقاقية متعددة ، اسماً تارة وفعلاً تارة أخرى ، وأيّاً كان ورودها فهي تدل على عظمة الخالق وقدرته ؛ لأنَّ البناء يقتضي وجود بانٍ له ، وفي قوله تعالى :﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ **[البقرة : 22]** ، دلالة واضحة على((أن العالم مخلوق بتدبير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية)) [1] ، وأيضا كثر ورودها في نهج البلاغة ؛ لكونه الكتاب الذي يغترف من القرآن الكريم ، من ذلك ما قاله في وصيته لأصحابه في أداء الأمانة ((**أَنَّهَا عُرِضَت عَلَى السَّمَواتِ المَبنِيَّةِ**))[2] .

ويفيد البناء من معناه اللغوي والاصطلاحي المتانة والتماسك ، وقد أشار الكتاب العزيز إلى هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ** ﴾[ق : 6] ، أي مالها من شقوق أو فتوق ، وهو المعنى نفسه الذي أشار إليه الإمام (**عليه السلام**) حينما تحدث عن الخلق المجرد "الملائكة" وأشرنا إلى ذلك في الفصل الأول[3] ؛ إذ قال: ((**وَمَلأَ بِهِم فُرُوجَ فِجَاجِهَا ، وَحَشَا بِهِم فُتُوقَ أَجوَائِهَا**)) [4] ، كأنَّه فسَّر قوله تعالى(**مالها من فروج**) بملئه هذه الفروج وحشوها بالملائكة المسبحين .

---

[1]) مفاتح الغيب ، الفخر الرازي : 2 / 120 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 5 / 346.

[3]) الفصل الأول من البحث : المبحث الثاني(خطية الخلق الوجودي) : الوجود المجرد : 59 وما بعدها.

[4]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 442-443.

المبحث الأول

خطِّيَّة البناء التركيبي

إنَّ مصطلح البناء التركيبي يعني ((تأليف الكل من أجزائه)) [١] ، أو هو بحسب القواعد البنائية مجموعة من الكلمات التي تتلاءم فيما بينها وتدخل في تركيب أوسع ، من دون الأخذ بالحسبان نسبة التقديم والتأخير بين الأجزاء كما هو الحال في الترتيب الذي يقتضي ذلك[٢].

ويفهم مما ذكر سابقا أنَّ البناء التركيبي هو ذلك الكلي المعتمد في تشكيله على تلاحم الأجزاء وتأليفها ونسجها على خط أفقي ، كتركيب النص من مفردات معينة ، وإنتاج هيكل أو مؤلَّف له معنى سواء أكان هذا البناء المركب معتمداً في تكوينه على المبدأ والنتيجة ، أم تجميع الأشياء المجردة وتركيبها ومدى ترابطها مع الواقع المرئي ، أو التركيب بين الأشياء على وفق رؤية تشخيصية أو جهة محددة أو قاعدة مقننة ، وبناء على ذلك سيكون البحث في خطِّيَّة البناء التركيبي على مستويات ثلاثة:

١ –البناء التركيبي النفسي :

---

[١]) المعجم الفلسفي : 1 / 268 .

[٢]) ظ : المصدر نفسه :1 / 269 ، و ظ : معجم المصطلحات الألسنية : 60 .

يشير إلى تركيب النفس الإنسانية بوصفها ذلك البناء اللامرئي أو الجوهر المركب من قوى ثلاث ، **القوة المطلقة** وهذه لا تمييز فيها بين فرد وفرد ، كقدرة الطفل على الكتابة والمشي والنطق ، **والقوة الملكة** وهذه القوة تتفاوت بين الأفراد في الشدة والضعف ، فهي تحتاج إلى الدربة والمران والتكرار، كحسن الخط ، والخطابة ، والغضب ، وحسن الخلق ، والكرم وغيرها ، **والقوة الكمالية أو المكتملة** [1] وهذه لا تكون إلا لفئة خاصة ممن روضوا نفوسهم على الأفعال المستحسنة من أجل الوصول بالنفس إلى أعلى مراتب الرُّقي التي يريدها الله تعالى لعبده ، ويستتبعها القوة المستسلمة والراضية بقضاء الله سبحانه ، وقد ورد ذكر مراتب النفس في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[يوسف : 53] ، وقال تعالى : ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ● ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً** ﴾[الفجر: 27-28] ، وقال تعالى : **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ● وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة 1-2] ، والعقل هو المرتكز الذي يُسيِّر هذه القوى المكنونة في النفس البشرية ، ولا تظهر خطِّيَّتها إلا عن طريق السلوك ، فالإمام **(عليه السلام)** أشار إلى هذه المراتب في كلامه بشكل متناثر ، بالنصح والترغيب تارة ، وبالنفي والتحذير تارة أخرى ، من ذلك ما ذكره عن الفطرة التي هي أرضية البناء النفسي للإنسان ، فقال : **((وَإِنَّمَا قَلبُ الحَدثِ كَالأرضِ الخَالِيَةِ مَا أُلقِيَ فِيهَا مِن شَيءٍ قَبِلَتهُ))**[2] ، وقال عن الولد الصغير : **((ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ ، وَنَفسٍ صَافِيَّةٍ))** [3] ، وهنا يشير إلى حالة النفس التكوينية قبل تشغيل قواها ، ومعرفة الخط السلوكي الذي تسير به من وراء هذا التشغيل ، أو هي القوة الكمالية التي يكون

---

[1]) ظ : معارج القدس في مدارج النفس ، الغزالي : 51.
[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 8 / 230 .
[3]) المصدر نفسه : 8 / 231.

عليها الإنسان قبل تلوثها ؛ أي يولد الإنسان ونفسه مطمئنة مطيعة لخالقها محبة للخير ، فشبَّه قلب الصبي الصغير السّن ؛ لأنَّ القلب أحد مراكز النفس ، بالأرض الخالية المتقبِّلة لما يزرع فيها نافعاً كان الزرع أو آسناً ، ولما كان كذلك فيكون ذا نية سليمة صحيحة، ونفس صافية خالية من الشوائب ، ومن هنا تبدأ مسيرة القوى التي تقود النفس ، إما إلى طريق الفضيلة ، أو إلى طريق الرذيلة ، وهو مؤدى كلام سيد المرسلين محمد **(صلى الله عليه وآله وسلم)** :**((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ))**[1].

وسلوك أيّ الطريقين –الفضيلة أو الرذيلة– من النفس لا يكون إلا بعد إقامة الحجة وتنبيهها إلى ضروب النعم التي وهبها الله تعالى لهذه النفس وإلى ذلك أشار الإمام **(عليه السلام)** فقال : **((جَعَلَ لَكُم أَسمَاعَاً لِتَعِيَ مَا عَنَاهَا ، وَأَبصَاراً لِتَجلُوَ عَن عَشَاهَا ، وَأَشلَاءً جَامِعَةً لِأَعضَائِهَا مُلَائِمَةً لِأَحنَائِهَا ، فِي تَركِيبِ صُوَرِهَا، وَمُدَدِ عُمُرِهَا))**[2].

أهم ما ينقله النص هو أنَّ التراكيب السالفة المتمثلة بـ(أسماعا لتعي ما عناها، وأبصارا لتجلو عن عشاها ، وأشلاء جامعة لأعضائها ملائمة لأحنائها) تومئ إلى القوتين المطلقة والممكنة أو الملكة ، فالقوة المطلقة التي لا يتفاوت فيها الأفراد تمثلت بأن جعل لهم جميعاً أسماعاً وأبصاراً وأعضاءً وقلوباً ، وركَّب صورهم بالهيأة التي نراها اليوم، وأنَّ الجملة المكونة من الفعل وشبه الجملة (جعل لكم) تشير إلى :

– أنَّ الجعل لا يكون إلا لله تعالى بوصفه هو المالك الحقيقي للكون وما فيه .

– أنَّ شبه الجملة (لكم) دال على أن الملكية إنما تكون لجميع الأفراد المخاطبين الحاضرين ممن ألقي عليهم الخطاب في زمن التكلم ومَن لم يُلق عليهم ؛ لأنَّ خطابات الإمام

---

[1]) أصول الكافي : 2 / 12 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 336 .

(**عليه السلام**) غير مقيَّدة بزمن الخطاب ، كالخطاب الإلهي شاملة لكل الأزمان ، بوصفه خطاباً ينتمي إلى المنظومة القرآنية التي تتجاوز حدود الزمان والمكان .

– أنَّ التركيب الإسنادي(جعل لكم) يعد البؤرة أو النواة التي ترتكز عليها التراكيب أعلاه؛ إذ يشعر القارئ بتماسك البناء التركيبي الخطِّي لأجزاء الجملة والنص بأكمله ؛ لأنَّ((علاقة الربط والارتباط بطريق الإسناد هي بؤرة الجملة ونواتها))[1] ، فضلاً عن التركيب البنائي(**في تركيب صورها ، ومدد عمرها**) الذي جاء مكملاً لخطِّيَّة النص المتناغمة مع تراتبية قوى النفس ، والخطاطة الآتية توضح البناء التركيبي لقوى النفس المشتركة بين المخلوقات ، والمختصة بأفراد النوع الإنساني المتفاوتة شدة وضعفا بينهم:

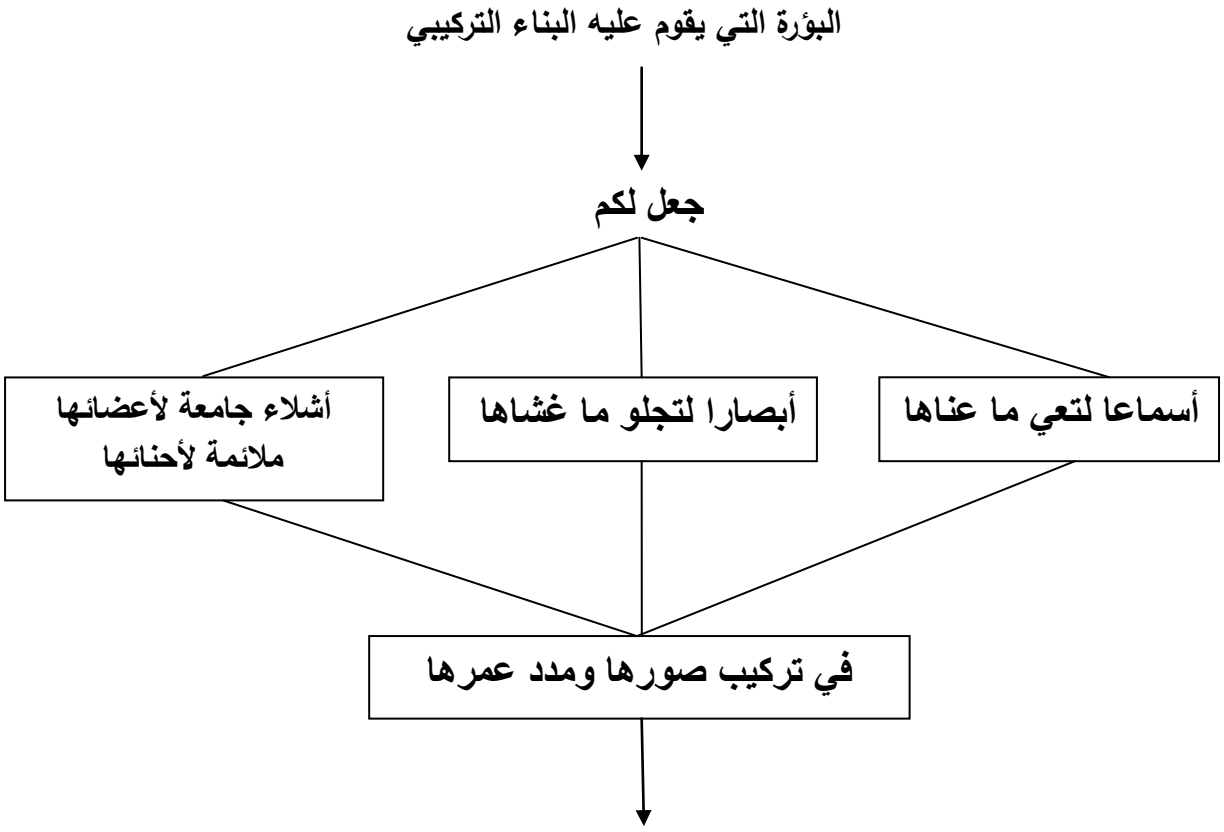

[1]) نظام الارتباط والربط في اللغة العربية ، مصطفى حميدة : 161.

مكملات البناء التركيبي

بعد أن أشار إلى القوة الأولى للنفس (القوة الحسية) ، فهي وإن كانت تشترك فيها مع الحيوان إلا إنَّ هذا الاشتراك مادي ، ثمَّ شرع في بيان القوة الممكنة التي يتفاوت فيها الأفراد شدة وضعفاً ، شروعاً ضمنياً يفهم من البناء التركيبي للجمل ، والإحالات المتمثلة بلام التعليل في الفعلين(**لتعي ، لتجلو**) والضمائر في (**عناها ، عشاها ، أعضائها ، أحنائها ، صورها، عمرها)** التي أوضحت الغرض من جعل الحواس للإنسان ، وكأنَّه أراد بهذا التعليل ، الإيحاء إلى أنَّ القوة الثانية (الملكة أو الممكنة) هي محصلة القوة الأولى ، والإشارة إلى البناء الخطِّي المتناغم مع تدرُّج قوى النفس في تعاقبها زمنياً ، والقول بأنَّها متفاوتة ؛ لأنَّ الوعي والكشف والاعتبار بما خلق الله لا يحصل لكل من ملك هذه الحواس ؛ لذا جُعِلت حجة عليهم ، كما قال تعالى :﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[يس:65] ، وقال تعالى:﴿**وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾[الأعراف:179] ، وقد ذكر هذا المعنى (**عليه السلام**) في موضع آخر فقال: **((وَمَا كُلُّ ذِي قَلْبٍ بِلَبِيبٍ ، وَلَا كُلُّ ذِي سَمعٍ بِسَمِيعٍ، وَلَا كُلُّ نَاظِرٍ بِبَصِيرٍ))** [1] ، وهذا التفاوت بين الأفراد في هذه القوة هو الذي يقودها إلى القوة الثالثة ، التي يمكن تسميتها بحسب حالة النفس التي تكون عليها بفعل العقل ، فإذا كان العقل هو المهيمن على النفس والمسيِّر لها كانت مطمئنة وسميت القوة بـ(العاقلة أو الكمالية) ، التي تقود إلى طريق الحق والفضيلة ، وإذا كانت الشهوة أو الغضب هو المهيمن على النفس كانت أمَّارة بالسوء ،

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 418.

وسميت القوة بـ(الشهوانية أو الغضبية) ، التي تقود النفس إلى طريق الرذيلة والباطل ، ويُلحظ أمر هذه القوى والملكات النفسانية جلياً في كلام الإمام **(عليه السلام)** ، منه ما وصف فيه المتقين الذين هيمنت على أنفسهم القوة العاقلة ، فقال: ((**إِنَّ مِن أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيهِ ، عَبداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفسِهِ ، فَاستَشعَرَ الحُزنَ ، وَتَجَلبَبَ الخَوفَ ، فَزَهَرَ مُصبَاحَ الهُدَى فِي قَلبِهِ**))[1] ، فقد استحضر منشئ النص القوة (العاقلة أو الكمالية) بشكل جلي عن طريق البناء التركيبي للنص ، الذي جاء موائماً لبيان صفات مَنْ قويت عنده هذه القوة ، وآثرت العقل على شهوات النفس ومفاسدها ، والمتمثل بالأداة (إنَّ) التي أفادت توكيد الخبر عن القوة وعبارة (**أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفسِهِ**) ، التي توحي إلى المعونة الإلهية التي يفيضها الخالق على معبوده ، حينما يجد منه مجاهدة على قهر نفسه الآمرة له بسوء العمل وفحشه ، فيعطيه قوة واستعداداً تعينه على نفسه ، وهذه المجاهدة للنفس أو كيفية الإعانة ، تبدأ باستشعار الحزن وتجلبب الخوف ، وهذه استعارة ألبست المعنى المعقول "الخوف" معنى ملموساً "الجلباب" ؛ أي أنَّ النفس التي يكون العقل هو الحاكم فيها تجعل من الخوف لباساً ترتديه ، وأنَّ (الواو) الواصلة أفادت المغايرة مع الترتيب بين حالتي الحزن والخوف ، وبعد حصول هذين الأمرين وارتكازهما في النفس بحيث يصبحان ملكة ثابتة ، تأتي (الفاء) في (**فَزَهَرَ مُصبَاحَ الهُدَى فِي قَلبِهِ**) ، التي أفادت التعقيب مع الترتيب ؛ أي بعد أن استشعر التقصير في جنب الله وحزن له وتألم ، نشأ الخوف والتورع عن المحرمات ، فكان ذلك سبباً في نقاء القلب وصفائه ، ومن ثم إشراق نور الهدى في قلبه الذي هو أحد مرتكزات النفس ، وعبَّر عن نور الهداية بالمصباح الذي ينير الدرب لمن أراد سلوك الطريق مستقيماً بلا اعوجاج ، وما صار هذا

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 404.

الأمر إلا بمحاسبة النفس ونهيها عن غيِّها وسعيها وراء الملذات ، وقد عبَّر عن ذلك الإمام **(عليه السلام)** في موضع آخر من النهج ، بقوله :**((زِنُوا أَنفُسَكُم مِن قَبلِ أَن تُوزَنُوا ، وَحَاسِبُوهَا مِن قَبلِ أَن تُحَاسَبُوا))** [1] ، وحالة النفس وما تكون عليه من لومها ومحاسبتها وسحبها إلى طريق الحق ، وترويضها لفعل الخير هي المعبَّر عنها بالنفس اللوامة التي أشار الكتاب العزيز إليها ، قال تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ● وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾[القيامة 1-2] ، وهذا التغيير نحو الكمال الناشئ من لوم النفس الذي يعد نقطة الانطلاق التي عن طريقها تحصل الإفاضة الإلهية ، إنَّما يحصل بمشيئة الله واستعداد العبد في التقرب إلى معبوده ؛ لقوله تعالى :﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾[الرعد:11] ، على حين القوة (الشهوانية أو الغضبية) يمكن أن نستشعرها ضمناً في اسم التفضيل (**أحب**) الذي يقتضي المفاضلة بين شيئين أحدهما أفضل من الآخر ، فبطبيعة الحال النفس التي تحركها القوة العاقلة هي أفضل من النفس التي تميل إلى إشباع شهواتها وملكاتها الفاسدة ، التي أغشت بصره عن الاعتبار بالحقائق وأصمَّت سمعه عن صحيح القول ، وقد عبَّر الإمام **(عليه السلام)** عن هذا المعنى حينما تحدث عن العاصي من الخلق على الرغم من النعم التي وهبه إياها فيقول :**((فَهُوَ يَنظُرُ بِعَينٍ غَيرِ صَحِيحَةٍ ، وَيَسمَعُ بِأُذُنٍ غَيرِ سَمِيعَةٍ ، قَد خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقلَهُ ، وَأَمَاتَتِ الدُّنيَا قَلبَهُ ، وَوَلَهَت عَلَيهَا نَفسُهُ،...، لَا يَنزَجِرُ مِن اللهِ بِزَاجِرٍ ، وَلَا يَتَعِظُ مِنهُ بِوَاعِظٍ))**[2].

ما يلفت انتباه قارئ النص أمور:

---

[1]) المصدر نفسه : 3 / 425.

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 4 / 131 .

-ضمائر الغياب المستترة في الأفعال المضارعة(**ينظر** ، **يسمع** ، **ينزجر** ، **يتعظ**) والمتصلة ، كالهاء في (**عقله** ، **قلبه** ، **عليها** ، **نفسه**) والمنفصلة (**فهو**) فيها دلالة واضحة على أنَّ الأوصاف التي جاءت على هيأة البنية التركيبية الفعلية شاملة لكل العصاة ممن هيمنت على أنفسهم القوة الشهوانية والغضبية على مرِّ الأزمان ، فضلاً عن أنَّها إحالات أسهمت في تماسك البناء التركيبي للنص المتلاحم مع بنائية النفس المركبة من أوصاف هذه القوة المسلطة عليها .

-البناء التركيبي الحركي الذي أسهم في تماسك النص وترابطه بشكل فعَّال ؛ إذ إنَّه ركَّب مجموعة من الجمل الفعلية المتجاورة ، التي يربطها زمن واحد دال على الاستمرار والتجدد والمتمثل بـ(**يَنظُرُ بِعَينٍ غَيرِ صَحِيحَةٍ ، وَيَسمَعُ بِأُذُنٍ غَيرِ سَمِيعَةٍ ، لَا يَنزَجِرُ مِن اللهِ بِزَاجِرٍ ، وَلَا يَتَعِظُ مِنهُ بِوَاعِظٍ**) إلى جانبه الربط الموضوعي ، وهو النفس الأمارة بالسوء العاصية اللاهية التي لا ينفع معها وعظ وإرشاد ولا توبيخ وتحذير .

-تقديم المسبَّب على السبب تارة وبالعكس تارة أخرى ؛ إذ جعل السبب حلقة وصل بين نتيجتين ، فالبناء التركيبي المتمثل بـ(**قد خرقت الشهوات عقله ، وأماتت الدنيا قلبه، وولهت عليها نفسه**) سبباً وسطياً بين النتيجة الأولى المتقدمة (**فهو ينظر بعين غير صحيحة ، ويسمع بأذن غير سميعة**) وبين النتيجة الثانية المتأخرة (**لا ينزجر من الله بزاجر ، ولا يتعظ منه بواعظ**) ، ولعل مرجع هذا البناء التركيبي ، إلى أنَّه من باب تقديم الأهم على المهم ؛ أي أنه قدَّم الأدوات الإجرائية المساهمة في تبصر الحقائق وإدراكها ، لكنَّ هذه الأدوات غير عاملة بالشكل الذي يقودها إلى الصواب ؛ لأنَّ الشهوة هي المهيمنة على هذه النفس فتُبلي العقل وتجعله كالثوب البالي الذي لا ينتفع به ، فيكون منقاداً لشهوته محباً للدنيا وملذاتها

شغوفاً بحبها وما يحصل منها ، فتصبح نفسه كالإنسان الآلي جسداً حيّاً مسيَّراً بلا قلب ، أو قلب ميت مختوم عليه ، ومحرّكه القوة الشهوانية ، فمن كانت حالته هذه فلا يفيده الزجر ولا الاتعاظ والاعتبار.

يُلحظ من هذا المستوى البنائي التركيبي للنفس ابتداءً من الأجزاء المتمثلة بالمفردة والجملة وانتهاءً بالنص ، الذي يشكّل الكل أو البناء الداخلي المنتظم من هذه الأجزاء ، أو المتتاليات الجملية المتعاقبة خطِّيّاً ، وما تشتمل عليه من العلاقات الحاصلة بينها ، والدور الفعَّال لهذا البناء الداخلي في تحقيق الانسجام والتتابع الخطِّي [١] ، الذي يتناغم مع الكون ، الذي تعد النفس وما تحمله من قوى ، جزءاً من هذا الكون ، يُلحظ خطِّيَّة البناء التركيبي للنفس بدءاً من الفطرة التي شكلت الأرضية لهذه النفس ، ثم تلتها القوى تباعاً على هيأة بناء تجسَّد في سلوكيات النفس الظاهرة عن طريق أفعالها ، التي عن طريقها يمكن الحكم على النفس عن طريق القوة المهيمنة عليها.

٢ البناء التركيبي التشخيصي .

إنَّ البناء هيأة والتركيب مجموعة عناصر تكوِّن هذه الهيأة ، والتشخيص يحدد أو يميز هذه الهيأة من غيرها من الهيئات المركبة ، لأنَّ التشخيص ((هو المعنى يصير به الشيء ممتازاً عن غيره بحيث يميز لا يشاركه شيء آخر)) [٢] ، أو هو((نسبة صفات البشر إلى

---

[1]) ظ : البنية التركيبية لمكملات البنية الاسنادية بين القاعدة والمتبقي : 15 ، وظ : البنية التركيبية في الخطاب الشعري : 145 ، وظ : أدوات الاتساق وآليات الانسجام في القصيدة :29 .

[٢]) التعريفات : 52 ، وظ : المعجم الفلسفي : 1 / 276 .

أفكار مجردة ، أو أشياء لا حياة فيها))[1] ؛ أي جامدة وهذا ما نجده جلياً في الاستعارات ؛ إذ يمكن عن طريق التشخيص إلباس المعنى المجرد ثوب المحسوس وإضفاء الحوار والحركة عليه ، فالتشخيص ((ليس عملية بحث عن التفرد والانعزال ، بل هو خطوة في استحضار العناصر الكلية المميزة))[2]بخاصية معينة ، سواء أكان هذا التمييز لفرد أم لفئة من الأفراد ، أم شيئاً جامداً ، بُعثت الحياة فيه وكأنَّه كائن حي ، ومن هنا يتضح أنَّ مصطلح البناء التركيبي التشخيصي ، هو ذلك الكلي المركب من توافق المكونات المؤلفة للجمل والعبارات المتتابعة الممثلة للواقع والحاكية عنه في الوقت نفسه ؛ لكونها خاضعة لحتمية الخطِّيَّة في تعاقبها وتراتبها ، ومن ثم سعي هذه المكونات المتوافقة في إظهار البناء المركب منها وتحديده وبيان هدفه وعلامته التي تميزه من غيره من البناءات المركبة من مكونات قد تكون متشابهة فيما بينها ، لكنَّها تختلف في معناها وفقاً للسياق الذي وضعت فيه ، وقد حفل نهج البلاغة بهذه الصور التشخيصية في بنياتها التركيبية منها قوله **(عليه السلام)** : ((**أَنَا يَعسُوبُ المُؤمِنِينَ ، وَالمَالُ يَعسُوبُ الفُجَّارِ**))[3].

في النص إلماح شديد إلى حدَّي التشخيص:

الأول : بمعنى التحديد والتمييز وعدم اشتراك غيره به أو معه ، وهذا يتجلى في التركيب الأول (**أَنَا يَعسُوبُ المُؤمِنِينَ**) بدلالة ضمير المتكلم(**أنا**) الدال على علوِّ المقام وشرفية المرتبة وخصوصيتها للإمام(**عليه السلام**) وكلمة(**يعسوب**) التي انفرد بها دون غيره من

---

[1]) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : 102.

[2]) إنتاج الدلالة الأدبية : 219 .

[3]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 10 / 122 .

الصحابة بلسان النبي الأعظم محمد **(صلى الله عليه وآله وسلم)** ؛ إذ وصفه بكونه يعسوباً للمؤمنين ، ويفهم من ذلك أنَّ الخلافة والولاية له(عليه السلام) بالنص الإلهي بعد الرسول(**صلى الله عليه وآله وسلم**) لا بالاختيار، ولن تكون لغيره ، ويؤكد هذا المعنى ما قاله النبي(**صلى الله عليه وآله وسلم**) في حجة الوداع ((يا أيُّها الناس ، من ولِيُّكُم وأولى بكم من أنفسكم؟ قالوا : الله ورسوله ، فقال : من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه- ثلاث مرات-)) [1] ؛ لأنَّه الملاذ الآمن للمؤمنين من بعده. أولئك المؤمنون ممن هيمنت على أنفسهم القوة العاقلة وانقادوا إليها ، فسلكوا جادة الحق والصواب فكان لا يصدر منهم إلا طيباً فعلاً كان أم قولاً ، ولا يأخذون إلا الطيب تماما كالنحل لا تأكل إلا طيباً ولا يخرج منها إلا طيباً ، وليس ملاذاً للمؤمنين فحسب بل للعاصين والمعاندين ممن رجعوا عن غيِّهم وعنادهم .

الثاني : وهو إلباس المعنى المجرد ثوب المحسوس وإضفاء الحركة والحياة عليه ؛ أي إسباغ صفة تشخيصية – وهي الإمارة التي هي صفة للإنسان – على المال الذي هو جامد لا حياة فيه ، والمتمثل بالبناء التركيبي الموصول بالنص بحرف الواصلة (**الواو**) التي أفادت المغايرة (**وَالمَالُ يَعسُوبُ الفُجَّارِ**) ، الذي يفهم أنَّ المال هو الملاذ الآمن للزائغين عن طريق الحق والمنقادين للشيطان ، ممن قويت عندهم القوة الشهوانية أو الغضبية ، التي أغشت أبصارهم وختمت على قلوبهم ، فعميت عن معرفة الحق وسلوك طريقه ، وهذا ما يوحي للقارئ أنَّ هناك تعالقاً بين البناء التشخيصي والبناء التركيبي النفسي .

---

[1]) أصول الكافي :1 / 328.

إنَّ ظاهرة تكرار المفردة (**يعسوب**) في كلا التركيبين يحيلنا إلى ظاهرة أخرى وهي ظاهرة التقابل أو المقارنة بينهما ، فضمير المتكلم (**أنا**) دال على الاختصاص والذات العاقلة الناطقة المختارة ، و(**المال**)اسم جنس جامد ، و(**ال**) التي فيه قد تكون عهدية ترد لنوع محدد من المال ؛ أي المال المعهود إليهم من الأعيان النقدية ، أو قد تكون للاستغراق ؛ أي تستغرق جميع ما يقع تحت جنس المال أعياناً نقدية كان أم أعياناً نوعية بما فيها الرقيق ؛ إذ سيُشار إلى هذا النوع من المال فيما بعد ، و(**يعسوب**) المفردة المكررة أخذت موقعا ثابتا (مسند) في النمط التركيبي المكون من الجمل الصغرى ، تلك الجمل التي هي في الفكر السيبويهي تعد مفهوماً بنائياً ؛ لأنَّ العلاقة بين المسند والمسند إليه علاقة بنائية ، فالتركيب الإسنادي تركيب بنائي ؛ لأنَّه يعتمد على اللبنة الأولى وهي المسند ، ثم يبني المتكلم أو منشئ النص عليها لبنة أخرى هي المسند إليه ، وهو العنصر المتغير في كلتا الجملتين ، ومن هنا يأتي المفهوم الخطِّي التتابعي للبناء التركيبي المشخَّص للجملة أو النص [1] ، بوصفه أنَّ الكلمات هي لبنات يقوم المتكلم بتركيبها ورصفها على وفق المعاني الراسخة في الذهن ، فتارة تكون الإمارة للذات العاقلة الحية وهي من أوصافها وما يمكن أن تختص به ، وتارة تكون الإمارة للذات الجامدة التي لا حياة فيها ، وإنَّما أسبغ الوصف البشري عليها فصارت حية ، وهذا هو التشخيص الذي أشير إليه فيما سبق ، الذي يمكن أن نسميه تشخيصاً عقائدياً ، لأنَّ من يتبع الإمام (**عليه السلام**) هم ممن رسخ إيمانهم وثبتت عقيدتهم فكانوا من المؤمنين ، والذي سار على عكس الاتجاه كان من الفجار؛ لأنَّ المال أمير الشهوة والرذيلة غالباً ، فتتشكل في كلا البناءين التشخيصيين صورة من ((عناصر متقابلة...تثير بهذا التقابل جمالية ناتجة عن

---

[1]) ظ : مفهوم الجملة عند سيبويه : 102 .

تفاعل كل جهة في مواجهة الأخرى)) [1] ، ما ينبهنا على وجود خطِّيَّتين متوازيتين لكل بناء تركيبي مشخَّص ، ولكن كلا الخطِّيَّتين تسيران باتجاه واحد عبر الزمن بشكل تعاقبي تراتبي لكل منهما ، تزامني لكليهما ، وهذا ما نشهده على أرض الواقع الذي نطقت به اللغة ، من الصراع الدائم بين المخلوقات وصولاً إلى الملذات والشهوات ، فكان المال وسيلة من وسائل الشيطان الذي يصطاد به أصحاب النفوس الضعيفة ، أيَّاً كان المال نوعاً أو نقداً ، وقد أشار الإمام (**عليه السلام**) إلى هذين النوعين من المال حينما ذكر حُكم الرجلين اللذين سرقا من مال الله فقال :((**أَمَّا هَذَا فَهُوَ مِن مَالِ اللهِ فَلَا حَدَّ عَلَيهِ، مَالُ اللهِ أَكَلَ بَعضُهُ بَعضَاً ، وَأَمَّا الآخَر فَعَلَيهِ الحَدَّ الشَّدِيدَ ، فَقَطَعَ يَدَهُ**))[2] .

في النص مؤشرات ساعدت على نسج بنائه من خلال ربط تراكيبه وتماسكها ، ما أدى إلى أن يكون إصدار الحكم بشكل خطِّي تعاقبي ، تبعاً لقرب السارق من العين المسروقة ، فكان البناء التركيبي المكون من اسم الإشارة الذي يشار به إلى القريب (هذا) وضمائر الغياب المتصلة والمنفصلة (هو) والهاء في (**عليه** ، **بعضه**) والضمير المستتر في(**أكل**) ، وكذا حرف الجر(**من**) الدال على التبعيض ، كلها تشير إلى الانتماء ؛ إذ أنَّ العبد غنيمة من غنائم الحرب كبقية الغنائم ، فهو جزء أو بعض من كل ، الذي هو مال الله تعالى ، فإذا أخذ الجزء من الكل فكأنَّما أخذ بعضه بعضاً ، فلا يقام عليه الحد ، وهو كما شخَّصه الإمام(**عليه السلام**) في البناء التركيبي التشخيصي(**مَالُ اللهِ أَكَلَ بَعضَهُ بَعضَاً**) ؛ إذ نسب صفة من صفات البشر، وهي الأكل إلى شيء جامد لا حياة فيه باستثناء العبد الذي هو بعض مال الله تعالى،

---

[1]) النسق القرآني ، محمد ديب الجاجي : 608 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 10 / 89 .

وهذا التركيب أيضا يعد جواباً لسؤال محذوف يفهم من الحكم السابق وهو عدم إقامة الحد عليه ، فيأتي السؤال بـ(لِمَ) ، ثم عبَّر عن الذي سرق من مال الله من سائر الناس وعامتهم بكلمة (الآخر) ، ولم يعبر عنه باسم الإشارة وذلك ليفهم أنَّ :

1- السارق من جنس العبد نفسه بوصفه بشراً، ولهذا يقام عليه من الأحكام كما يقام على العبد .

2- السارق بعيد عن العين المسروقة ، وبهذا يتميز عن العبد القريب من المال ، الذي هو جزء من مال الله تعالى شأنه.

3- هناك حكماً مغايراً للحكم السابق من إقامة الحد وهو قطع اليد .

هذه المغايرة في الحكم بين الطرفين ، التي عبَّر عنها بتركيبين مغايرين تشير إلى البناء الخطِّي المبني على التوازي والسائر باتجاه واحد عبر الزمان . والذي يلفت الانتباه إلى هذه الخطِّيَّة الموازية أيضا ، فضلاً عن التفصيل الذي عبَّرت عنه ، الأداة (أمَّا) و(الفاء) في **(فهو ، فلا حدَّ، فعليه ، فقطع)** التي أفادت الترتيب في الحكم بشكل خطِّي تعاقبي .

ولما كان حب المال قد أعمى قلوب الناس غالباً وعقولهم عن إتباع طريق الحق ؛ لهيمنة القوة الشهوانية على أنفسهم وطغيانها بحيث أوقف عمل تلك القوى أو أضعفها ، وبّخَهم الإمام **(عليه السلام)** بأنَّهم أبناء الدنيا ؛ لكونهم ميّالين إليها بالطبع ، فقال :**((النَّاسُ أَبنَاءُ الدُّنيَا ، وَلَا يُلامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ))**[1] ، ففي هذا البناء التركيبي ، التشخيص واضح ؛ إذ نسب صفة من صفات البشر وهي الأمومة إلى الدنيا ، التي هي من المفهومات المجردة بوصفها المأوى الذي يعيشون في كنفه ، أو الحضن الذي يضمهم وهذه حقيقة ثابتة أكدها

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 10 / 115 .

التركيب الاسمي الدال على التحقق والثبوت(**النَّاسُ أَبنَاءُ الدُّنيَا**) ، فحبهم لها طبعاً لا تصنّعاً، كطبيعة حب الولد لأمه ، وهذه الطبيعة متغيرة تبعاً لقوى النفس وهيمنتها ، التي أشار إليها التركيب الفعلي المنفي (**وَلَا يُلامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ**) الدال على التجدد والحدوث ، ومن هنا يتغير مفهوم الحب عند الناس الذين هم أبناء الدنيا ، فالبناء التركيبي المكون من الألفاظ الدالة على العموم كـ(**الناس ، أبناء ، الرجل**) يشير إلى أنَّ هناك صنفين من الناس في هذه الدنيا :

الأول : من اتخذ الدنيا غايته وملاذه ، فصيَّرته وسيلة تميل به حيثما مالت ، فكان ابناً باراً محباً لها ، وإن مالت به إلى الضلال والعمى ؛ لأنَّه يعمل فيها ساعياً لرضاها ، غير مدرك نهايته وما يؤول إليه من مصير، وقد ذكر القرآن هؤلاء الذين آثروا الدنيا على الآخرة ، قال تعالى :﴿ **وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ** ﴾**[الشورى : 20]** ، وقوله تعالى:﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**﴾ **[الإنسان : 27].**

الثاني : من اتخذ الدنيا وسيلة أو مطيَّة يركبها لتوصله إلى غايته ، التي هي الدار الآخرة ، فيتزود فيها ملبياً نداء الله **(جلَّ شأنه)** بترك نواهيه والامتثال لأوامره ، فهو بهذا يعد ابناً مصاحباً لها بالمعروف عاش معها وفيها غير ممتثلٍ لملذاتها وشهواتها ، وإنَّما جعل منها مسلكاً يتزود فيه طلباً للدار الحق وهي الدار الآخرة ، وقد ذكر القرآن هذا الصنف من الأبناء، قال تعالى :﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**﴾**[الشورى : 20].**

يبدو أنَّ المتكلم أراد بلفظ العموم من باب إطلاق العام وإرادة الخاص ، فأطلق لفظ **(الناس)** وأراد به القسم الأكبر منهم ممن اتبعوا الشيطان واتخذوه أميراً ، فزيّن لهم الدنيا فغاصوا في شهواتها ومفاسدها ، فأحبوها كحب الرجل لأمه ، وكذا إطلاق لفظ(**الرجل**) ليشمل

جميع جنس الرجال ؛ لأنَّ (**ال)** لاستغراق جميع جنس الرجال ، ويبدو أنَّه خصَّ الرجل دون المرأة لأنَّ :

– الرجل أكثر ميلاً إلى العاطفة والحنان بعكس المرأة التي هي منبع الحنان بحسب خلقتها التكوينية ، ولذا نسب صفة من صفاتها التي هي الأمومة إلى الدنيا ، وجعل الرجل ابناً لها .

– الرجل هو القيّم على الحياة ،أي هو المتولي للعمل الذي يكسب من ورائه قوته هو وعياله ، ولم يذكر المرأة ليس لأنها منبع الحنان ، بل بوصفها تقع تحت مسؤولية الرجل وهذا هو السبب الذي جعله لم يذكرها .

– المرأة تدخل في معنى الرجل على التغليب .

يلحظ التجانس والانسجام والاتساق في الأبنية التركيبية المكونة للنصوص ، الذي يساعد القارئ على تحليل النص ؛ لكون الاتساق يشكل البنية المادية للنص ، المتمثلة بالكلمات والجمل التي ((تترابط بأشكال شتى لتشكل وحدات دلالية قادرة على الإيفاء بالمعنى في الوقت الذي تكون فيه قد تناسبت من حيث مواقعها اللغوية نحويا)) [1] ، التي في ضوئها يقوم مستقبِل النص بتفسير البنيات التركيبية ، وتأويلها معتمداً على آليات الانسجام والتجانس[2] بما يضمن التتابع الخطِّي ويحققه ، والتدرج في الحقائق عن طريق اللغة الناقلة لها وصولاً إلى النهاية المحتومة ، التي هي هدف كل من موجِّه الخطاب والموجَّه إليه الخطاب .

3-البناء التركيبي المنطقي .

---

[1]) محنة المثقف ، د . عبد الحسين العمري : 146-147 .

[2]) ظ: أدوات الاتساق وآليات الانسجام في القصيدة : 21 .

وهو التركيب المبني على المقدمات والنتائج أو الأسباب والمسببات تبعاً لـ"النظرية السببية" ((التي تقضي بأن يكون لكل مسبب سبب ، وأن يكون السبب متناسباً مع سببه قوة وضعفاً ، فلا ينتج مسبب قوي عن سبب ضعيف ... فهي من مظاهر النضج الفكري)) [1] ، والبناء المنطقي يتكفل ببيان((كيفية إنشاء المعرفة الإنسانية انطلاقا من أساس يقيني)) [2] ، التي من ضمنها المعرفة الإلهية التي أشار إليها الإمام **(عليه السلام)** بقوله :((**أَوَّلُ الدِّينِ مَعرِفَتُهُ ، وَكَمَالُ مَعرِفَتِهِ التَّصدِيقُ بِهِ ، وَكَمَالُ التَّصدِيقِ بِهِ تَوحِيدُهُ ، وَكَمَالُ تَوحِيدِهِ الإخلَاصُ لَهُ ، وَكَمَالُ الإخلَاصِ لَهُ نَفيُ الصِّفَاتِ عَنهُ**)) [3] ، فقد أشار إلى المعرفة النظرية وهي المعرفة التي تدرك بالعقل عن طريق الحس ؛ أي العلم بأنَّ لهذا الكون صانعاً ، وإدراك وجود الصانع يكون بالعقل عن طريق مشاهدة آثاره ، التي هي الكون وما فيه من بدائع الصنعة ، وكمال هذه المعرفة أن نصدِّق بكون الصانع واجب الوجود لذاته ، ولا يكمل تصديقه إلا حينما ندرك بأنَّه واحد لا يتجزأ ولا يشترك معه غيره ؛ لأنَّه يستلزم الفساد ، وقد أشار الكتاب العزيز إلى هذا المعنى ، قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾**[الأنبياء : 22]** ، ويلزم من التصديق الاعتقاد بوحدانيته ، وهذه الأخيرة لا تكمل إلا بالإخلاص له ، الذي يتمثل بتنزيهه تعالى شأنه عن الوصف والتجسيم والمحل والزمان. ما نلحظه على النص ، الآتي :

---

[1])الاشارات والتنبيهات : 1/ 79.

[2]) البناء المنطقي للعالم : 39.

[3]) شرح ابن أبي الحديد : 1 / 45 .

1-البناء التركيبي للنص عبارة عن مقدمات ونتائج جاءت على شكل قياس مركب من قضايا يتم فيها التتابع الخطِّي المنطقي عن طريق تحول المقدمة أو السبب إلى نتيجة في كل قضية ، ما يعني احتواءه على عنصر التكرار في تسلسله الخطِّي الذي ساعد على تحقق الاستمرارية في النص بحسب (قاعدة التكرار) [1] ، وهذا ما يجعله مقبولاً ومنسجماً ، فضلاً عن تقديم النتيجة على السبب من باب تقديم الكل على الجزء ، فالعناصر الإشارية المتمثلة بـ(**معرفته ، التصديق به ، توحيده ، الإخلاص له ، نفي الصفات عنه**) هي جزء من كمالاتها وبالنتيجة فهي جزء من أولية الدين أي الطاعة ، والخطاطة اليسيرة تقودنا إلى توضيح ما ذُكِر:

ق1: أول الدين ↓ نتيجة — معرفته ↓ سبب

ق2: كمال معرفته ↓ نتيجة — التصديق به ↓ سبب

ق3: كمال التصديق به ↓ نتيجة — توحيده ↓ سبب

ق4: وكمال توحيده ↓ نتيجة — الإخلاص له ↓ سبب

[1]) قاعدة التكرار : وهي التي تساعد على إظهار طابع الاستمرارية مع التدرج المتجانس المستمر وغياب القطيعة، من خلال التذكير بأن مكون ما يوجد في الجملة المجاورة . ظ : الاتساق والانسجام في القرآن الكريم :41.

ق5: وكمال نفي

الإخلاص له الصفات عنه

↓ ↓

نتيجة سبب

2-لو طويت الأسباب والنتائج في هذا القياس ، وأبقينا نتيجة ق 1 وسبب ق 5 لتشكلت منها قضية أخرى(أول الدين نفي الصفات عنه) وهو هدف كل قضية ، وكأن كل قضية تشكل لبنة من لبنات البناء التركيبي للنص التي أسهمت في تماسكه وتلاحم أجزائه .

3- في النص أمارات على التتابع الخطِّي تبدو واضحة منها:

-كلمة(**أول**) التي يفهم منها بأنَّ هناك مراتباً تتوالى وتتعاقب وصولاً إلى(الكمال).

-كلمة(**كمال**) التي هي أرقى المراتب ، وهذا يقتضي وجود مراتب دونها ، فضلاً عن تكرارها في كل قضايا القياس ولا يخفى ما لهذا التكرار من دور ... في استمرارية النص ما يساعد المتلقي على الربط بين القضايا في المقدمات والنتائج[1].

-ضمير الغيبة الهاء في(**معرفته ، به ، توحيده ، له ، عنه**) تشير إلى الذات الإلهية؛ التي كمال معرفتها هي أول الدين ونفي الصفات عنه .

-(**الواو**) الواصلة التي أفادت الجمع والمغايرة ، مع التدرج الخطِّي لمراتب المعرفة النظرية.

أما في ما يتعلق بالمعرفة العملية التي هي تجسيد للمعرفة النظرية فقد ذكرها الإمام (**عليه السلام**) حينما نسب الإسلام الذي هو خاتم الأديان نسبة لم ينسبه أحد قبله فقال :

---

[1]) ظ : الإحالة وأثرها في تماسك النص القرآني : 643.

((الإسلَامُ هُوَ التَّسلِيمُ ، وَالتَّسلِيمُ هُوَ اليَقِينُ ، وَاليَقِينُ هُوَ التَّصدِيقُ ، وَالتَّصدِيقُ هُوَ الإقرَارُ، وَالإقرَارُ هُوَ الأَدَاءُ ، وَالأَدَاءُ هُوَ العَمَلُ))[1] .

البناء التركيبي للنص بناء فكري منطقي محض ، يشكل قياساً مركباً مفصولاً مطوي النتائج[2] كما ذكره البحراني في شرحه [3] ، فهو عبارة عن قضايا خبرية صادقة ؛ لكونها صادرة عن الإمام المعصوم(**عليه السلام**) ، وهي مكملة لقضايا المعرفة النظرية–تطبيقاً– التي أخبرنا فيها عن أولية الدين ، وكمالات معرفته ، والتي انتهت بنفي الصفات عنه وتنزيهه ، وقد أفادت القضايا التي عبَّرت عن المعرفة العملية الآتي :

1–التحويل المكاني عن طريق تحويل مَن كان محمولاً في قضية بجعله موضوعاً في قضية تالية لها .

2–التأكيد والقصر عن طريق ضمير الفصل (**هو**) ؛ أي تأكيد المتكلم بصدق هذه القضايا ، وقصر هذه الأوصاف على موضوعها (**الإسلام**) .

3–تكرار اللبنات التركيبية(**التسليم** ، **اليقين** ، **التصديق** ، **الإقرار** ، **الأداء**) في كل قضية ، وتكرار(الواو) العاطفة ، اللذين أفادا استمرارية النص وتماسكه وانسجامه بعودة آخر الكلام إلى أوله وبالعكس ؛ أي بجعل (**الإسلام هو العمل**) ، وهو بهذا الشكل يعبِّر عن

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 9 /359 .

[3]) القياس المركب المفصول : هو ما تألَّف من قياسين فأكثر لتحصيل مطلوب واحد ، ومن ثم فصلت عنه النتائج وطويت ، مثلا كما هو الحال في النص المذكور في المتن لو قلنا:
مق1:الإسلام هو التسليم
مق2: والتسليم هو اليقين
النتيجة: الإسلام هو اليقين ، وهي ما لم تذكر في كلام الإمام(**عليه السلام**) ، المعبر عنها بالنتيجة المطوية والمفصولة عن مقدماتها ، وهكذا في بقية القياس ، ظ : المنطق : 194 .

[2]) ظ : شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 5 / 287 .

متتالية أحادية الجملة تخضع للمفهوم الخطِّي ، الذي يتناغم مع حركة الذهن البشري المستنير؛ صعوداً إلى فضاءات مفتوحة ، وفي الوقت نفسه ينفتح تطبيقياً على الواقع ؛ لأنَّ الفكرة–أية فكرة– ما لم يكن لها ظهور تطبيقي تبقى تسبح في فضاءاتها المفتوحة دونما قاعدة ارتكاز تترجم نفسها فيها عن طريق الواقع .

المبحث الثاني

خطِّيـَّة البناء الدلالي

ينطلق البحث من أنَّ البناء الدلالي يأتي نتيجة بنائية للنص نفسه التي تقوم على مجموعة العلاقات الرابطة لمكوناته الجملية ؛ إذ إنَّها تتجاوز المنظورات الفردية التي تأنس بالجزئيات وصولاً إلى الدلالات الراكزة خلف النسيج النصي والكلمة بين تجاويفه . على أنَّ هذه العلاقات الرابطة لمكونات النص تشير إلى اتجاهات الدلالة التي يبتغيها ؛ لأنَّ الدلالة هي ((كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى ... محصورة في عبارة النص وإشارة النص ودلالة النص))[1] ومدى فهمه وإدراكه له، ما يعني أنَّ إنتاج النص لدلالاته يقوم على طبيعة القراءة الواعية التي تستقي فعلها القرائي المنتج من فهمها لتلك العلاقات التي ينتظم النص خلالها ، وبناء على ذلك فانَّ الربط بين البنية الشكلية للنص ودلالاته يعد جزءاً "مهماً" من الأدوات الإجرائية لمعرفة تلك الدلالات التي يقوم النص بإنتاجها . ولا شك في أنَّ معرفة هذه الدلالات يتم عن طريق رصد العلاقات القائمة بين البنيات التركيبية ، والأكثر شيوعاً في مثل هذه النصوص بما يضمن استمرارية البناء النصي ، وارتباطه برباط دلالي متماسك ، وهذا يعتمد على مدى فهم القارئ للنص ووعيه وثقافته المستقاة من العالم الخارجي ، وكثير ممن رصدوا هذه العلاقات في مختلف الفنون ولا سيما المفسرون والبلاغيون والأدباء والشعراء وغيرهم . ورصد البحث بحسب ما

---

[1]) التعريفات ، الشريف الجرجاني : 91 .

يتطلبه هنا نوعين من العلاقات الدلالية في نصوص نهج البلاغة ، الإجمال والتفصيل ، والتضاد .

١ الإجمال والتفصيل :

وهي من العلاقات الدلالية التي أشبه ما تكون بالقياس والاستقراء المنطقيين ، فالمتكلم يعطي القاعدة العامة ، أو الخطوط العريضة عن الموضوع ، التي تتسم بالغموض نوعاً ما؛ لأنَّ الإجمال((هو إيراد الكلام على وجه يحتمل أموراً متعددة)) [١] ، ثم تحتاج إلى بيان وتوضيح عن طريق القيام بتفصيل جزئيات القاعدة والتمييز بين جزء وآخر؛ ذلك أنَّ ((التفصيل : تعيين بعض المحتملات أو كلها)) [٢] ، أو((هو التفريق والتمييز بين الشيء والشيء... بإبراز ما يختص بأحدهما))[٣] ، أو بالعكس يستعرض الجزئيات أو الاحتمالات ثم ينتهي بعبارة مجملة تضم هذه الأجزاء . ويتجلى هذا المظهر الدلالي في ما قاله الإمام **(عليه السلام)** حينما قسَّم الناس إلى أقسام كل بحسب سعيه في العبادة والتقرب إلى الله تعالى:((**شُغِلَ مَنِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ ، سَاعٍ سَرِيعٍ نَجَا ، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا ، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى**))[٤].

في النص إشارة إلى الانتقال النوعي والحتمي (الموت) ، الذي عبَّر عنه مجملا بـ(**شُغِلَ مَنِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ أَمَامَهُ**) ، وهذا الإجمال في العبارة احتاج إلى البيان والتفصيل ؛ ذلك أنَّ الصورة الذهنية للجنَّة والنَّار هي ماثلة أمام الناس جميعهم ، ولكن هناك من يجعلهما شغله

---

[١]) التعريفات : 11 .

[٢]) المصدر نفسه : 11.

[٣]) المعجم الفلسفي : 1 / 315.

[٤]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 1 / 173 .

الشاغل ، فيعمل ساعياً ويطلب راجياً ، وهناك من لا يرعوي لهما فيغتر هالكاً ، وعبَّر عن هذا التفصيل بتقسيمه للناس بعد الأنبياء **(عليهم السلام)** على ثلاثة أقسام (الساعي والطالب لله تعالى والتارك له) ، فالطالب يمثل حلقة وصل بين الساعي والتارك ؛ وهذا يعني أنَّ الطالب إمّا أن يكون ساعياً أو لا ، والأول إمَّا أن يكون مستثمراً الوقت للعبادة ، وعمل الصالحات استثماراً صحيحاً وهو الساعي السريع ، أو ، لا وهو الساعي البطيء ، والثاني إمَّا أن يكون الطالب مقصِّرا بقصد أو ، لا ، فالأول الهاوي في النار، والثاني الراجي لرحمة الله تعالى ، ويمكن توضيح ذلك في هذه الخطاطة اليسيرة :

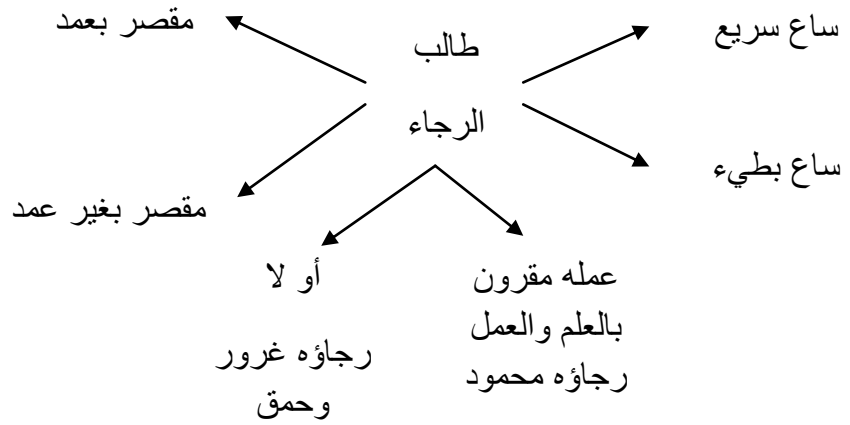

وبهذا يكون الرجاء مقروناً بالعلم والعمل ، فإذا كان العبد عالماً عاملاً يسعى لرضا الله في كل آن كان رجاؤه محموداً ويعد من السبَّاقين للخير ، وإذا كان عالماً عاملاً بما لا يرضي الله ومع ذلك يرجو الله ، فرجاؤه من الحمق والغرور والاستهانة بالله **(جل شأنه)** ، ويبدو من هذا البناء الجملي ، الذي هو أساس البناء الدلالي إيماءة إلى قوى النفس التي أشرنا إليها في البناء النفسي من هذا الفصل ، من أنَّ النفس المهيمنة عليها القوة العاقلة هي النَّفس المطمئنة الناجية الساعية لرضا الله سعياً حثيثاً ، والنفس التي تهيمن عليها قوى الشهوة والغضب ، هي النفس الأمارة بالسوء المقصِّرة في حق خالقها الهاوية في ناره ، والنَّفس التي

تتراوح بين القوتين ، تارة تسعى ، وتقصِّر تارة أخرى ، هي النفس اللوامة الطالبة الراجية رضا الله. وهذا ينم عن الثراء المعرفي الذي تحكمه الغايات ، فضلاً عن الثراء اللغوي بما يحويه من مفردات أو جزئيات ، الذي يضاهي الثراء الكوني بما فيه من قوانين وغايات تحكمه وما يحويه من جزئيات تنتظم على وفق هذه القوانين .

يلحظ من السابق ذكره الآتي :

-ابتداء البناء التركيبي(ساع سريع نجا ، وطالب بطيء رجا) باسم الفاعل الدال على الحدوث والتجدد للسعي وطلب الرجاء ، فضلاً عن مجيئه وصفاً للذات(العبد) الصادر منها الفعل ، ثم وصف الحدث بالصفة المشبهة (سريع ، بطيء) الدالة على ثبات الحدث ، بمعنى ثبات السعي وطلب الرجاء على الرغم من تفاوتهما في استثمار الزمن لذلك .

- البنية الجملية (ومقصِّر في النار هوى) توحي دلالتها إلى النهاية الحتمية وهي الهويِّ في النار ؛ ذلك أنَّ المقصر ، الزمن عنده معدوم فلا يفكر في استثماره حتى يوصف بالسرعة والبطء .

- الواو الواصلة ومجموعة الأصوات المسجوعة التي غلبت على النص تعد وسيلة من وسائل التعبير الفكري المسهمة في نقل معانيه وكشف دلالاته ، فضلا عن الجرس الموسيقي الذي أسهم في انسيابية النص وإظهار خطَّيَّته البنائية عن طريق الأحداث والعناصر المكونة لبناء النص ، التي جاءت مرتبة باعتمادها التتابع الخطِّي الذي يتعلق بتتالي الأحداث على محور الزمن الداخلي[1] .

---

[1]) ظ : نسيج النص : 43 .

– تفصيل المجمل الموكول في بناء الخطاب دلالياً ، بدءاً من النقطة العليا التي هي السعي لرضا الله سبحانه والنجاة من ناره ، ثم الحالة الوسطى التي يطلب فيها رجاء الله تعالى ورحمته ، إلى النقطة السفلى التي هي نهاية من لم يستجب لما أُمِر به ، إنَّما هو بيان الهدف المتحقق الذي خُلِق لأجله وهي العبادة ، التي أشار إليها القرآن ، قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾**[الذاريات : 56]** ، هذه الخطِّيَّة الدلالية العمودية العميقة المعنى ، المستوحاة من خطِّيَّة البنية التركيبية الأفقية ، تشير إلى خطِّيَّة الفكر العلوي ، التي تتناغم مع خطِّيَّة الخلق والنشوء ، إذ إنَّ الكون محكوم بغايات وأهداف متحققة قبل الخلق وبنائه ، قد تكون واحدة من هذه الغايات لبيان قدرة الخالق في صنعه ، وتفعيل العقل البشري لها.

اتصف نهج البلاغة بأنَّه في الذروة من الفن ، حتى أصبح قبلة الكتّاب والبلغاء ، ومن هنا ففيه من موارد الدلالة ما نلحظه في الإجمال والتفصيل بشكل واضح ، حينما سُئِل الإمام(**عليه السلام**) عن الإيمان ، قال : ((**الإِيمَانُ عَلَى أَربَعِ دَعَائِمِ : الصَّبر ، اليَقِين ، العَدل، الجِهَاد . وَالصَّبْر مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ : عَلَى الشَّوقِ ، وَالشَّفَقِ ، وَالزُّهدِ ، وَالتَّرَقُّبِ. وَاليَقِينِ مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ : عَلَى تَبصِرَةِ الفِطنَةِ ، وَتَأَوُلِ الحِكمَةِ ، وَمَوعِظَةِ العِبرَةِ ، وَسُنَّةِ الأَوَّلِينَ . وَالعَدلِ مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ : عَلَى غَائِصِ الفِهمِ ، وَغَورِ العِلمِ ، وَزَهرَةِ الحِكَمِ ، وَرَسَاخَةِ الحُلُمِ . وَالجِهَادِ مِنهَا عَلَى أَربَعِ شُعَبٍ : عَلَى الأَمرِ بِالمَعرُوفِ ، وَالنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ ، وَالصِّدقِ فِي المَوَاطِنِ ، وَشَنَآنِ الفَاسِقِينَ**))[1] .

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد :9 / 267 .

من خلال النظر في البناء التركيبي والعلاقة الجامعة لأطرافه ، أو التي تربط بين متوالياته الجملية بعضها ببعض ربطاً دلالياً فضلاً عن ربطها شكلياً ، يتضح أنَّ الربط الدلالي مرهون بالربط الشكلي في بناء النص ، ما يعني أنَّ البناء الدلالي للنص يقوم على أساس تلك العلاقات الرابطة بين أجزائه ، التي تمد خيوط نسج المعنى في بنيته التحتانية ، عن طريق تجسير تلك المعاني والدلالات بشكل خفي تحت ظلال الألفاظ بما يعطي النص بعداً دلالياً ، ففي قوله ((**الإيمَانُ عَلَى أَربَعِ دَعَائِمِ : الصَّبر ، اليَقِين، العَدل ، الجِهَاد**)) استعمل الإمام(**عليه السلام**) لفظة ((**دعائم**)) التي تفيد معنىً خطِّيَّاً عمودياً تقوم عليه دلالات النص ، بوصف تلك الدعائم نقاط ارتكاز تعطي النص أبعاده المتغلغلة الجذور في أرض الدلالة ، وتمنحه اندفاعاً إلى الأعلى ، وهنا يتجلى مفهوم الخطِّيَّة العمودية ؛ لأنَّ ((بنية الكلمة ترمز إلى كل من المفهوم الذي يتضمن الأشياء بتجريدها من صفاتها العرضية وإلى الأشياء نفسها))[1] ، بمعنى أنَّ البناء الدلالي هنا يستغل مقدورات اللفظة وهي منسجمة في سياق كلامي ، يتخذ من سياق الخطاب سبيلاً لرصد الدلالة وإظهارها بشكل يفصح عن دلالات السياق الجملي التي تتحدد بناءً على تلك العلاقات الرابطة بين مكونات النص ؛ لأنَّ المقام مقام خطاب من سائل للإمام (**عليه السلام**) عن مفهوم (الإيمان) ، وهذا يقودنا إلى ضرورة التنبيه إلى المجمل الذي يشكل مركز الثقل في بناء النص (**الإيمان**) ، الذي تم تفصيله إلى دعائم وركائز يقوم عليها هي(**الصبر ، اليقين ، العدل ، الجهاد**) التي تعد مجملات لتفصيلاتها التي تلتها ، وهذا بحد ذاته يبرز العلاقة الوثيقة –الإجمال والتفصيل–

---

[1])علم الدلالة ، جون لاينز : 14.

بين المقاطع البنائية الدلالية التي تمكننا من معرفة الكيفية التي بُني عليها النص ومدى انسجامه وتلاحم أجزائه . فلو نظرنا ملياً في البنية الدلالية للنص وجدنا الآتي:

-إنَّ النص يقوم بالتفريع الخطِّي أفقياً ؛ لينتج دلالاته التي تتجلى مع تراكم جمل النص، ما يعني أنَّ الخطِّيَّة عمودياً وأفقياً تهيمن على النص ، أفقياً فيما بين مفرداتها المتسقة ، وعمودياً فيما بينها وبين جذور مرتكزاتها ، وهو بهذا يتحرك ضمن أبعادها الدلالية من أجل استجلاء العلامات أو الرموز التي يشير إليها النص في بنائه الدلالي الذي تنتظم فيه الجمل المكونة للنص .

- حينما ينتهي من تحديد دعائم الإيمان ، ينتقل إلى القول **(فَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى الشَّوْقِ، وَالشَّفَقِ، وَالزُّهْدِ، وَالتَّرَقُّبِ ..)** فهو يعين مكونات الصبر بأنَّها **(شعب)**جمع شعبة ، ما يعني أنَّ الخطِّيَّة الأفقية قد أخذ النص مساحته فيها للتعبير عن بنائه الدلالي بغية بيان إمكانية التبادل معه سلوكياً ؛ لأنَّ العلاقة بين اللغة وبين الواقع تقوم على أساس تبادلية الانجاز، الذي يعني أنَّ اللغة موجودة في كل مكان وفي لا مكان في آن واحد[1] ، أي بمعنى آخر أنَّ اللغة هي ليست مفردات أو كلمات يمكن نظمها في سياق محدد لتعطي دلالات محددة فقط ، بل هي نظام كوني حالها في ذلك حال أي نظام آخر في هذا الكون، بوصف كل شيء في الوجود هو عبارة عن نظام أو مجموعة أنظمة أو منظومات لا يمكن أن ينفرط عقدها أو عقد أي منها ، وبناء على ذلك ، فهو يبين ماهية أو ثمرة تلك الشُّعب المكونة للصبر في قوله : **((فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ**

[1]) ظ : سيميولوجيا اللغة ، إميل بنفينيست : 55 .

سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ)) ، هذه الماهية أو الثمرة التي تنطوي على أفق منطقي صارم لا يقبل الجدل ، بل يجب إتباع ذلك للوصول إلى الهدف المنشود.

وعلى ذلك بقية مكونات النص التي يعددها وهي اليقين والعدل والجهاد ؛ إذ إنَّ النص ينتقي اشتراطاته لمكوناته بوصفها تتناغم مع حركة الواقع العملي ولا يمكن أن تفارق حركته التي تنفتح أفقياً في العلاقة مع الآخر ، وعمودياً في بناء الذات ، ما يجعل حركة الذات تسير على وفق النظام الذي يؤطر الكون كله ؛ لأنَّ أي حركة تنفلت عن طريقها الصحيح سيؤثر على وجودها في هذا النظام من دون المساس به ، وهذا يعني إرباكاً لعلاقة الذات مع الخارج المحيط ، ما يجعلها تخرج عن إيقاع النظام الكوني الثابت ، وهو ما أشار إليه في وصف الجهاد بقوله : **((وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى غائِصِ الْفَهْمِ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ ، وَزُهْرَةِ الْحُكْمِ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ))** ثم يعقب ذلك الوصف باشتراطات تثبت دقة المنحى الذي يسير فيه النص ؛ لكي لا ينفلت النظام أو يخرج عن مساره المرسوم ؛ لأنَّ النظام الثابت الذي يتحكم بالأشياء هو تحديد لوظيفتها ، فيقول : **((فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفْرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيداً))**، إذ إنَّ هذا النص ينطق بنظامه الصارم حينما يحدد نهاية بالجملة ((**وعاش في الناس حميداً**)) التي تعد استخلاصاً للفكرة التي بني عليها النص .

2- التضاد :

التضاد التخالف وبهذا جاءت معجمات اللغة العربية وقواميسها ، ولأبي هلال العسكري (توفي بعد 395هـ) رأي في التضاد في قوله : ((هو الجمع بين الشيء وضدّه في

جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين البياض والسواد ...)) [1] ، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور(ت 714هـ) أنَّ التضاد بمعنى المخالفة وضادّ الشيءُ الشيءَ خالفه ليغلبه ، ومنها السواد ضد البياض ، والموت ضد الحياة[2] ، والتضاد هو((أن تجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل)) [3] ، ويؤيد القول في هذا الباب ((والتضاد يكون بين ما يبقى وما لا يبقى)) [4] ، ومن المنطلق التفاعلي الدلالي لبناء النص يمكن الدخول إلى زاوية من زواياه لتكشف عن هذا المظهر الدلالي الذي يعني((التباين والتقابل التام وضد الشيء وخلافه فالسواد ضد البياض . لذلك قيل أن الضدين لا يجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة ، لكن يرتفعان ... شرطه أن يكون من جنس واحد))[5] ، وبمثابة المرتكز أو النواة التي تنشد إليها بقية دلالات النص ومعانيه التي يتشكل منها محيطه ، ما يساعد على تماسك النص وانسجامه ، كما يسهم في بيان الوظائف الجمالية والبرهانية للنص بوصفهما أداة فعالة في جذب المتلقي وإمتاعه وإقناعه [6]، وهناك من عرّف التضاد بأنَّه ((الصفة التي تطلق على الكلمة التي تناقض الأخرى ولا تقبل التدريج))[7] ؛ أي ليس هناك رتب متفاوتة في الشدة والضعف ، أو في الكثرة والقلة التي تستدعي التدريج ، وإنَّما هي اللفظة وضدها تعاقب أحداهما الأخرى ، وفي هذا إشارة إلى نوع من التضاد الخطِّي التعاقبي وهو معنى لا يجتمعان في شيء واحد ، وقد ورد هذا المعنى في

---

[1] كتاب الصناعتين ، أبو هلال العسكري :316 .

[2] لسان العرب : 3 / 263 ، مادة(ضدد).

[4] الفروق في اللغة : 262.

[5] المعجم الفلسفي : 1 / 285.

[6] ظ : القاموس الموسوعي لعلوم اللسان ، د . منذر عياشي : 520.

[7] معجم المصطلحات الألسنية : 63 .

كثير من خطب أمير المؤمنين (**عليه السلام**) ، منها ما ذكر في توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الأضداد ؛ لكونه خالق الأضداد ، قال :

((ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ ، وَالوُضُوحِ بَالبُهمَةِ ، وَالجِمُودِ بِالبَلَلِ ، وَالحَرُورِ بَالصَّرْدِ ، مُؤَلِّفٌ بَينَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُفَارِقٌ بَينَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرِّبٌ بَينَ مُتَبَاعِدَاتِهَا ، مُفَرِّقٌ بَينَ مُتَدَانِيَاتِهَا))[1]

يرتكز التضاد في النص على مكوناته الأساسية التي تذهب في اتجاهات متعددة ، لكونها تتعلق بالتكوين الفيزيائي لتلك الأشياء المتضادة أحياناً ، فالنور هو الضد النوعي للظلمة ؛ لأنَّ دخول الضوء إلى الظلمة يعني نفاذ أشعة الضوء في مكونات الظلمة فتتبدد مادام الضوء موجوداً ، أما تضاد الوضوح بالبهمة فهو ينسحب إلى السلوك الاجتماعي ، الذي هو جزء من الحياة اليومية في ضوء التعايش مع الآخر بشكل واضح وعدم التعامل بشيء من الضبابية ، بل إنَّ الفطرة الإلهية هي التي يجب أن تسود في التعامل الاجتماعي بين الأفراد والجماعات ، وفي تضاد ((**والجمود بالبلل ، والحرور بالصرد**)) فإنَّه يذهب إلى المفهوم الكيمياوي من جهة مكونات المتضادات ، فالجمود هي عملية كيمياوية تقابلها عملية البلولة التي هي كيمياوية أيضاً ، والحرارة والبرودة كذلك كلاهما عمليتان كيمياويتان ، ويظهر أيضا أنَّ للجملة بعداً اجتماعياً من حيث السهولة والصعوبة في السلوك ، عن طريق بواعث التضاد في السلوك الاجتماعي تصورها اللغة في بنائها الدلالي نصياً ، بوصفها لحظات من الصراع بين الأعراف والمعتقدات ، فضلاً عن العلاقة الكونية مع الأشياء الفيزيائية أو الكيمياوية ؛ لكونها تؤطر الحياة البشرية التي تقدم الجمل الأخرى من النص صورة عن كنه تلك الأشياء الكونية ، في قوله (**عليه السلام**) : ((**مُؤَلِّفٌ بَينَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُفَارِقٌ بَينَ**

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الجديد : 7 / 49 .

مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرِّبٌ بَينَ مُتَبَاعِدَاتِهَا ، مُفَرِّقٌ بَينَ مُتَدَانِيَاتِهَا) فالتأليف بين المتعاديات هو غير المفارقة بين المتباينات ، والتباعد هو غير التداني ، فهو يناظر بين الألفاظ بما تحمله تلك الألفاظ من دلالات تعطي النص استثماراً عالي المستوى في معانيها ، ولعل ذلك التضاد يمكن توضيحه في الخطاطة الآتية التي تبيّن كيف أنَّ المعاني تتضاد دلالياً ، وتتقابل خطِّيَّاً

مقرب

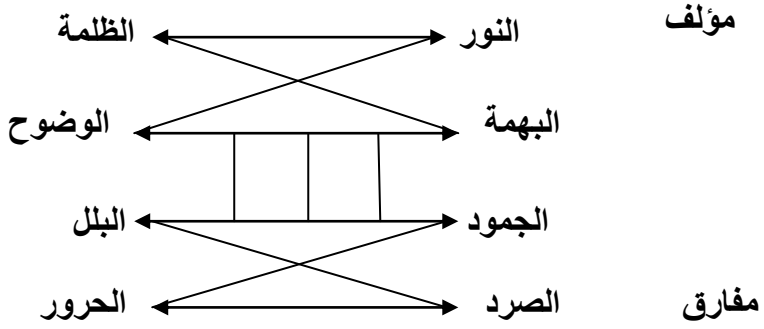

من هنا يتبيّن أنَّ الألفاظ المتضادة الواردة في النص هي ليست قصدية بحد ذاتها ، بل هي تحمل القصدية نفسها في استنطاق طبيعة البناء الدلالي الذي يكتنف الكون كله ، بوصف اللغة أحدى المنظومات الكونية التي تتناغم في مكوناتها مع مكونات الكون نفسه.

ويستعمل الإمام (**عليه السلام**) التضاد في موطن آخر؛ ((لتأكيد شمولية المعنى)) [1]، وإظهار جماليته عن طريق اجتماع الشيء وضده بقوله:

((وَقَدَّرَ الأَرزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا ، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَالسِّعَةِ ، فَعَدَّلَ فِيهَا لِيَبتَلِي مَن أَرَادَ بِمَيسُورِهَا وَمَعسُورِهَا ، وَلِيَختَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكُر وَالصَّبر مِن غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا . ثُمَّ قَرَنَ بِسِعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا ، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَبِفُرَجِ أَفرَاحِهَا غُصَصِ أَترَاحِهَا . وَخَلَقَ الآجَالَ

[1] نظرية علم النص ، حسام أحمد فرج : 112 .

فَأَطَالَهَا وَقَصَّرَهَا ، وَقَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا ، وَوَصَلَ بِالمَوتِ أَسبَابَهَا ، وَجَعَلَهُ خَالِجَاً لأَشطَانِهَا ، وَقَاطِعَاً لِمَرَائِرِ أَقرَانِهَا))[1]

يعبّر التضاد في هذه المقطوعة البنائية عن شبكة من المتقابلات التي تسير في حركة خطِّيَّة متعاقبة خاضعة لمنظومة كونية غيبية ، تُكشف عن طريق السلوك الاجتماعي للبشر، التي تمثلت بالكثرة والقلة في الضيق والسعة ، والعسر واليسر ، والتقديم والتأخير والطول والقصر في الآجال ؛ ذلك أنَّ وجود النوع يقتضي وجود الضد ، وقد يكون وجود الضد مكمّلاً أو متمماً لوجود النوع ، وبهذا ينبني النص على مجموعة من العلاقات الدلالية التي تشكل الروابط غير المنظورة في نسيج النص ، وكذلك إنَّه يقوم على شبكة معقدة من العلاقات العابرة لحدود النص ، في ضوء توائمها مع الأبعاد الوجودية لماهية الأقدار التي تناولها النص ابتداءً ، حينما يذكر تقدير الأرزاق بتفصيل يومئ إلى الخطِّيَّة العقدية المتصلة من أول الخلق ، فتقدير الأرزاق يشير إلى مفهوم كمِّي ينتظم عبر النص كلامياً ، ثم يبدأ التفريع بالدلالات عن طريق استعمال الألفاظ ذات الدلالات المتعددة ((في نسقيتها المعرفية من خلال منظومة .... كلية تمسك بخط متوازن ومتواصل من الأحكام)) [2] ، كما في قوله: **(وقسَّمها على الضيق والسِّعة ، فعدَّل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها ، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيِّها وفقيرها)** ؛ إذ إنَّ الألفاظ **(قسّمها ، عدّل ، يبتلي ، يختبر)** في بنائها المعجمي ربما تتشابه بدلالاتها ؛ لكنَّها هنا تجاوزت ذلك إلى أن تبني منظومة معرفية تعتمد البناء الدلالي المنضبط عقائدياً ؛ لكي تؤسس لما بعدها من منظومة جملية

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 4 / 16 .

[2]) البحث الدلالي عند المعتزلة ، علي حاتم الحسن : 22.

تقترف دلالاتها من تراكماتها اللفظية التي سبقها بأداة العطف (ثم) التي تفيد التراخي الزمني، وهو ما ينصرف دلالياً إلى أنَّ ما يرافق هذا التقسيم والتعديل والابتلاء والاختبار الذي بدأ به النص ، هو سيحصل على وفق ما سيكون من سلوك واقعي عملي ينتظم ضمن أبعاد الحياة الواقعية الممتدة زمنياً بما يسمى عمر الفرد من جهة تراتبية الأحداث والأفعال ، التي تحصل من الفرد نفسه وانعكاسات ذلك عليه في الدنيا وفي الآخرة على حد سواء ، وهو ما نصّ عليه النص في مجموعة من الجمل التي اكتمل بها المعنى دلالياً ، فقال:(**ثُمَّ قَرَنَ بِسِعَتِهَا عَقَابِيلِ فَاقَتِهَا ، وَبِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا ، وَبِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصِ أَتْرَاحِهَا)** حيث ركّب من المتناقضات مشهداً ينبض بالدلالات المتضادة ؛ لكي تبدو الصورة واضحة بشكل جلي للمتلقي.

ومن هنا تتحدد دلالات الألفاظ التي تنتظم في النص لتفتح نوافذ الفهم البشري في اتجاه خطِّي واحد ؛ ليقوم بوظيفته بوصفه سلسلة لفظية صوتية دلالية اختزلتها الجمل الأخيرة من النص، في قوله: ((**وخلق الآجال فأطالها وقصَّرها ، وقدَّمها وأخَّرها ، ووصل بالموت أسبابها ، وجعله خالجا لأشطانها ، وقاطعا لمرائر أقرانها**)) ؛ إذ خلق الآجال يقوم على نوعين لا توازي ولا تعاقب بينهما ، فهما كل منهما يخص فرداً بذاته وان تعددت أمكنة الأفراد لكن الزمن يبقى واحداً فيما يخص الجميع ، ثم يذهب النص إلى النهاية الحتمية التي يكتمل عن طريقها البناء الدلالي للنص .

الفصل الثالث

العلاقة الخطِّيَّة بين الخلق والبناء

- **مدخل :**

من خلال تسليط الضوء على مفردات عنوان البحث ومعرفة مقصد كل مفردة تنظيراً وتطبيقاً ، لوحظ أن مفردتي الخلق والبناء من المفاهيم العامة التي لا ينحصر إطلاقها على ما ينصرف الذهن إليه من المعنى القريب المتعارف عليه ، من خلق الكون والبناء الهندسي أو المعماري ، بل تطلق كل منهما على خلق وبناء كل من الإنسان والحيوان والنبات والفضاء بما فيه من مجرات وأقمار، والقوانين والسلوك الاجتماعي ونحوه ، وفي الحقيقة كلها

لا تخرج عن إطار الزمان والمكان ؛ ومن هنا يلحظ بين الخلق والبناء تفاعل إلى حد كبير، فضلا عن انسجامهما في منظومة النص التي تعد الصورة الكلامية المناغمة للمنظومة الكونية ، وهذا التفاعل تنشأ منه علاقة يمكن طرحها على شكل سؤال :

علاقة الخلق والبناء علاقة تعاقبية أو تزامنية ؟ وبعبارة أوضح الخلق اسبق من البناء أو العكس ؟ أو إنهما يحدثان معا في آن واحدة ؟

أجاب عن هذا السؤال الكتاب العزيز بأسبقية الخلق على البناء ودليل ذلك [1] قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ**﴾**[هود :7]** ، فدلالة (كان) هنا واضحة على الزمن السابق لخلق السموات والأرض في أنَّ العرش كان على الماء ، ودليل قرآني آخر يثبت أسبقية الخلق للبناء ، قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾**[الأنبياء : 30]** ، أي كانتا ملتصقتين ثم فصلتا فيما بعد ؛ ليبين قدرة الله ومشيئته في خلقه وصنعه ، فضلا عن إشارات الإمام **(عليه السلام)** إلى أسبقية الخلق على البناء في أثناء حديثه عن خلق السموات والأرض والكون ، التي أشرنا إليها فيما سبق ، فقال :**((أنشأ الخلق إنشاء وابتدأه ابتداء))** [2] ، ما يعني احتمالية أنَّه أراد من الإنشاء الخلق الأول في عالم الذر، ومن ثم الابتداء ؛ أي بناء هذا الخلق على هيأة معينة في الزمان والمكان ، أي الخروج من عالم المعنى المجرد إلى عالم المعنى المتلبس بالشكل ، فكأنَّما أراد أن يشير إلى أنَّ الخلق فكرة والبناء تجسيد لهذه الفكرة ، والواو الواصلة كانت مؤشراً واضحاً على هذه

---

[1]) راجع الإجابة عن هذا السؤال فصل الخلق من البحث ، الخلق التقديري تحديدا :23.

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 1 / 49 .

المغايرة بين المفهومين ، ومن هذه المغايرة نشأت علاقات ، وقد أسهم البحث في رصد بعض هذه العلاقات القائمة بين مفهومي الخلق والبناء داخل منظومة النص المنسجمة مع منظومة الكون ، متجاوزاً في ذلك الربط الشكلي بين أجزاء المنظومة إلى ما هو أعمق وأوقع؛ إذ إنَّ الباحثة ترى أنَّ هذه العلاقة قائمة على أساس التضامن أو التكامل أو الملازمة ، وهو ما سنتناوله في هذا الفصل .

المبحث الأول

علاقة التضامن

التضامن لغة ، مأخوذ من الفعل تَضَامَنَ بوصفه من المزيد ، فيقال تضامن القوم: التزم كل منهم في أداء ما يقصِّر عنه الآخر [1] ، والتضامن اصطلاحاً هو ((علاقة متبادلة بين الأفراد تجعل الأمر الذي يصيب أحدهم ذا تأثير على الآخر)) [2] ، و يطلق على ((علاقات الأشياء وتوقفها بعضها على بعض ، فالشيئان المتضامنان ... هما اللذان يكون أحدهما غير

[1]) ظ : لسان العرب : 13 / 257 وما بعدها ، مادة (ضمن) .

[2]) المعجم الفلسفي : 1 / 288 .

مستقل عما يؤثر في الآخر)) [1] ، كالعواطف المتبادلة والوراثة التي تعني تضامن الأجيال المتعاقبة[2] ، بوصفها جزءاً من المنظومة الكونية ، فتكون علاقتها بالكون علاقة الجزء بالكل، وهي بمثابة إحدى الشروط التي يقوم عليها التضامن ، ثم شاع هذا المعنى واخذ يطلق على علم الأخلاق والفن ، وعلم اللاهوت والظواهر الطبيعية [3] ، وتلحظ هذه العلاقة بعد مرحلتي تقدير الشيء وإيجاده ، ومن ثم تشكيله وتجسيده تبعا لقانون طوعي طبعي أو قانون وضعي شرعي ، أو سلوك اجتماعي ، وعلى وفق هذه الرؤية يقسم التضامن على أنواع :

1-التضامن الطبيعي الطوعي

هذا النوع من التضامن يخضع للذات بوصفها منبعًا للانفعالات النفسية التي ترى الآخر جزءاً من الكينونة الاجتماعية ؛ أي يحدث من تلقاء نفسه ، بما أودع الخالق في مخلوقاته من الطبيعة التطورية التي توحي إلى مشيئة خفية وسر مكنون وراء هذه الطبيعة الطوعية التضامنية ، من ذلك ما ذكره الإمام **(عليه السلام)** بعدما انتهى من الحديث عن صفات الخالق وصفة خلق سكان السموات وهم الملائكة ، شرع في الحديث عن صفة خلق سكان الأرض ومنهم آدم ، فقال :((**ثُمَّ جَمَعَ سُبحَانَهُ مِن حَزَنِ الأَرضِ وَسَهلِهَا ، وَعَذبِهَا**

---

[1]) المصدر نفسه: 1 / 288 .

[2]) المصدر نفسه : 1 / 288 .

[3]) ظ : المصدر نفسه : 1 / 288 .

وَسَبخِهَا ، تُربَةً سَنَّهَا بِالمَاءِ حَتَّى خَلُصَت ، وَلَاطَهَا بالبَلَّةِ حَتَّى لَزُبَت ، فَجَبَلَ مِنهَا صُورَةً ذَاتَ أَحنَاءٍ وَوُصُولٍ ، وَأَعضَاءٍ وَفُصُولٍ : أَجمَدَهَا حَتَّى استَمسَكَت ، وَأَصلَدَهَا حَتَّى صَلصَلَت لِوَقتٍ مَعدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعلُومٍ . ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِن رَوحِهِ فَمَثُلَت إِنسَانَاً ذَا أَذهَانٍ يُجِيلُهَا، وَفِكرٍ يَتَصرَفُ بِهَا ، وَجَوَارِحٍ يَختَدِمُهَا وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا ، وَمَعرِفَةٍ يُفَرِّقُ بِهَا بَينَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ ، وَالأَذوَاقِ وَالمَشَامِّ وَالأَلوَانِ وَالأَجنَاسِ ، مَعجُوناً بِطِينَةِ الأَلوَانِ المُختَلِفَةِ وَالأَشبَاهِ المُؤتَلِفَةِ ، وَالأَضدَادِ المُتَعَادِيَةِ وَالأَخلَاطِ المُتَبَايِنَةِ ، مِنَ الحَرِّ وَالبَردِ ، وَالبِلَّةِ وَالجُمُودِ، وَالمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ))[1] ، وهذا الشروع المتأني دلت عليه (ثم) ، التي أفادت التراخي في الزمن ، والفعل (جمع) الدال على ضم الأشياء بعضها إلى بعض ووصل ما هو متفرق، وجعلها في سلسلة منظمة ، يؤكدان التضامن الطوعي الخطِّي مع ما سبق خلق الإنسان من خلق بوصفه جزءاً من هذه المنظومة الكونية ، التي تسير طوعًا وتضامناً مع ما قبلها ، وما بعدها بحسب ما أودعه الله تعالى فيها من قدرة . ففي النص مرحلتان تؤكدان طبيعية التضامن وطوعيته في كل مرحلة وفي المرحلتين معاً :

الأولى / (التكوين المادي) : المغايرة والتعدد مع الجمع الذي أفادته لفظة(**جمع)** و**(الواو)** الواصلة ، كلها أمور تومئ إلى التضامن الذي لا يكون إلا بين طرفين فأكثر بغض النظر عن نوعه وآلية تضامنه ، فاختلاف الأشياء وتعددها وجمعها في خلق الإنسان الأول ، التي تمثلت بـ(**حَزَنِ الأَرضِ وَسَهلِهَا ، وَعَذبِهَا وَسَبخِهَا**) ، ثم إخضاع هذه الأشياء إلى عمليات كيميائية فيزيائية متمثلة بالصلادة والصلابة واللزوجة والحرارة وضمن مُدد زمنية محددة ، التي عبَّر عنها بقوله:(**تُربَةً سَنَّهَا بِالمَاءِ حَتَّى خَلُصَت ، وَلَاطَهَا بالبَلَّةِ حَتَّى لَزُبَت،**

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 1 / 60 .

فَجَبَلَ مِنهَا صُورَةً ذَاتَ أَحنَاءٍ وَوُصُولٍ ، وَأَعضَاءٍ وَفُصُولٍ : أَجمَدَهَا حَتَّى استَمسَكَت ، وَأَصلَدَهَا حَتَّى صَلصَلَت لِوَقتٍ مَعدُودٍ، وَأَجَلٍ مَعلُومٍ) ، كل هذه الأمور على الرغم من اختلافها وتغايرها في النوع والعمليات الخاضعة لها ، أسهمت إسهاماً فاعلاً في عملية التضامن الطوعي الطبيعي ، وأسهمت (**حتى)** أيضاً في عملية التضامن هذه ، التي أفادت معنى الغاية أو النهاية المكملة لما قبلها من عملية ، أو تفاعل للمواد المكونة لهذا الجسد؛ لأنَّ التضامن إنَّما يحصل بين الأطراف للوصول إلى هدف وغاية معينة يبتغيها ويهدف إليها وهو بناء هذا الجسم الإنساني ، الذي ما كان ليصل إلى هذا البناء والهيأة الحاصلة له إلا بعد مروره بأطوار خطِّيَّة تعاقبية متراتبة أكدتها الأدوات (**ثم)** و(**حتى)** و(**الفاء)** في (**فجبل)** و(**الواو)** الواصلة المتناثرة في النص ، والتركيب(**لوقت معدود ، وأجل معلوم**) ، الذي أشار فيه إلى النهاية الجزئية للتتابع الخطِّي في التكوين المادي ، وإنما قلنا جزئية ؛ لأنَّ هناك مرحلة مكملة لهذه النهاية وهي مرحلة نفخ الروح التي سنعبِّر عنها بمرحلة التكوين المعنوي .

الثانية / (التكوين المعنوي) : وهي المرحلة المكملة التي تؤدي ما تقصر عنه المرحلة السابقة ، التي يكون أداؤها متوقفاً على تضامن جزئها الآخر (**الروح)** ؛ لأنَّ المادة التي أسهمت في بناء الجسم ، ينقصها الحركة والإدراك والتمييز بين الحق والباطل ، وبين الأذواق والمشام ، ومعرفة الألوان والأجناس عن طريق الحواس بإيعاز من العقل ، فتأتي الروح (**التكوين المعنوي**) التي أودعها الله تعالى في هذا الجسد الميت ؛ لتتضامن مع التكوين المادي وتؤدي ما قصر عنه أداؤه من حركة وفكر وقدرة على معرفة الأشياء وتفكيكها، وأيَّد هذا المعنى الأفعال(**نفخ ، فمثلت ، يجيلها ، يتصرف ، يختدمها، يفرق**) الدالة على التراتبية الزمنية في تكوين المتغايرات المادية والمعنوية ، فضلاً عن الثنائيات التي

أوضحت التضامن الطبيعي الطوعي والمتمثلة بـ(**الحر والبرد ، البلة والجمود ، المساءة والسرور)** ، فهي وإن تباينت وتضادت فيما بينها ، لكنَّها متضامنة في جزئياتها واقعاً فضلاً عن تضامن عناصرها اللغوية ضمن السياق عن طريق الأدوات الإجرائية التي ساعدت على ربط أجزاء النص خطِّيًا ، فعلى سبيل المثال ، لو لم يسمح التراب بدخول الماء لما تكونت مادة الطين ، وكذا الحال في الماء والشيء الصلب الجامد فكل منهما يدخل في جزئيات الآخر تبعا لقانون طبيعي طوعي ، فجاءت الألفاظ متسقة متلاحمة تبعاً للواقع .

2-التضامن الوجوبي :

هو التضامن الذي عرفته أو تواضعت عليه القوانين والأعراف على أنَّ هناك حقوقاً وواجبات بين الناس ، كالذي بين الراعي ورعيته ، فالواجبات تقع على عاتق الراعي تجاه الرعية كالتعليم والنصيحة وتوفير الفيء والتأديب التي هي في الوقت نفسه حقوق لهم ، وتقع على عاتق الرعيَّة تجاه الراعي ، الإيفاء والالتزام بما يأمر به الراعي ، وما يسنُّه من قوانين وهي في الوقت عينه حقوق له ، ويتجلى ذلك في قول الإمام **(عليه السلام)** ، الذي بيّن فيه واجبات الراعي تجاه رعيته وحقوقه عليهم ، إلا إنَّهم تقاعسوا ولم يمتثلوا لما أمرهم فنبههم قائلاً:((**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لِي عَلَيكُم حَقّاً ، وَلَكُم عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُم عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُم، وَتَوفِيرُ فَيئِكُم عَلَيكُم ، وَتَعلِيمُكُم كَيلَا تَجهَلُوا ، وَتَأدِيبُكُم كَيمَا تَعلَمُوا ، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيكُم فَالوَفَاءُ بِالبَيعَةِ، وَالنَّصِيحَةُ فِي المَشهَدِ وَالمَغِيبِ ، وَالإِجَابَةُ حِينَ أَدعُوكُم ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُم**))[1] ، في النص دعوة إلى وجوب التضامن يمكن التعرف عليها عن طريق الآتي :

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 1 / 345.

– أسلوب النداء(**أيها الناس**) الذي يكشف عن انفتاح نصّي يتجاوز حدود الزمان والمكان بوصفه خطاباً عاماً غير محدد بفئة معينة من النَّاس ؛ لأنَّ هذا النوع من التضامن يراد به إعانة الأفراد بعضهم بعضاً ، والراعي والرعية من ضمن أفراد المجتمع الواحد ، فصار ينادي ويوضّح لمن لا يجيب ولا يفهم ماهية الحقوق والواجبات التي يقوم عليها التضامن الوجوبي بين الناس ؛ لأنَّ حب الدنيا أعمى قلوبهم عن طريق الحق ، فجاءت هذه الصيغة (**أيّ**) مع هاء التنبيه ؛ لتنبيه المخاطب ولتوكيد ما شرّعه الله تعالى من وجوب الامتثال إلى الحاكم العدل ، وجاء لفظ المنادى(**الناس**) بصيغة اسم الجنس الافرادي ؛ لتدل على خطَّيَّة أسلوب النداء ، فهو يشمل جميع المخاطبين على مر الأزمنة بدءاً من المخاطبين في زمن التلفظ وصولاً إلى المخاطبين في أزمنة متباعدة وأمكنة متغايرة .

– التوكيد الذي أفادته الأداة(إنَّ) ، والحصر والاختصاص [1] الذي أفاده تقديم شبه الجملة الجار والمجرور (**إِنَّ لِي عَلَيكُم حَقّاً ، وَلَكُم عَلَيَّ حَقٌّ**) ؛ ليتضامن كل من الراعي والرعيَّة في تأدية ما نقص عن الرعيَّة من أمور تجب على الراعي ، وتلبية ما أمرت به الشريعة من حقوق تجاه الراعي من الرعيَّة .

– الأداة (فأما .. وأما) و(الفاء) الواقعة في جوابهما ، فهي وان دلت على التفصيل إلا إنَّها تحفِّز الذّهن على الترقب لخاتمة الموضوع ، وفي هذا إيماءة إلى الخطِّيَّة التعاقبية للتضامن الوجوبي الذي زاد من ((الربط بين أوصال الجملة أو السياق القائم على أكثر من جملة))[2] ، بدءاً من بيان المتكلم ما عليه من حقوق تجاه رعيته ، وما له من حقوق عليهم .

---

[1]) الإتقان في علوم القرآن : 2 / 51 ، ظ : معاني النحو : 3 / 91 .
[2]) الإحالة وأثرها في تماسك النص القرآن: 567 ،

ولأهمية الأمر وعُظمه جُعِلت هذه الحقوق فريضة ، بل من أعظم الفرائض التي افترضها الله على عباده ولاةً كانوا أو رعية ، ومثل هذا الأمر ذكره الإمام **(عليه السلام)** في أغلب خطاباته قائلاً : **((حَقُّ الوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ وَحَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الوَالِي . فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللهُ سُبحَانَهُ لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ ،...، فَإِذَا أَدَّتِ الرَّعِيَّة إِلَى الوَالِي حَقَّهُ ، وَأَدَّى الوَالِي إِلَيهَا حَقَّهَا ، عَزَّ الحَقُّ ، وَقَامَت مَنَاهِجُ الدِّينِ))**[1] ، التي من أجلها يجب التضامن ، وتأدية كل طرف ما له وما عليه بوصفه أمر مفروض ولا نزاع فيه أوضحته عبارة(فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍ على كل)، بمعنى أنَّ الحقوق فرض لكل والٍ على كل الرعيَّة ، ولكل فرد من الرعيَّة على الوالي .

– المقابلة بين الموقفين–موقف الإمام **(عليه السلام)** تجاه الرعيَّة وموقف الرعيَّة تجاهه في الحقوق والواجبات– أعطت معنىً واضحاً للتضامن الوجوبي ؛ إذ إنَّ تقديم النصيحة للرعيَّة من الحاكم يوجب تضامن الرعيَّة والوفاء ببيعتهم له ، وتوفير الحاجات اللازمة لهم

يقتضي تضامنهم بالنصح في موالاته في مشهده ومغيبه ، وتعليمهم وإرشادهم إلى جادة الحق وإزالة الجهل عنهم يستدعي الإجابة له حين يدعوهم ، ومن ثم تأديبهم ؛ أي معاقبتهم على عصيانهم بعد تقديم النصح والإرشاد لهم ، وهذا مؤداه الطاعة له حين يأمرهم ، فهذا التعاون بين الراعي والرعيَّة في تأدية ما لهم عليه وما له عليهم ((يفضي إلى وجوب التضامن بين أفراد النوع الإنساني حتى تتم به حياتهم)) [2] وتستقيم ، وبخلافه يكون مدعاة لسيادة الظلم وسلب الحقوق والإفساد في الدين ، وقد ذكر الإمام **(عليه السلام)** هذا الأمر في موضع آخر قائلاً: **((وإِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالِيَهَا ، أَو أَجحَفَ الوَالِي بِرَعِيَّتِهِ ، اختَلَفَت هُنَالِكَ**

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 6/ 61.

[2]) المعجم الفلسفي :1 / 288.

الكَلِمَةُ ، وَظَهَرَت مَعَالِمُ الجَورِ ، وَكَثُرَ الإدغَالُ فِي الدِّينِ. ..))[1] ؛ لذا جاء هذا الخطاب خطاباً عاماً ؛ لعمران البشر وهدايتهم ؛ وتحفيز عقولهم نحو ضرورة التضامن فيما بين الجماعة أنفسهم ، وفيما بينهم وبين قائد الجماعة بغية تحقيق الهدف الواحد ، وهذه الحقوق المتبادلة بين الجماعة ووالِيها إنَّما هي فريضة من أعظم الفرائض التي أفترضها الله تعالى وهو ما يدعو إلى بناء مجتمع مؤمن متضامن تجمعه عناصر خطِّيَّة متجانسة تمثلت بالحقوق والواجبات ، كاجتماع هذه الألفاظ خطِّيَّاً وتراتبها وتضامنها بشكل إلزامي بدءاً بالنداء ثم التفصيل في حق الوالي والمُتولَّى ؛ لتنقل لنا حقيقة من الحقائق الواقعية في هذا الكون التي حدثت ولا زالت تحدث حتى يومنا هذا.

3-التضامن الاجتماعي :

وهو نوع من أنواع التضامن الذي اتفق عليه أعضاء المجتمع الواحد على تقسيم العمل وتأدية كل فرد خدمة للطرف الآخر سواء أكان هذا الأداء بعلمه أم لا ، ومن ثم يحقق تضامناً بين فئات المجتمع الواحد كافة على اختلاف طبقاتهم ، كتضامن الزارع والحداد ، وتضامن التاجر والبنَّاء... الخ ، وفي هذا دعوة إلى التكاتف والاتحاد بين الأفراد ؛ إذ إنَّ ((الأشخاص الذين التزموا أن يؤدوا فرضا واحداً أشبه شيء بالبنيان المرصوص يشد بعض

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 6 / 61.

بعضا))[1] ، أو يأتي بمعنى التكافل الاجتماعي ؛ أي أحدهما يكفل الآخر [2] ، وهو المعنى نفسه الذي أشار إليه الكتاب والسنة النبوية ، قال تعالى :﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾**[الحجرات : 10]** ، وقال النبي **(صلى الله عليه وآله وسلم)** :((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا))[3] ، وهو المعنى نفسه الذي أشار إليه الشاعر أبو العلاء المعري لبيان هذا المعنى من التضامن ، فقال:

والنَّاسُ بالنَّاسِ من حضر وبادية بَعضٌ لِبَعضٍ وإن لَم يَشعِرُوا خَدَمُ[4]

والحاكم في هذا النوع من التضامن ، المصلحة ، والضمير(الأنا) والأخلاق ، والعرف الاجتماعي ، فـ((المتضامنان هما اللذان يكون لفعل أحدهما أو شعوره تأثير في الآخر كالتعاطف فهو عبارة عن شعور المرء ما يشعر به أخوه)) [5] ، أو المواساة فيما بينهم ، ولا تكون هذه إلا بالمعاشرة الحسنة ومرافقة الآخرين في سرائهم وضرائهم ، وهذا ما نبَّه عليه الإمام**(عليه السلام)** على حسن معاشرة الناس ومعاملتهم بالحسنى ، حين قال : **((خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً ، إِن مُتُّم مَعَهَا بَكُوا عَلَيكُم ، وَإِن عِشتُم حَنُّوا إِلَيكُم))**[6].

---

[1]) المعجم الفلسفي : 288/1 .

[2]) ظ : لسان العرب : 13 / 257.

[3]) صحيح البخاري : 7 / 80 ، وظ : صحيح مسلم ، مسلم النيسابوري : 8 / 20 .

[4]) اللزوميات ، أبو العلاء المعري : 2 / 277.

[5]) المعجم الفلسفي : 1/ 286 .

[6]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد :9/ 246 .

النص يقوم على ثلاثية : موضوع النص وهي المخالطة وحسن المعاشرة ، المبنية على المحبة الصادقة ، والوسيلة والرمز الرابط للموضوع هو البكاء والحنين ، وهذه الوسيلة تنفي المخالطة المبنية على النفاق والرياء والزيف ، فلا توجد فيها هذه العلامة الإشارية ، وقد أشار الكتاب العزيز لهذا النوع من الخلطاء ، قال تعالى :﴿**وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾**[ص : 24]** ، وصاحب الرمز أو العلامة هم الناس ممن أمر المتكلم بمخالطتهم بالحسنى ومداراتهم.

إنَّ النص يحيلنا من التعبير اللساني إلى التعبير غير اللساني عن طريق العلامة الإشارية (البكاء) و(الحنين) ، التي بدورها تُعلِمُنا أنَّ في النص نوعين من الفقد أو الفراق :

-الفراق الكلي الذي لا رجعة فيه وهو الموت ، فهو مدعاة لليأس والتشاؤم والعزلة ؛ ولذا اقترن معه البكاء الذي يرمز إلى ملمح من ملامح الإبلاغ عن صدق هذه المخالطة وتمامها ومنتهاها بدلالة المعية أو المصاحبة التي عبَّر عنها بـ(إن متم معها) ؛ أي إن كانت خاتمتكم ونهاية أمركم قد أغلقت بالحسنى مع الناس ، التي آلت فيما بعد إلى الذكر الطيب بكوا عليكم لقطع رجاء عودتكم ، فيصورها منشئ النص تصويراً دقيقاً ؛ ليكشف لنا مدى عمقها وتأثيرها في الخلائق ؛ ذلك أنَّ البكاء يمثل علامة أو((إشارة لعمق التأثير وصدق المشاعر)) [1] التي لا يمكن حصرها في لغة معينة أو فئة محددة .

-الفراق الجزئي الذي فيه بذرة أمل في الرجوع وهو العيش أو الحياة ؛ ولذا قُرن بالحنين والتوق واللهفة ، والمعبَّر عنها بـ(وإن عشتم حنوا إليكم) ، كما أنَّه لم يقرن معه معنى

---

[1]) دلالات البكاء وموضوعاته في الشعر الأموي ، بدران البياتي : 6.

المصاحبة ؛ بسبب أنَّ المخالطة للناس بالحسنى ملازمة للعيش والحياة فلم تحتج إلى اقترانها بـ(مع) .

في النص دلالة على العموم–أي عدم اختصاص المخالطة بطائفة معينة من الناس دون أخرى أو ديانة ، أو عصر من العصور.. الخ– مستوحاة من التعبيرات اللسانية المتمثلة بـ(**الناس**) و(**واو الجماعة**) في (**خالطوا** ، **بكوا** ، **حنوا**) وضمائر الخطاب المقترنة بميم الجمع، التاء في (**متم** ، **عشتم**) والكاف في(**عليكم** ، **إليكم**) ، والتعبيرات غير اللسانية وهي العلامات الإشارية المتمثلة بـ(البكاء) و(الحنين) ، فهي وإن وردت ألفاظا في النص ، إلا إنَّ ورودها كان تعبيراً لفظياً لعلامات ظهرت في الواقع دالة على هذه الألفاظ كالدموع والحزن والألم ، العلامات المعبّرة عن لفظة البكاء والحنين ، فهذه العلامات لا تختص بلغة معينة ((وإنما تنفذ إلى لغات العالم كافة بوصفها تعبيراً إشارياً متعدد الأشكال ويدخل في صلب العلاقة بين الدال والمدلول))[1] ، وبهذا يلحظ الانسجام بين اللغة والكون ؛ لأنَّ التعبيرات غير اللسانية تشكل مظهراً من المظاهر الكونية التي تعبِّر عن معاني ذهنية يفهم التعبير اللساني عن طريقها وتستغني عنه لتحقيق الهدف المقصود ، فضلاً عن التتابع الخطِّي في مكنونات النص.

4–تضامن التشابه والاتحاد:

هذا النوع من التضامن مبني على أنَّ لكل فعل رد فعل مشترك طوعي سواءً كان هذا الفعل مستهجناً أو مستحسناً بين أفراد المجتمع (كاستنكارهم للجريمة مثلاً) يعد نتيجة أو رد

---

[1])المصدر نفسه :7.

فعل ضروري لإيمان الإنسان بالمثل الأعلى [1] ، ومن الممكن القول إنَّ تضامن التشابه والاتحاد يعني اتفاق أفراد المجتمع على استنكار الفعل القبيح ؛ لإيمانهم بالمثل والقيم الرفيعة.. وهو يقترب كثيراً من مفهوم الفطرة التي فطر الناس عليها .

إنَّ هذا النوع من التضامن يمكن القول عنه إنَّه تضامن طوعي اجتماعي ، فهو طوعي من جهة ارتباطه بالفطرة ؛ لأنَّ أصناف البشر يتشابهون طوعاً ، ويتحدون في ضوء انتمائهم جميعاً إلى فطرتهم الأولى ، تلك البداية السليمة التي تنتمي إلى الفضيلة والقيم العليا من جهة، وهو اجتماعي لارتباطه بالسلوك الإنساني والحكم عليه من حيث صحته وعدمه ، أو من حيث كونه سلوكاً مرغوباً أو ممقوتاً ، من جهة أخرى .

إنَّ الهدف السامي الذي يسعى إليه الإنسان ، هو التكامل في السلوك الذي يصل بالذات الإنسانية إلى المثل الأعلى ، فالمتّقي يرجع إلى فطرته الأولى برياضة نفسية عن طريق ترويض النفس على السلوك الصحيح ، وهذا ما عبَّر عنه الإمام **(عليه السلام)** حينما ذكر الصفات التي يصدق وصف من اتصف بها بعنوان المتقي ، قال : **((قَد أَلزَمَ نَفسَهُ العَدلَ ، فَكَانَ أَولُ عَدلِهِ نَفيُ الهَوَى عَن نَفسِهِ ، يَصِفُ الحَقَّ وَيَعمَلُ بِهِ ، لَا يَدَعُ لِلخَيرِ غَايَةً إِلَا أَمَّهَا ، وَلَا مِظَنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا ، أَمكَنَ الكِتَابَ مِن زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَإِمَامهُ ، يَحِلُّ حَيثُ حَلَّ ثُقُلُهُ ، وَيَنزِلُ حَيثُ كَانَ مَنزِلُهُ))**[2].

في النص أمارات على التتابع الخطِّي التعاقبي ، وهو توالي صفات الترقي في التقوى واتحادها وصولاً إلى السلوك الصحيح الذي يوصل المتقي إلى التكامل الذي يريده الله تعالى

---

[1]) ظ : المعجم الفلسفي : 1 / 288 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 3 / 405 .

لأكرم مخلوق على وجه البسيطة وهو الإنسان ، والمتفق عليه من قبل أفراد المجتمع ، ومن هذه الأمارات :

-تصدير النص بالحرف (قد) الدال على تحقق وثبوت الوصف لهذه الفئة من الناس واستعمال الفعل الماضي (ألزم) الدال على معنى الإلزام والثبات في (**قَد أَلزَمَ نَفسَهُ العَدلَ**) ؛ لأنَّه يدل على حدوث الفعل في زمن مضى وانقضى ، ففيه معنى العودة إلى الجذور والتفاتة إلى نقطة الشروع الأولى وهي الفطرة التي ينطلق منها الإنسان ومن هناك يبدأ صوغ حياته، فالفطرة هي نقطة الانطلاق للإنسان من حيث الانتماء إلى عالم القيم والفضيلة ، واستعمل **(نفسه)** من ألفاظ التوكيد المعنوي لتؤكد معنى الوصف ، ومصداقه (**العدل)** الذي هو ملَكَة نشأت من الملكات الثلاث: وهي الحكمة والعفة والشجاعة ، التي طالما العارفون روَّضوا أنفسهم عليها بالعبادة حتى يحصلوا عليها ؛ لأنَّه لا يمكن الحصول على هذه الملكات إلا بإلزام أنفسهم العدل[1] ؛ لأنَّ العدل بمثابة الميزان بين هذه الملكات وعدمها . وإنَّ أوله كبح الشهوة عن نفس المتقي العارف السالك الطريق إلى الله تعالى ؛ لأنَّ اكتمال نفس المتقي يبدأ بـ**(نَفيُ الهَوَى عَن نَفسِهِ)** ، التي كثيراً ما تؤكد الشريعة على هذه الأمور ، ومنها يتضامن أفراد النوع الإنساني بفطرتهم على اتحادهم وتشابههم في الحكم على هذه النفس بحسن سلوكها وصحته ، فضلاً عن رضوان الله تعالى عليها ؛ لكونها اتبعت الحق وعملت به.

- ذكر الغاية التي هي بمعنى أقصى الشيء أو نهايته أو آخره في أسلوب القصر الدال على التخصيص متمثلا بـ**(لَا يَدَعُ لِلخَيرِ غَايَةً إِلَا أَمَّهَا)** بأن جعل للخير أو الحق بداية وجزئيات متتالية ، وهذا ينسجم مع التتابع الخطِّي الكوني والنصي ؛ لأنَّ النهاية تقتضي

---

[1]) ظ : شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2 / 306.

وجود بداية وجزئيات مكملة وصولاً إلى أقصاها ثم تقدمها ، تماماً كما هو حال الإمام والمأمومين في الصلاة ، بأن جعل نفسه إماماً لأقصى غايات الخير والحق ، (**وَلَا مِظَنَّةً إِلَّا قَصَدَهَا)** ، القصد أعم يشمل الحس وغيره ، والمظنة قد يراد بها الموضع أو المحل الذي يحل فيه الخير، وقد يراد بها المعنى الذهني وهو السعي إلى الخير فعلا أو قولا.

– الحلول والنزول في قوله (**يَحِلُّ حَيثُ حَلَّ ثُقْلُهُ ، وَيَنْزِلُ حَيثُ كَانَ مَنزِلُهُ**) تفيدان أنَّ كل إنسان في هذه الدنيا ولا سيما العارف أو من صدق عليه عنوان المتقي في رحلة ، أو أنَّ الحياة عبارة عن سفر، وعلى العاقل أن يتزود لرحلته أو سفره ، كي يصل إلى نهاية الطريق بيسر وأمان ، وخير الزاد التقوى ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى ، قال تعالى:﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى** ﴾[البقرة : 197] ، فالأفعال الكلامية الحاملة للإشاريات المتمثلة بالضمير المستتر، هي ألفاظ وإشاريات وتراكيب تومئ إلى العلاقة الرصينة بين المتقي وربه ، كما تشير إلى سريانية الحلول المتعلقة بالزمان والمكان وكينونة النزول المتعلقة بالوجود المكاني ، وهذا يفهم من الظرف(**حيث)** الذي قد يكون للمكان وقد يكون للزمان بحسب ما يرد بعده ، ويفهم من الفعل الماضي (كان) ، فالقرآن معنيٌّ بالهداية التي لا يحدها زمان ولا مكان ؛ إذ إنَّ السلوك الصحيح المتفق عليه من لدن أفراد المجتمع بحسب الفطرة المودعة لديهم يبقى صحيحاً غير خاضع للتغير الموضعي والآني ، وكذا الحال في تضامن المجتمع واتحادهم الفطري في استنكار السلوك غير الصحيح عن طريق معرفة الصفات المؤدية لهذا الحكم واستهجانها ، من ذلك ما ذكره الإمام **(عليه السلام)** في بيان صفات الجاهل الفاسق ، وهو الصنف المقابل للصنف الأول ؛ لأنَّ صدق العنوان مبنيٌّ على صدق تحقق جزئياته فيه ، فقال:**((وَآخَرُ قَد تَسَمَّى عَالِماً وَلَيسَ بِهِ، فَاقتَبَسَ جَهَائِلَ مِن جُهَّالٍ ، وَأَضَالِيلَ**

مِن ضُلَّالٍ ،...، قَد حَمَلَ الكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ الحَقَّ عَلَى أَهوَائِهِ ،...، فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنسَانٍ ، وَالقَلبُ قَلبُ حَيوَانٍ ، لَا يَعرِفُ بَابَ الهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ، وَلَا بَابَ العَمَى فَيَصُدَّ عَنهُ ، وَذَلِكَ مَيتُ الأَحيَاءِ))[1] .

بداية النص أعطت معنى الخطِّيَّة التزامنية التراتبية ، فلفظة (آخر) اقتضت لهذا الصنف وجود ضدّه المتزامن معه ، كما شكَّلت هذه اللفظة محور النص الذي ركَّز على الصفات التي تضامن أفراد المجتمع على استنكارها بحكم فطرتهم لمن صدقت عليه هذه النعوت المتمثلة بالادعاء الكاذب الذي دلت عليه **(قد)** الدالة على الثبات لدخولها على الفعل الماضي **(تسمَّى)** على صيغة (تفعَّل) الدالة على الاتخاذ ؛ أي اتخذ أو نسب صفة العلم له وهي منفية عنه ، والذي يؤكد نفيها أسلوب النفي (**وليس به)** والفعل **(اقتبس)** في **(فَاقتبَسَ جَهَائِلَ مِن جُهَّالٍ ، وَأَضَالِيلَ مِن ضُلَّالٍ)** الذي يعني أنَّه استمد جهله المطبق من الجهلة ؛ لأنَّ صيغة الجمع (**جهائل ، أضاليل)** تعني توالي الجهل عليه جهل بعد جهل ، وفي هذا إيماءة إلى التعاقب الخطِّي في اكتساب الجهل والضلال ، الذي يعد من لوازمه وتعلمه وأخذه من جاهل مضل ، وليؤكد صدق عنوان الفاسق عليه أنَّه أوصد مغاليق قلبه عن القرآن والاستنارة بنور هديه ؛ إذ إنَّه(**قَد حَمَلَ الكِتَابَ عَلَى آرَائِهِ ، وَعَطَفَ الحَقَّ عَلَى أَهوَائِهِ**) ، ويبدو أنَّ ورود حمل الكتاب مع الرأي والعطف مع الهوى تعدّ عملية انعكاسية ؛ لأنَّ الرأي موطنه العقل وهذا الأخير هو من يفسر الأمور ويحملها على الحسن والقبح ، والعطف من العاطفة وهو الميل والرغبة ومركزه القلب الذي يميل بالجاهل المنافق إلى الشهوات وإتباع الهوى ؛ أي تطويع القرآن لما يفكر ويرتأي ، ويحكِّم هواه على الهدى ، وفي هذا الأمر حلول

---

[1]) شرح ابن أبي الحديد : 411/3.

الفساد في البر والبحر، وقد أشار القرآن إلى ذلك ، قال تعالى :﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَ اوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ** ﴾**[المؤمنون:71]** ، وقوله (**فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنسَانٍ ، وَالقَلبُ قَلبُ حَيوَانٍ)** إشارة إلى صورتين متعاكستين هما :

–صورة شكلية ظاهرية يتفق فيها مع جميع أفراد بني نوعه ولا سيما العارف ، الضد المتزامن معه في الوجود والمختلف عنه في الجوهر .

–صورة واقعية باطنية يظهرها السلوك الذي ينم عن عقل بهيمي وقلب غير صالح لتقبل العلوم والمعارف لميله وانحرافه إلى الشهوات وهذا ما يؤكده الكتاب العزيز، قال تعالى:﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾**[الجمعة:5]** ، وهي الصورة التي يتضامن المجتمع ويتحد في الحكم على قبحها بحكم الفطرة المودعة لدى أفراده .

إنَّ إتباع الشيء والصدَّ عنه يتأتى عن معرفة ، وهذا يعني أنَّهما معلولان مسببان للمعرفة التي هي علة أو سبب الإتباع أو الصدّ عن الشيء و(**الفاء)** في (**فيتبعه ، فيصدَّ عنه)** دالة على السببية ، فإذا نفي المسبِّب انتفى المسبَّب ؛ ولذا لم يكرر عبارة (**لا يعرف)** في قوله (**لَا يَعرِفُ بَابَ الهُدَى فَيَتَّبِعَهُ ، وَلَا بَابَ العَمَى فَيَصُدَّ عَنهُ)** ؛ لأنَّ مفتاح كلا البابين وغلقهما لا يكون إلا عن معرفة وقصد ، فإذا نفيت عنه المعرفة أشير إليه بـ(**وَذَلِكَ مَيتُ الأَحيَاءِ)** ؛ أي ميت الجانحة ، حي الجارحة ، أو يراد بالميت هو الجاهل المطبق ، فإذا هيمنت عليه الشهوة صار ميتًا في صورة الحي ؛ لأنَّ حياة العاقل إنَّما تستكمل بالفضائل

التي هي سبب السعادة الحقيقية للمؤمن الحق [1] ، فكان اسم الإشارة (**ذلك**) بمثابة الحكم المتضامن عليه أفراد المجتمع لهذه الفئة المتصفة بهذه الأوصاف .

المبحث الثاني

علاقة التكامل

- **مدخل :**

[1]) ظ : شرح نهج البلاغة ، ميثم البحراني : 2 / 310 .

بين الخلق والبناء علاقة تكامل ، والتكامل هو علاقة تصاعدية متتالية يراعى فيها وصل الأشياء بعضها ببعض ؛ لأنَّ الشيء سواء كان أحاديًا أم ثنائيًا أم مجموعة أطراف لابد من أن يتألف من محاور متنوعة تحتاج إلى ترابطها بشكل تصاعدي لجعلها كلاً واحدًا متكاملًا واضحًا ومؤتلفًا [1] ، وهذا يعني أنَّ هناك اتصالاً بين مراتب الشيء القبلية والبعدية صعودًا إلى مرتبة التكامل ، وإنَّما قلنا صعودًا ؛ لأنَّ العكس يعني التبدد والانحلال ، ومن ثم الغموض وعدم الإدراك ؛ لكون الخلق عالماً افتراضياً غير منظور ولا مدرك من البشر، والبناء عالم واقعي معقول ومنظور إليه بوسيلة أو بدونها ، والواقع المرئي هو نتيجة لهذا الافتراض غير المرئي ، وكلا العالمين في حركة تطورية مستمرة سعيًا وراء الكمال ، والتكامل قد يكون ذاتيًا وغيره ، والذاتي على نوعين :

1- فردي متنامي كالبذرة تتطور شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى أكمل مرتبة من النضج ، أو كالأجنة في الأرحام ، أو تكوُّن المجرات الكونية ، أو الأجرام السماوية على وفق القوانين الذكية[2] المودعة فيها من عند الله تعالى .

2- فردي سلوكي معرفي كتعلم الكتابة أو ترويض النفس وتطويعها لصالح العمل أو طالحه ، وفي هذا المعنى إشارة إلى التكامل العقلي والإنجازي .

أو قد يكون التكامل جمعيًا ؛ أي متعدد الأطراف ولكن كل طرف يكون مكملًا للطرف الآخر وهو يقترب بذلك من معنى التضامن ؛ لأنَّ الحياة التكاملية لا تقوم على عنصر واحد،

---

[1]) ظ : المعجم الفلسفي : 1/ 332.

[2]) ظ: الله خالق الكون : 568.

بل تقوم على كل العناصر مجتمعة بغية الوصول إلى الهدف الأسمى والأكمل للمجتمع بعامة، ولكل فرد على وجه الخصوص ، وكل هذه الأنواع لا تخرج عن إطار المشيئة الإلهية.

ومما لا محيص من التلميح إليه أنَّ هذه العلاقة شاعت في نهج البلاغة بشكل ملحوظ ؛ إذ ورد في النص العلوي التكامل الذاتي المتنامي والمتمثل بخلق الإنسان ؛ لكونه المحور الأساس في هذا الكون ، وكل ما فيه مسخَّر لهذا المخلوق المكرَّم من عند الله تعالى، فهو الكون المصغَّر ، والكون إنسان كبير [1] ؛ لذا وجَّه الإمام **(عليه السلام)** خطابه إليه بقوله:((**أيُّهَا المَخلُوقُ السَّوِيُّ ، وَالمُنشَأُ المَرعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الأَرحَامِ وَمُضَاعَفَاتِ الأَستَارِ ؛ بُدِئتَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ ، وَوُضِعتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعلُومٍ ، وَأَجَلٍ مَقسُومٍ ، تَمُورُ فِي بَطنِ أُمِّكَ جَنِيناً : لَا تَحِيرُ دُعَاءً ، وَلَا تَسمَعُ نِدَاءً ، ثُمَّ أُخرِجتَ مِن مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَم تَشهَدهَا ، وَلَم تَعرِف سُبُلَ مَنَافِعِهَا ، فَمَن هَدَاكَ لِاجتِرَارِ الغِذَاءِ مِن ثَديِّ أُمِّكَ ، وَعَرَّفَكَ عِندَ الحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ!**))[2] .

جاء الخطاب لبيان مراحل الترقي لخلق الإنسان مع تنبيهه على وجود خالقه ؛ لأنَّ التصوير البنائي المرحلي لهذا المخلوق ، الذي يتكامل شيئاً فشيئاً بشكل تصاعدي لا يصدر إلا من صانع حكيم عليم ، والملاحظ على النص أنَّ المتكلم ابتدأ بأسلوب النداء(**أيُّهَا المَخلُوقُ السَّوِيُّ**) المحذوف الياء للإيجاز والاختصار ولتلاحق الكلام ؛ لأنَّ الإمام **(عليه السلام)** في معرض بيان صفات الخالق ، فنبَّه المخلوق الذي هو من صنع هذا الخالق الذي

---

[1]) ظ : في ظلال نهج البلاغة : 2 / 456 .

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 5 / 169.

صوَّره فأحسن تصويره ورعاه ، وسخَّر له ما في السموات والأرض ، وطلب من ملائكته السجود تكريماً له وتعظيماً لخالقه ، فأداة النداء المقترنة بهاء التنبيه (أيُّها) والمردفة بالتركيب الخبري(**المَخلُوقُ السَّوِيُّ**) دلت هنا على التكريم والتبجيل لهذا المخلوق ؛ انطلاقاً من قوله تعالى:﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ **[التين: 4]** ، وقوله تعالى :﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**﴾**[الانفطار :7]** ، ثم هذا التكريم ما جاء إلا لكونه خلقًا متكاملاً شكلاً وروحًا . الذي دل على هذا البناء التكاملي المادي للإنسان لفظتان هما (السوي ، المرعي) اللتان تمثلان محور النص ؛ لأنَّهما تجسدان العلاقة التكاملية بين الخلق والبناء ؛ لأنَّ السَّوي لا تطلق إلا على الشيء التام المتكامل ، وهذا المعنى يتجسد في البناء ، الذي لابد من أن تكون له بداية لخلقه أو نشأته التي قدمها المتكلم تفصيلًا في النص فيما بعد ، والمرعي بأن هيأ له كل السبل وسخَّر له ما في الكون ليعينه على تحقق العبودية التي من أجلها خلق .

بعد أن بيَّن البناء الكلي للإنسان بالعبارة المجملة المذكورة أعلاه ، شرع في تفصيلات ذلك البناء وكيفية خلقه وبداية نشأته ، فالأفعال الماضوية المبنية للمفعول والمتمثلة بـ(**بُدِئتَ، وُضِعتَ**) دلت على بدء التكوين والبناء الداخلي للإنسان وما يجري عليه من تطورات وتحولات ذاتية تكاملية ، وفي هذا إشارة إلى الخلق الأول لآدم (**عليه السلام**) ، الذي مثلته شبه الجملة (**مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ**) التي جاءت وصفًا له ، والخلق الثاني لذريته المعبرة عنه شبه الجملة(**فِي قَرَارٍ مَكِينٍ**) المقيَّدة بالوصف المذكور، ولولا هذا القيد لامتنع علوق النطفة فيه [1]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر ، قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ**

---

[1]) ظ : شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 9 / 170.

● **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾[المؤمنون :12-13]** بعد ذلك ذكر المتكلم الجملة (**ثم أُخرِجتَ)** التي أفادت أمورًا عدة منها :

– **(ثم)** أفادت التراتبية الزمنية في مراحل التكوين ؛ أي أنَّ هناك فسحة من الزمن بين العلوق في رحم الأم وبين الخروج منه.

– الفعل **(أخرجت)** المبني للمفعول في (**ثُمَّ أُخرِجتَ مِن مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَم تَشهَدهَا ، وَلَم تَعرِف سُبُلَ مَنَافِعَهَا)** يفهم منه بالنظر إلى دخوله في السياق وخروجه منه ، أنَّ هناك معنيين للخروج ، أحدهما : **الخروج الاتصالي**[1] فيما إذا كان الخروج ينسجم مع السياق ؛ أي الخروج من المقر الذي هو الرحم المعبَّر عنه بظلمات الأستار إلى دار لم يشهدها ويريد بها فضاء الدنيا ، بوصفه أنَّ الروح والجسد في حالة اتصال تكاملي حيوي ، وحينما يخرج إلى الدنيا من ظلمات الرحم أيضا سيمارس عملية الاتصال مع الآخر ، التي تقترب من مفهوم التكامل المبني على الترابط والتماسك بين الأطراف بغية الوصول إلى بناء مجتمع متكامل كل فرد فيه يكون مكملاً للآخر .

والمعنى الآخر **الخروج الانفصالي**[2] فيما إذا اقتطعنا الفعل وما تعلّق به من النص؛ لإطلاق اللفظتين**(مقرك ، دار)** اللتين أفادتا العموم ، وهذا يعني خروجه من عالم الدنيا المقر المؤقت إلى العالم الأخروي الدائم ؛ لأنَّ الآخرة أيضا دار لم يشهدها ولم يعرف

---

[1]) تسمية اجترحتها للدلالة على نوع الخروج القائم على أساس التواصل مع سياقه ، ولتمييزه عن الخروج الانفصالي .

[2]) تسمية اجترحتها أيضاً للدلالة على نوع الخروج القائم على الانفصال عن سياقه ، ولتمييزه من الخروج الاتصالي .

سبل منافعها ، وإنما سمي انفصالي ؛ لأنَّ الروح تنفصل عن الجسد فيصبح العالم الثاني عالم الأرواح ، كما ينفصل الفرد عن المجتمع أو عن الآخر (الفرد) ، الذي طالما وطّد العلائق معه في العالم الدنيوي .

ولكن هذا المعنى فيما لو أخرجنا الفقرة من النص (**ثُمَّ أُخرِجتَ مِن مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَم تَشهَدهَا ، وَلَم تَعرِف سُبُلَ مَنَافِعِها**) وهو معنى بعيد ؛ لأنَّ النص ((نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض)) [1] ، ما يعني أنَّ الترابط النصي قائم على أساس تلك العلاقات الضمنية بين مكوناته اللفظية .

ثم ينهي النص بصورة تنبيه أخرى عن طريق أسلوب الاستفهام (**فَمَن هَدَاكَ لِاجتِرَارِ الغِذَاءِ مِن ثَديِّ أُمِّكَ ، وَعَرَّفَكَ عِندَ الحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ**) ؛ ليؤكد حقيقة وجودية تثبت أنَّ كل ما يجري في الكون من حركات وسكنات وراءها قوة خفية تتحكم بها ، بما فيها الرضيع الذي أودعه الله تعالى هذه الغريزة والمعرفة بحاجاته بحكم الفطرة ، وهي من نعمه سبحانه على عبده التي نبَّه عليها بهذا الأسلوب الاستفهامي التقريري ؛ ليقرَّ بأنَّ لهذا النظام الكوني صانعًا ((لا شيء يشبهه من الكائنات ، ولا هو يشبهها في شيء)) [2] ، وأفعاله معللة بالغايات ، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء واليه المناب ، وقد ذكر الكتاب العزيز هذا المعنى ، في قوله تعالى: ﴿**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾**[يس :83]**؛ أي إليه الرجعى فيحاسب هذا المخلوق الموصوف بالسوي المتكامل على كل صغيرة وكبيرة عملها في الدار التي شهدها بعد أن كان في مقرّه ولم يعرف سبلها النافعة والضارة ؛ لذا

---

[1] نسيج النص : 12 .

[2] في ظلال نهج البلاغة : 2 / 459 .

فالإنسان الذي يملك عقلًا كاملًا عليه بمراجعة نفسه بين الحين والحين ؛ لأنَّ فيها الربح والفوز بالجنان ، وهذه المحاسبة تنم عن التكامل السلوكي المعرفي–النوع الثاني من التكامل الذاتي– الذي لا يكاد نص في نهج البلاغة يخلو منه ، من ذلك ما ذكره الإمام **(عليه السلام)** في محاسبة العبد لنفسه وعلاقة ذلك بكمال عقله ، فقال : **((مَن حَاسَبَ نَفسَهُ رَبِحَ ، وَمَن غَفَل عَنهَا خَسِرَ ، وَمَن خَافَ أَمِنَ ، وَمَنِ اعتَبَرَ أَبصَرَ ، وَمَن أَبصَرَ فَهِمَ، وَمَن فَهِمَ عَلِمَ))**[1].

جاء الوعظ لذات الإنسان ؛ أي تكامل الفرد ذاتيًا نفسه بنفسه من الناحية السلوكية الناتجة عن العقل النير ، والمعرفة الواعية ؛ التي تركزت بأسلوب الشرط المهيمن على النص المعتمد طريقة الربط السببي ؛ أي أنَّ جواب الشرط مسبب ومعلول عن فعل الشرط ، أو أنَّ الأول سبب وعلة في حدوث الثاني ، وإنَّ القضايا الشرطية المكون منها النص تبدو كلبنات تسهم في بناء السلوك المعرفي للإنسان بدءاً بمحاسبة النفس التي هي بداية خلق السلوك، ونهايةً بالعلم ؛ الذي يعد المضمون المرتكز على أداة الشرط (من) المكررة في كل قضية شرطية ، التي شكلت المحور الأساس –الإنسان العاقل العارف– لكل القضايا الشرطية المتجاورة ، وأسهمت بتكرارها إسهاماً فعالاً في نسج النص بربط أجزائه بعضها ببعض ؛ إذ كوَّنت سلسلة خطِّيَّة تعاقبية تراتبية تكاملية ؛ لأنَّ كل قضية شرطية تتطلب بعدًا زمنيًا بين وقوع كل شرط في النص وتحقق جوابه ؛ ولأنَّ الشرط دلالته مستقبلية [2] –وإن كان ركناه ماضيين– فهذا ينسجم مع العلاقة التكاملية التي يفهم منها معنى الاستقبال ؛ لأنَّ التكامل

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 10 / 16 .

[2]) ظ : معاني النحو : 4 / 43 .

يتطلب مراحل متعددة مسبقة حتى يتم الوصول إليه ، فمحاسبة النفس في جملة **(مَن حَاسَبَ نَفسَهُ رَبِحَ)** دعامة النص الأولى ، وهي مخطط إجرائي للنفس يسبقه التيقظ والتذكر لما عمل من عمل صالح فيستمر عليه ، أو طالح فيتوقاه ، كأنَّما هو ترويض للنفس وكبح جماحها حتى تصل إلى الاكتمال وهو الربح ، وهذا ينم عن فهم تصديقي مسبق ؛ لأنَّه لو لم يصدّق بأنَّ محاسبة النفس ينتج عنها الربح الدنيوي والأخروي لغفل عنها كما في الجملة (**وَمَن غَفَلَ عَنهَا خَسِرَ)** دعامة النص الثاني التي احتوت كل مضامين الجمل الأخرى**(وَمَن خَافَ أَمِنَ ، وَمَنِ اعتَبَرَ أَبصَرَ ، وَمَن أَبصَرَ فَهِمَ ، وَمَن فَهِمَ عَلِمَ)** ؛ لأنَّ الغفلة تعني كل شيء سيء ، فإذا غفل عن نفسه لانشغاله بملذات الدنيا ولهوها لم يخف ، وإنَّما جاءت مجاورة لجملة الغفلة ؛ لأنَّ من أسباب عدم مخافة الله تعالى هي الغفلة ، وإذا رانت على القلب ختمت عليه، فمن كان هذا حال قلبه ، لم يعتبر ولم يتعظ بما يحل بغيره من العواقب والحوادث ؛ لطمس قلبه وطبعه بالمعاصي وضياع الوقت بالشهوات ، وإذا لم يحصل الاعتبار؛ لعدم وجود تطابق بين الحادثة والموعظة ، فإنَّه يحتاج إلى إعادة نظر في كل سلوكياته ، وإذا طُبِع على قلبه ماتت بصيرته فلم يعِ ولم يفهم ، ومن ثم ينتفي عنه العلم الذي يشكل مضمون النفس –كما ذكرنا– على العكس من حصول الاعتبار ، فإنَّه طريق لحصول البصيرة النافذة التي تساعد على بناء ذات الفرد وصناعتها بما يؤدي إلى تكاملها عن طريق التتابع الخطِّي السلوكي المعرفي ؛ لأنَّ تقويم السلوك ونضج المعرفة لدى الفرد لا تأتي دفعة واحدة وإنَّما تكون على شكل دفعات تدريجية متتابعة ومتعاقبة تسير باتجاه واحد عبر الزمان ، وهذا يتناغم وحركة الكون التي هي خير مرتع لنضج المعرفة وتعديل السلوك عن طريق التدبر

والتأمل في خطِّيَّة الكون وانسيابيته ، وهذا النظام العظيم الذي يتكون من الذرة إلى المجرة التي هي أكبر حجم فيه ، يسير بدقة متناهية على وفق القوانين التي أودعها الخالق فيه .

((**أَيُّهَا النَّاسُ مَن عَرَفَ مِن أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ ، فَلَا يَسمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ ، أَمَا أَنَّهُ قَد يَرمِي الرَّامِي ، وَتُخطِئُ السِّهَامُ ، وَيُحِيلُ الكَلَامُ**)) [1]. عند التدقيق في النص يلحظ الآتي :

– إنَّ النص يبني معماره اللفظي ابتداءً بالنداء الذي يتصف بالعموم ؛ إذ إنَّه في هذه الحال يفتح أبواب التلقي للكل من دون تمييز ، سواء أكان المعني به جمهوراً حاضراً أم جماعة غائبة ، وتباعدت الأمكنة أو تغيرت الأزمنة ، إلا إنَّ ذلك لا يمنع من تجاوزه زمانه ومكانه لحظة الإنشاء ، فهو يبدأ بجملة النداء (**أَيُّهَا النَّاسُ**) التي تنفتح في آفاق تلقيها بعيداً عن الجماعة الحاضرة ، بما يوفر لها فضاءات زمانية ومكانية غير منظورة ، ما يجعلها مورد توجيه الخطاب إلى الفرد من العموم ، بخاصة إذا عرفنا أنَّ المجتمع لا يمكن أن تكون عملية بنائه تامة من دون أن تتدرج هذه العملية البنائية من الفرد إلى المجموع ، ومن المجموع إلى الفرد ، وهو ما يمكن تسميته بالمفهوم التكاملي الذي لا يمكن أن يكون ذا تأثير حقيقي في عملية البناء المجتمعي من دون أن يكون قائماً على هذين الأساسين الهامّين ، بوصفهما ركنين أو دعامتين تقوم عليهما عملية البناء المجتمعي .

– ينطلق النص من خطاب العموم إلى الكلام عن الفرد بوصفه العنصر الحيوي في عملية البناء تلك ، في قوله (**مَن عَرَفَ مِن أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادِ طَرِيقٍ**) ، وهو هنا يبتعد عن التشخيص ويطرح الأمر على شكل فرضية تستبطن الإشارة الفردية من دون أن تكون

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 5 / 50 .

هناك قطيعة بين ما هو مطلوب وما هو مقصود ؛ ليؤسس مفهوماً اجتماعياً ينبني على أساس معرفي قائم على مبدأ الأخوة الواثقة التي هي الأخرى تعتمد على ركنين مهمين هما وثاقة الدين والطريق القويم ، وبذلك يضع حدوداً للتعامل الاجتماعي ؛ لكي تنشأ جماعة صالحة شغلها الشاغل هو بناء العلاقة المجتمعية الحقيقية ، وليس تلك التي تعتمد الخداع والتضليل ، وتتخذ من الغاية مبرراً للوسيلة .

– يعطي أسلوب الشرط المتمثل بـ(**مَن عَرَفَ مِن أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادِ طَرِيقٍ ، فَلَا يَسمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ** .....) معنى التعاقب الخطِّي على أرض الواقع ؛ إذ بعد أن تتحقق المعرفة الحقة في أخيه من وثاقة الدين واستقامة الطريق ، تأتي صيغة النهي المتمثلة بـ(..**فَلَا يَسمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ**...) ؛ لتبين المفهوم الخاطئ المقابل لتلك الحدود الصحيحة ، بحيث جعل من هذه العلاقة المقننة منهجاً اجتماعياً يقترن بالسلوك الفردي الذي ينبذ الأقاويل التي تضمر الافتراء ، من جهة ، ويؤسس لتلك العلاقة المجتمعية الصحيحة على وفق تلك الحدود التي وضعها النص من جهة أخرى ؛ إذ إنَّ صيغة جملة الأمر جعلت النص ينطلق وفق ترابط منطقي متماسك يسير في اتجاه خطيٍّ متحرك غير ساكن ، يسير بناءً على التشارك الاجتماعي القائم على المحددات السلوكية التي بيّنها النص .

وبعد أن يضع النص محدداته العلائقية بين الأفراد بشكل فردي وعلى أساس علاقة الجزء بالجزء ، وبين الفرد والمجتمع بوصفه جزءاً منه أي على أساس علاقة الجزء بالكل ، وبعد أن يصنع اتجاهه الخطِّي في ترتيب تلك العلاقة المجتمعية ، يفتح باب الحكمة في ضوء مجموعة جمل تنتمي في مبناها العام إلى النص ، لكنها تنفرد عنه في اتجاهها الحكمي لتصنع مظلة من حيث الشكل والمعنى لكل ما يدور في بنية النص المضمرة ، وهو قوله

(...**أَمَا أَنَّهُ قَد يَرمِي الرَّامِي ، وَتُخطِئُ السِّهَامُ ، وَيُحِيلُ الكَلَامُ** ...) الذي يرتكز في بنيته الشكلية على افتراض محتمل الوقوع يتبين عن طريق استعمال النص لأداة التحقيق (قد) مع الفعل المضارع (**يرمي ، تخطيء، يحيل**) ، لكنها تتقاطع في ضوء ترابطاتها النسيجية في المعنى المضمر الذي ينسجم مع النص بشكل كامل ، من دون أن يمس المعنى الظاهري بخدوش في بنيته التركيبية ، التي تعددت فيها الأزمنة ؛ إذ انتقل فيها النص من جملة الفعل الماضي (**عرف...**) إلى جملة الفعل المضارع –الحاضر والمستقبل– (**يسمعن ، يرمي ، تخطيء ، يحيل**) ، وهو ما يمنحها حركية واستمرارية تأخذ حريتها في الولوج إلى فضاءات غير محددة مجتمعياً ، زمانياً أو مكانياً، بوصف الخطاب قد أخذ صفة العمومية في جملة النداء (**أيّها الناس**) التي بدأ بها النص .

إنَّ الترابطات التي يتقاطع فيها النص لا تعني انهياراً في أسس النص ومبتنياته ، أو أنَّ هناك تنافراً أو تضاداً بين المعاني المتعددة التي يحتويها النص ، بل هو تكامل في المعنى بما يجعله يعطي جماليته في ضوء هذا الذي نسميه تقاطعاً ، كالنور والظلام حينما يتكاملان في تقاطعهما ، ويتقاطعان في تكاملهما ، وهو ما يمنحهما تلك الجمالية التي تظهر في ضوء هذا التقاطع .

وفي نص آخر يبدو التكامل الاجتماعي فردياً ، على عكس النص السابق الذي كان فيه التكامل الفردي اجتماعياً ، أي حينما ينطلق المعنى من الفرد بوصفه جزءاً إلى المجتمع بوصفه كلاً ، وهو ما يأتي عكس النص السابق الذي كان فيه التكامل ينطلق من المجتمع بوصفه كلاًّ إلى الفرد بوصفه جزءً ، وهو هنا يعكس روحية التكامل العام بين (المجتمع – الفرد ، والفرد – المجتمع) ، وهو قوله :

((احمِل نَفسَكَ مِن أَخِيكَ عِندَ صَرمِهِ عَلَى الصِّلَةِ ، وَعِندَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطفِ وَالمُقَارَبَةِ . وَعِندَ جُمُودِهِ عَلَى البَذلِ ، وَعِندَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدِّنُو . وَعِندَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِندَ جُرمِهِ عَلَى العُذرِ . حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعمَةٍ عَلَيكَ))[1].

يبدأ النص بفعل الأمر الدالة صيغته على الإباحة والإرشاد ، فهو يوفر لمنشئ النص سلطة هدفها الوصول إلى الغاية المنشودة لا سلطة جبارة ترغم المتلقي على الأخذ بما يسمع من المتكلم ؛ أي أنَّ المتكلم يعد نفسه المرشد الشفيق ؛ لأجل خلق سلوك ينتمي إلى الفضيلة فيكون ميداناً لها ، يبني في ضوئها أركان الفضائل الأخر، ما يجعلها شيئاً متحققًا على أرض الواقع ، وبما يتيح للآخر تلقيها بوصفها جزءاً من منظومة سلوكية تعتمد على مجموعة من الركائز التي تؤهلها لكي تكون الحاكمة اجتماعياً ، من جهة، والقائدة فردياً ، من جهة أخرى ؛ لأنَّ حكمها اجتماعياً يفسح مجالات تطبيقها بنسب متفاوتة بناءً على مستوى الفهم الاجتماعي ، إذ يختلف الأفراد في ذلك ، والفائدة فردية بحيث تمسك بزمام النفس البشرية وتضع لها ضوابط صارمة سلوكياً ، فالنص يبني تشجيره الدلالي على أساس فعل الأمر(احمل) الذي أصبح محور الفعل السلوكي القائد للأفعال التالية له ، وهو ما يمكن فهمه في ضوء الخطاطة الآتية :

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 8 / 255 .

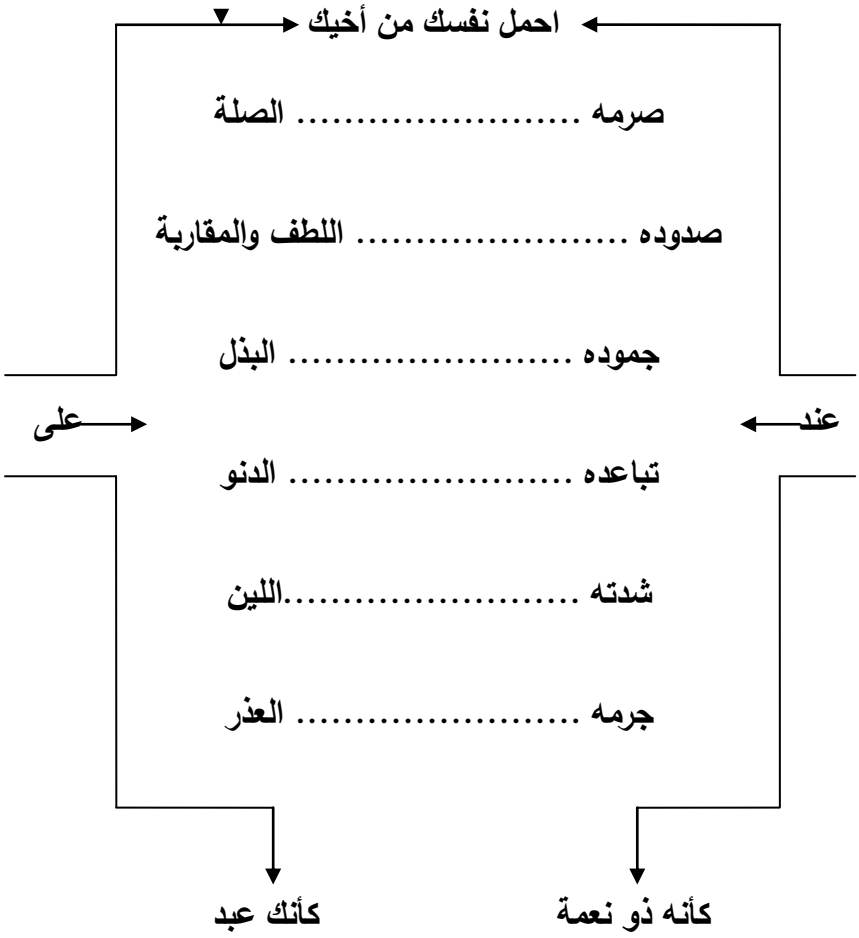

إذ تتكرر اللازمة **(عند)** التي تمثل الرابط الزماني والمكاني في النص ، وهي في الوقت نفسه تعدّ قاعدة انطلاق نفسية تبيح تلك السلوكيات التي تغدو فيها النفس أحياناً تغتصب نفسها اغتصاباً في مطاوعة السلوك الذي يرتئيه المجتمع أو يرضى عنه حينما يصدر عن الفرد ؛ إذ أحياناً يرى الفرد نفسه منساقاً مع المجتمع في منظومته القيمية ، وهنا النص يركز على إدامة العلاقة الثنائية ، في ضوء المرونة الفردية بإتباع اتجاه لا يمثل انحيازاً ذاتياً بقدر ما هو نوع من التناغم السلوكي ، بما يمنح كثيراً من السلوكيات شرعيتها الاجتماعية ، فضلاً عن شرعيتها الأخلاقية بوصفها تنتمي إلى منظومة الأخلاق العامة ، وقوله ((**احمِل نَفسَكَ مِن أَخِيكَ..**)) إنما يبيّن ذلك المفهوم الذي أشرنا إليه آنفاً ، فهو باستعماله فعل الأمر **(احمل)**

الذي في معناه المعجمي دلالة واضحة على الصعوبة والمعاناة التي تنتاب فاعله ، وأنَّ دلالات الألفاظ **(صَرمه ، صدوده ، جموده ، تباعده ، شدته ، جُرمه)** على المعاني المضمرة اللازمة لها ، تفيد المعنى العام للنص الذي ذهبنا إليه من قبل ، وهو تلك الشدة في إجبار النفس البشرية على سلوك أحياناً هي غير راغبة فيه ؛ لكنها مجبرة على تطبيقه، ومن هنا يمكن فهم عملية الترويض النفسي التي أشار إليها أمير المؤمنين **(عليه السلام)** حينما قال:((**وَإِنَّمَا هِيَ نَفسِي أُرَوِّضُهَا بِالتَّقوَى لِتَأتِيَ آمِنَةً يَومَ الفَزَعِ الأَكبَرِ)**)[1] ، وقوله في مكان آخر((**لَأَرُوضَنَّ نَفسِي رِيَاضَةً تَهُشُّ مَعَهَا إِلَى القُرصِ...الخ**))[2] ، هذه العملية النفسية تستوجب إتباع مجموعة قيم سلوكية بشكل خطِّي تجعل النفس مطواعة منقادة للعقل ، وهو ما عناه النص؛ لأنَّ (**الصرم والصدود والجمود والتباعد والشدة والجرم**) تمثل مراحل تحول العلاقة الثنائية حتى تصل إلى حد الجرم بحق الفرد ، والنص هنا لا يذهب بعيداً عن الواقع ، بل هو ينطبق تماماً على تلك المراحل واحدة فواحدة دون أي تفاوت أو لبس .

---

[1]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 8 / 318 .

[2]) المصدر نفسه : 8/ 374 .

المبحث الثالث

علاقة التلازم

• **مدخل :**

تتجلى العلاقة بين الخلق والبناء في كون وجود البناء مرهوناً بوجود الخلق لا ينفك عنه ، فإذا لم يكن الأول انتفى وجود الثاني ؛ لأنَّ التلازم في أوضح تعريفاته هو ((كون الحكم مقتضيا للآخر على معنى أن الحكم بحيث لو وقع يقتضي وقوع حكم آخر اقتضاءً ضروريًا))[١] ، وهذا يعني أنَّ هناك علاقة وثيقة بين مفهومي الخلق والبناء تسهم في تحقيق التعالق والتناسج الخطِّي على الصعيدين النصي والكوني ، تلك ((العلاقة الوطيدة التي تنظم الخطاب))[٢] ، وتعطي نوعاً من الترابط الخطِّي القائم على شرطية الوجود الظاهري أو الضمني بين القضايا النصية –الناقلة للقضايا الكونية– أي أنَّ التلازم يفهم ضمناً من دون وجود أدواته الإجرائية الدالة عليه ، وهذه العلاقة تستند إلى ركائز يُعبر عنها بالمتلازمين أو الملازمات ، التي يقع بينها التلازم ، كما في الجملة العربية ؛ إذ إنَّ((بعض التراكيب النحوية تتكون من مكونين متلازمين كل منهما يتطلب وجود الآخر))[٣] ، وهذا يعني أنَّ هناك علاقة مصاحبة أو مبادلة بين الطرفين ؛ نظراً لتحققهما وجودًا ، ولكن هذا لا يتحقق في كل الأطراف التي تكون بينها علاقة تلازم ، فالكون كالتركيب مكون من عناصر ومكونات يطلب أو يصحب بعضها بعضاً ، ولكن هذا الطلب أو المصاحبة إما أن تكون متبادلة بالفعل من

---

[١]) التعريفات : 193 ، ظ : معجم صليبا الفلسفي : 2 / 417.

[٢]) لسانيات الخطاب ، محمد خطابي : 115.

[٣]) مدخل إلى علم اللغة ، محمود حجازي : 109 . وظ : المصاحبة اللغوية في التعبير اللغوي : 115.

الطرفين الملزوم ولازمه وبالعكس ، أو أن تكون من طرف واحد كأن يكون الملزوم طالبا للتلازم بالقوة ، واللازم طالباً للملزوم بالفعل ، كما هو الحال في الخلق والبناء ، فالعلاقة بينهما تكون علاقة تلازم أحادية الطرف أو المرتكز، ففيما إذا كان الخلق مجرد فكرة لم تظهر على ساحة الوجود ، حينئذ يكون الخلق ملزومًا للبناء بالقوة لا بالفعل ، والبناء لازم للخلق بالفعل ؛ لأنَّه ظاهر للوجود ، والظاهر يتطلب أساسًا لوجوده ، وبناء على ما ذكر سابقا يمكن تقسيم التلازم على ضربين :

أولاً : التلازم المطلق :

ويدخل تحته الملازمات الأُخر الخارجية والذهنية التي يكون إدراكها بالعقل ؛ لأنَّ التلازم المطلق يعبِّر عنه بـ((الملازمة العقلية التي لا يمكن تصور خلاف لازمها)) [١] خارجًا أو ذهنًا ، فلا يُتصور اللازم (البناء) من دون ملزومه (الخلق) ضرورة ، ويمكن أن نطلق عليه بالتلازم المشروط ، ولكن يمكن تصور الخلق من دون البناء ، وهو التلازم اللامشروط، وفي كلا التلازمين العقل هو الحاكم فيهما ، من ذلك ما ورد في خطاب الإمام **(عليه السلام)** وهو في معرض بيان صفات الذات الإلهية التي هي علة الوجود ، غير المفتقر في وجوده إلى سواه ، بل هو الموجود في ذاته وبذاته الذي لا يطرأ عليه التغير [٢]، فقال**(عليه السلام)** : **((وَاحِدٌ لَا بِعَدَدٍ ، وَدَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ))** [٣] ، في النص إضاءات يبين فيها التلازم

---

١) المعجم الفلسفي ا : 2 / 417 .

٢) ظ : المصدر نفسه : 2 / 389 .

٣) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 7 / 30 .

اللامشروط بين الموجود المطلق وموجوداته المحدودة الوجود ، ويومئ إلى التلازم المشروط بين الموجود المفتقر الملزم إلى واجده أو فكرة وجوده ومن هذه الإضاءات :

الإضاءة الأولى : أفاد المعنى الظاهري للنص ، إثبات المثبت (**واحد ، دائم ، قائم**) والمنفي (**لا بعدد ، لا بأمد ، لا بعمد**) للواجب ، على حين أفاد المعنى الباطني ، نفي المنفي والمثبت عن الممكن .

الإضاءة الثانية : النص عبارة عن جمل خبرية تخبر عن موجود غير مذكور في النص وتقدير الكلام (الله واحد لا بعدد ، وكذا البواقي) ، والتركيب الخبري (واحد لا بعدد) أشار إلى نوعين من الوحدة ، **النوع الأول** : وحدة ظاهرة تفهم من التركيب ، وهي الوحدة الحقة للبارئ تعالى ، التي لا تدخل في باب الأعداد أو التعدد والكثرة [1] ، وتفهم من النفي بـ(لا) والباء المؤكدة ، والأوصاف(**واحد ، دائم ، قائم**) التي جاءت لموصوف واحد هو المولى جلَّ شأنه لا غير ، وهذا يستلزم عدم تعدده ، والتركيب (لا بعدد) يستبطن **النوع الآخر** من الوحدة ، وهي الوحدة التي تدخل في باب التعدد والكثرة للموجود الممكن ؛ ذلك البناء المتكامل المستلزم وجوده إلى واجده استلزاماً مشروطاً ؛ أي لا يتحقق إلا بتحقق ملزومه المعبّر عنه بالخلق ، الذي يعني الإنشاء والإيجاد.

الإضاءة الثالثة : التركيبان الخبريان(**دائم لا بأمد ، قائم لا بعمد**) أشارا إلى عوامل المحدودية باطناً ، وتعني كون الشيء واقعًا في إطار الزمان وحيز المكان [2] المتمثلة في لفظة (**بأمد**) الوحدة الإشارية الإجرائية المعبّر بها عن الزمان ، ولفظة (**بعمد**) المعبّر عنها

---

[1]) ظ : الإلهيات ، جعفر السبحاني : 2 / 16

[2])ظ : المصدر نفسه : 2 / 16 .

بالمكان ؛ لأنَّ العمد ما يقام عليه الشيء [1] ، وما يقام عليه يقتضي الجهة والتناهي والمحدودية في المكان[2] ، وهي من أوصاف الممكن المقيد المفتقر ، ما يعني أنَّ كل ما في الكون داخل تحت الزمان الخطِّي ، ويشغل حيزاً من المكان ، إلا المولى سبحانه تعالى عن ذلك علواً كبيراً . والخطاطة الآتية ستبين حقيقة الواجب المطلق الظاهرة في النص في ضوء الألفاظ المتداولة في النص ، وحقيقة الممكن –المحتاج إلى غيره في وجوده– المستبطنة ، التي تدرك عن طريق الألفاظ الظاهرة أيضاً .

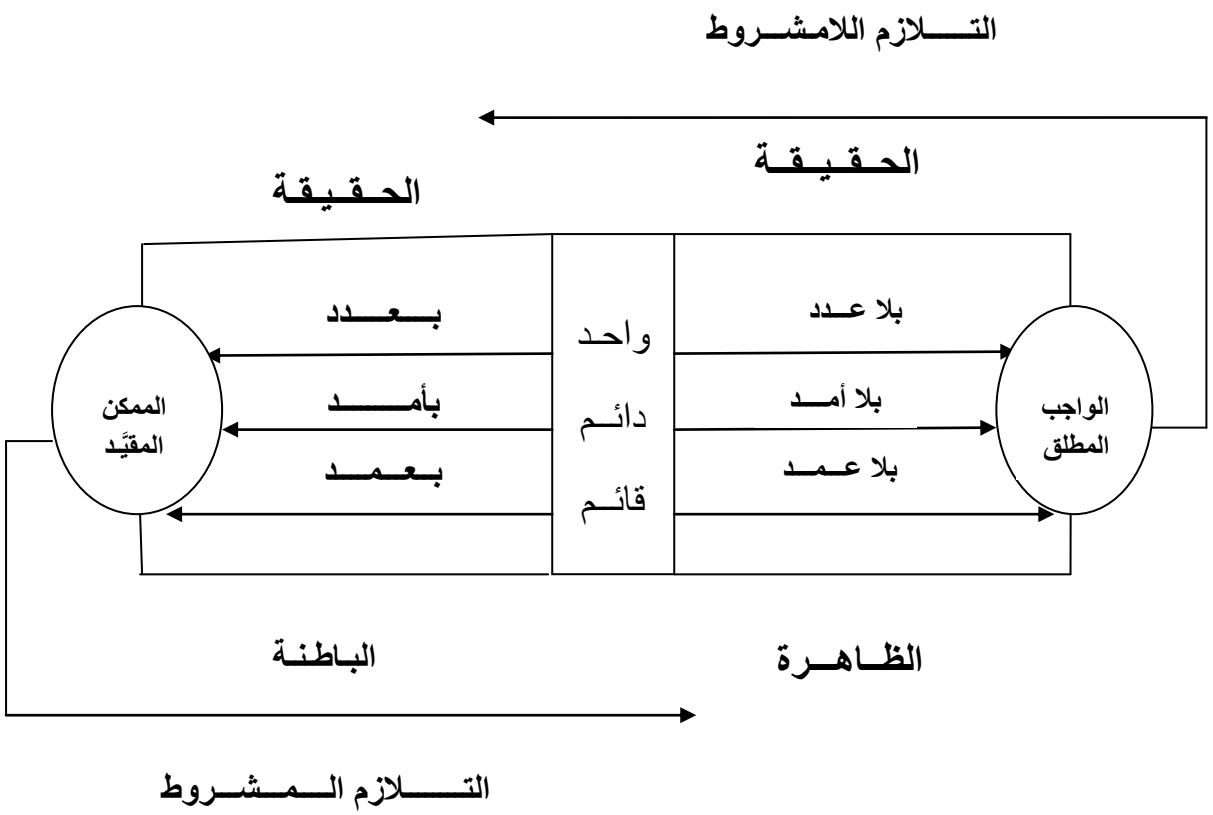

مخطط يبين نوعي التلازم والحقيقة الظاهرة والباطنة في النص

---

[1] ظ : لسان العرب : 3 / 303 ، مادة (عمد).

[2] ظ : الإلهيات : 2 / 17 .

للموجود المطلق والمقيَّد

الإضاءة الرابعة : النص عبارة عن سلسلة جملية من قضايا يقينية مكونة من محمولات اعتمدت الإشارة إلى موضوعها المحذوف في منظومة النص الجملية ؛ إذ لا تحتاج إلى ذكره لأنَّ الذهن لا ينصرف إلا إلى سواه ، وهو الله تعالى ، والإمام **(عليه السلام)** لم يذكره بناء على فهم المتلقي ؛ إذ إنَّه في معرض بيان صفات الخالق ، فالروابط الشكلية بين القضايا اليقينية المتمثلة بـ(الواو) الواصلة والتكرار لأداة النفي(لا) مع (الباء) لتوكيد النفي ، جاءت لتبين التلازم اللامشروط من جهة واجب الوجود عبر سلسلة من الجمل ؛ ولتؤكد أنَّ الوحدانية وأدلتها المتمثلة بالديمومية والقيومية هي ثابتة لله تعالى قطعًا وأبداً سواء وجدت موجوداته أم لا ، وإنما يستدل عليه العقل القاصر بآثاره من أجل توحيده ، وتكشف في الوقت نفسه عن النوع الآخر لهذا التلازم ، وهو التلازم المشروط من جهة الممكن المحتاج في وجوده إلى غيره، فضلا عن التلازم الجملي في النص ولا سيما بين المسند وصفته ؛ لأنَّ نفي العددية لازمة للواحد المطلق وكذا نفي الأمد والعمد ، فلو تُصوِر المسند (**واحد ، دائم ، قائم**) من غير وصفه وتحديده بـ(**لا بعدد ، لا بأمد ، لا بعمد**) لانصرف الذهن إلى الخلط بين الواحد العددي وغيره ، والى تقييد واجب الوجود بالزمان والمكان وهذا منافٍ للعقل والقرآن.

ثانيا:التلازم النسبي :

وهو على العكس من النوع الأول ويمكن أن نطلق عليه التلازم العادي ، وهو ما يمكن للعقل تصور خلاف اللازم كفساد العالم على تقدير أو تصور وجود أكثر من اله يدير

الكون[1] ، والكتاب العزيز أشار إلى هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[الأنبياء:22] ، والإمام **(عليه السلام)** أوضح هذا النوع من التلازم في أثناء كلامه للخوارج حينما تصوروا في معتقدهم واتهموه بالضلالة والكفر، وهو تصور خلاف اللازم ، واللازم أنَّه إمام معصوم لا ينطق عن الهوى ، ولكنَّه **(عليه السلام)** سار على مماشاة تصورهم هذا المنافي للعقل كي يلقي الحجة عليه ، فقال : **((فَإِن أَبَيتُم إِلاَّ أَن تَزعُمُوا أَنِّي أَخطَأتُ وَضَلَلتُ ، فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةَ مُحَمَدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ– بِضَلَالِي ، وَتَأخُذُونَهُم بِخَطَئِي ، وَتُكَفِّرُونَهُم بِذُنُوبِي ! سُيُوفُكُم عَلَى عَوَاتِقِكُم تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البُرءِ وَالسُّقمِ ، وَتَخلِطُونَ مَن أَذنَبَ بِمَن لَم يُذنِب))**[2].

النص عبارة عن ساحة محاججة أو مناظرة قامت على ثلاثة مرتكزات :

–مرتكز مناور مخاتل يدِّعي الزور ويحكم به وهم (الخوارج) ، الذي عبَّرت عنه أداة الشرط (إن) التي تستعمل في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك فيها [3]والمردفة بالفعل الماضي (أبيتم) الدال على التثبت والتحقق ، والفعل (تزعموا) الذي يشير إلى بطلان قولهم ؛ لتؤكد على أنَّ إصرارهم على معتقدهم الخاطئ مشكوك فيه ولا يحتمل وقوعه وإنَّما هو ناجم عن جهلهم المركب ، و(واو الجمع) في الأفعال المضارعة (**تضللون ، تأخذون ، تكفِّرون ، تضعون ، تخلطون**) الدالة على الاستمرار والتجدد ؛ لتدل على استمرارهم في ضلالتهم

---

[1]) ظ : التعريفات : 183 ، وظ : المعجم الفلسفي : 2 / 417.

[2]) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : 4 / 267 .

) ظ : شرح المفصل ، الزمخشري : 5 / 113 .

وعصيانهم وتضليل غيرهم وإدلاء التهم التي على أساسها يحكمون بقتل الأبرياء ممن لم يتبعوا ضلالهم .

– مرتكز مستقيم صائب يدعو إلى الحق ويحكم به وهو الإمام علي **(عليه السلام)** ، الذي يفهم من المعنى الضدِّي للتراكيب الفعلية والاسمية المنسوبة إليه بزعمهم الكاذب الباطل، وجهلهم المطبق ، وحقدهم الدفين ، والمتمثلة بـ(**أخطأت ، ضللت ، بخطئي، بذنوبي)**، وسؤاله **(عليه السلام)** لهم (**فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةَ مُحَمَدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيهِ– بِضَلَالِي ، وَتَأخُذُونَهُم بِخَطَئِي ، وَتُكَفِّرُونَهُم بِذُنُوبِي)** الذي لم يكن القصد منه الاستفهام ، بل هو ناتج عن افتراضهم الخاطئ وحكمهم الباطل ، فجاء السؤال لغرض التنبيه على ضلالتهم وخلطهم للأمور؛ لمعرفته بنواياهم وما يؤولون إليه ، ولأنَّ الإمام **(عليه السلام)** في مقام المحاجّة كما ذكرت الذي يدل عليه السياق ، أراد أن ينبههم على وضوح فساد الطريق [1] الذي هم عليه لما فيه هلاكهم وهلاك أمة محمد **(صلى الله عليه وآله وسلم)** ، واستدلهم على ذلك بالقرآن الذي جعلوه حكمًا في ساح الوغى ، قال تعالى :﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[الأنعام:164] ؛ أي أنَّ المعبود قاضي السموات والأرض لم يأخذ العباد ويعاقبهم بذنوب غيرهم ، فكيف أنتم العبيد تقضون بضلالي وخطئي ومن ثم تأخذون العوام وتقتلونهم لا لجرم يقترفونه سوى أنَّهم عرفوا الحق فاتبعوه الذي هو كفر في ظنكم وجهلكم ، ولما كان الشرط (إن أبيتم إلا أن تزعموا ...الخ) لا يقطع بتحققه في زمن التكلم ولا مستقبلا ، جاء جوابه بصورة الاستفهام الإنكاري التوبيخي مقترنا بالفاء التي أسهمت بربط الكلام خطِّيًّاً.

---

[1]) ظ : مختصر المعاني ، التفتازاني : 3 / 16 .

– مرتكز وسيط بينهما وهم السواد من العرب أو عامة الناس ، وعبَّر عنهم بـ(عامة أمة محمد – صلى الله عليه–) ، الذين يفهم من سياق الخطاب أنَّهم لم يكونوا مع الخوارج في ما يرونه ، وأنَّهم مع إمام المسلمين الحق يقاتلون تحت رايته وبإمرته ، فجاء رأي الخوارج عقاباً لهؤلاء ؛ لإتباعهم الإمام علي (عليه السلام) .

بين الاستفهام وعبارة **(سُيُوفُكُم عَلَى عَوَاتِقِكُم تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البُرءِ وَالسُّقمِ ، وَتَخلُطُونَ مَن أَذنَبَ بِمَن لَم يُذنِب)** قد يتوهم المتلقي بوجود ثغرة بين الكلامين السابق واللاحق ، وفي الحقيقة جاء الفصل لإيضاح ما كان خفياً للمتلقي ، بل يكشف التتابع الخطِّي للنص على الرغم من غياب الرابط الشكلي ، كما يكشف السير الخطِّي للمتكلم في قوله وفعله((فعلاقة الكلام اللاحق بالسابق علاقة تجلية وتوضيح)) [1] ، والإمام **(عليه السلام)** في مقام المحاجّة التي تتطلب الإقناع والتوضيح والتبيين لأفعالهم السلبية، فكان التركيب الأول المتمثل **بـ(تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ البُرءِ وَالسُّقمِ)** نتيجة سابقة لـ**(وَتَخلُطُونَ مَن أَذنَبَ بِمَن لَم يُذنِب)** ؛ لأنَّ وضع السيف على عنق البريء وغيره ، إنَّما هو بسبب الخلط الفاسد للأمور ، وعدم وضوح الرؤية للمخاطب ؛ لهيمنة قوى الشر على نفسه ، وعدم الرضوخ إلى الحق .

قوة الحجة لا تستدعي الكثرة ، فضمائر الخطاب المباشر الدالة على الثلة الضالة عن جادة الصواب ، والملازمة للألفاظ الحركية المتمثلة بـ(تم) في (أبيتم) و(الكاف) في (سيوفكم ، عواتقكم)، و(الواو) في (تزعموا ، تضللون ، تأخذون ، تكفرون) بالرغم من كثرتها في النص لكن العائدة إليهم هذه الضمائر ، كانت حجتهم ضعيفة بدلالة سفكهم دماء الأبرياء ، أي أنَّ جانبهم الفعلي المتهور الذي لا ينم عن شجاعة ، أقوى من الجانب القولي ، إذا ما قورن

---

[1]) لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي : 115.

بالطرف الآخر الذي تحيلنا إليه الضمائر العائدة للمتكلم (تاء المتكلم) في (أخطأت، ضللت)، و(الياء) في (بخطئي ، بذنوبي) ، التي تنم عن قوة حجة المتكلم من الجانبين القولي والفعلي، بدلالة مماشاتهم في اتهامه لنفسه من أجل إظهار مكنوناتهم أمام الملأ ، ودحض قولهم الذي يزعمون .

وهنا نستطيع القول إنَّ الغرض من النص قد اتضح وهو بيان خلاف اللازم المتمثل بتصورهم الخاطئ الناتج عن المعتقد الزائف ، وفي الوقت نفسه يثبت النص خلاف خلاف اللازم؛ أي يثبت اللازم ؛ لأنَّ نفي النفي إثبات ، وهو أنَّ الإمام **(عليه السلام)** منزَّه عن مدَّعاهم ، في الوقت الذي تبين فيه كذب ادعائهم وفساد رأيهم .

الخاتمة

بعد الجولة الممتعة في رحاب نهج الإمام علي (عليه السلام) والتنقل بين خطاباته والوقوف عندها وقفة المتأمل ، تلك الجولة القصيرة في مداها العميقة في محتواها ، يمكن إعطاء صورة موجزة لما انتهى إليه البحث تمثل ابرز نتائجه ، وهي كالآتي :

– الخطِّيَّة مفهوم رياضي فيزيائي جرى استعماله في دراسة اللغة من قبل دارسي اللسانيات ؛ لما يوجد من تشابه بينهما ؛ لأنَّ الرياضيات نظام يعتمد الرمز والإشارة ، واللغة نظام يميل إلى الرمزية والإيحاء والاقتصاد ؛ لأن اللغة هي سلسلة من الكلمات المتعاقبة نطقياً .

– الخطِّيَّة الزمانية تعني السير باتجاه واحد ، وهي متعلقة بالزمان لا غير ؛ لأنَّه يسير بخط أفقي واحد لا يتغير، وتسلسل الأحداث واختلافها دليل على أفقية الزمان ؛ لذا ارتكزت على محاور ثلاثة ، التعاقب الذي يبين سير الأحداث واحداً تلو الآخر، والتزامن يشير إلى تعدد أمكنة الحدث ووحدة الزمان ، والتراتب يعني سرد هذه الأحداث المتعاقبة تارة والمتزامنة تارة أخرى عن طريق اللغة .

– توصل البحث من خلال نصوص نهج البلاغة إلى أنَّ هناك نوعين من الخلق ، الخلق التقديري، الذي قرره الدليل النقلي القرآن والسنة ، الذي ينسجم مع التقدير اللغوي من جهة وجوده في الذهن لا في الخارج ، والخلق الإبداعي الذي يعرف من خلال آثار المبدع .

– الإبداع المتصف به الإنسان مستمد من خالقه ، فيكون خلقه للموجود من موجود، لأنَّه يمتلك عقلاً يحمل في داخله فكراً ، ويمتلك لغة معبّرة عن هذا الفكر، تترجم أفعاله وتظهرها على أرض الواقع الفعلي والقولي المتمثل بالنص .

– اللغة المنطوقة المتمثلة بالرموز والتراكيب والجمل ، جاءت منسجمة ومتناغمة خطِّياً مع حركية اللغة غير المنطوقة المتمثلة بالأحداث الكونية ، كما هو الحال في النص الذي تحدث فيه عن مراحل خلق الإنسان إذ قال : ((**أَم هَذَا الَّذِي أَنشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الأَرحَامِ ، وَشُغَفِ الأَستَارِ ، نُطفَةً دِهَاقًا، وَعَلَقَةً مِحَاقًا ، وَجَنِيناً ، وَرَاضِعاً ، وَوَلِيداً ، وَيَافِعًا، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلباً حَافِظًا ، وَلِسَانًا لَافِظاً ، وَبَصَراً لَاحِظاً ، لِيَفهَمَ مُعتَبِراً ، وَيُقَصِّرَ مُزدَجِراً**)) ، فيلحظ التراكيب الجملية التي مثلت اللغة المنطوقة جاءت متتابعة بشكل خطِّي منسجمة مع تتابعها الفعلي الذي مثلته اللغة غير المنطوقة .

– البناء مفهوم كلي مكوَّن من جزئيات صغيرة تشكل ذلك البناء عن طريق اتساقها خطِّياً الذي عبّر عنه البناء التركيبي ، وانسجامها معنوياً الذي بيَّنه البناء الدلالي ، فهذا البناء الكلي أسهم في تكوين النظام المعرفي المنسجم والمتناغم مع النظام الكوني بوصفه منظومة مناظرة للنظام اللغوي .

– غياب التزامن في اللغة المكتوبة أو المنطوقة واقتصاره على اللغة غير المنطوقة ، بوصفه أن التزامن حصول حدثين في آن واحد ، وهذا الأمر لا يكون إلا في اللغة الإشارية التي عبَّرت عنها الأحداث الفعلية الكونية .

– الخلق فكرة والبناء جسد هذه الفكرة ، وهو ما تتمخض منه علائق تبعاً لفهم الرابط بينهما ، فإذا كان الفهم يوحي إلى أنَّ البناء مكمل لفكرة الخلق ومتضامن معها لتأدية ما نقص منها ، كانت العلاقة تضامنية وتكاملية بشكل تعاقبي خطِّي ، وإذا كان الفهم يبين أنَّ البناء نتيجة لفكرة الخلق كانت العلاقة تلازمية مشروطة ، و إن كان الخلق مسبباً للبناء أو غير مسبب ، فتكون العلاقة تلازمية لا مشروطة .

– أسهمت الروابط الشكلية ولا سيما الأدوات (ثم ، واو الوصل ، فاء التعقيب) فضلاً عن المعنوية إسهاماً فاعلاً في بيان معنى التتابع الخطِّي ، إلا إنَّ الأداة(ثم) كانت هي المهيمنة على الساحة النصية ؛ ذلك أنَّها أعطت معنى التراخي في الزمن المتناغم مع التعاقب الخطِّي الذي أعطى بُعداً علائقياً للحدث الكوني .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

/// القران الكريم

- الإبداع ، عابد خزندار ، الهيأة العامة المصرية للكتاب ، (د . ط) ، 1988م .
- اتجاهات البحث اللساني ، مليكا افيتش ؛ ترجمة : دكتور سعد عبد العزيز مصلوح ، دكتورة وفاء كامل فايد ، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ط : 2 ، (د . ت) .
- الإتقان في علوم القرآن ، الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت911هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، إصدار ، وزارة الشؤون الإسلامية
- والأوقاف والدعوة والارشاد ، المملكة العربية السعودية ، (د.ط) ، (د.ت) .
- الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني ، أنس بن محمود فجّال ، نادي الإحساء الأدبي ، (د . م) ، ط : 1 ، 1434هـ – 2013 م .
- أسرار الحروف والأعداد ، علي بوصخر ؛ إشراف العلامة آية الله الشيخ عبد الكريم العقيلي، مؤسسة بنت الرسول صلى الله عليه وآله لإحياء تراث أهل البيت عليهم السلام، ط : 1 ، 1424هـ – 2003 م .
- أسس الرياضيات والمفاهيم الهندسية الأساسية ، فاضل سلامة شنطاوي ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، ط : 1 ، عمان – الأردن ، 1428هـ– 2008م .

الإشارات والتنبيهات ، أبو علي ابن سينا ، تحقيق : الدكتور سليمان دنيا ، شرح : نصير الدين الطوسي ، دار المعارف ، ط : 3 ، 1983م .

• أشكال الزمان والمكان في الرواية ، ميخائيل باختين ، ترجمة : يوسف حلاق ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق – سوريا ، (د. ط) ، 1990 م .

• أصول الكافي ، المحدث الخبير ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني الرازي ، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط :1 ، 1425هـ – 2005م .

• الإلهيات على هدى الكتاب والسُّنة والعقل ، محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني بقلم الشيخ حسن محمد مكي العاملي ، دار هشام للنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط: 1 ، 1426هـ – 2005 م .

• الألسنية والتوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية ، ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، (د . م) ، ط :2 ، 1406هـ - 1986م .

• الامتداد الزمكاني في نهج البلاغة ، د . عبد الحسين العمري ، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع ، العراق ، ط : 1 ، 2016م .

• انتاج الدلالة الأدبية ، دكتور صلاح فضل ، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط :1 ، 1987م .

• اينشتاين والنسبية ، مصطفى محمود ، (د.ط) ، (د . ت) ، (د . م) .

• البحث عن فردينان دو سوسير، ميشال أريفيه ؛ ترجمه وقدَّم له وعلق عليه: أ.د. محمد خير محمود البقاعي، مراجعة : د نادر سراج ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت – لبنان ، ط : 1 ، 2009م.

- بداية الحكمة ، الأستاذ العلامة السيد محمد حمين الطباطبائي ، صحح متن الكتاب وحققه وضبط نصوصه حجة الإسلام الشيخ عباس علي الزارعي السبزواري ، مؤسسة المعارف الإسلامية ، (د .ط) ، (د .ت) .

- البرهان في علوم القرآن ، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحـ : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، (د . ط) ، (د . ت) .
- البناء المنطقي للعالم والمسائل الزائفة في الفلسفة ، رودولف كارناب ، ترجمة وتقديم : يوسف تيبس ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت–لبنان ، ط : 1 ، 2011م.
- البنية التركيبية في الخطاب الشعري (قراءة تحليلية للقصيدة العربية في القرنين السابع والثامن الهجريين – العصر المملوكي) ، د . يوسف اسماعيل ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، (د . ط) ، 2012 م .
- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني ، الدكتور تمام حسان ، الناشر عالم الكتب ، ط : 1 ، 1413هـ – 1993 م .
- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد

هارون، (د . ط) ، (د . ت).

• تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي(ت 1452هـ)؛ تحقيق : الدكتور ضاحي عبد الباقي ، مراجعة : الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب ، ط : 1 ، مؤسسة الكويت ،1422هـ – 2001م .

• التدبير الإلهي الأساس العلمي لعالم منطقي، بول ديفز؛ ترجمة : محمد الجورا ، مراجعة:د.جهاد ملحم ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، سورية – دمشق ، ط : 1 ، 2009م .

• التزامن والأسطورة والألعبان ، ألان كومبس ، مارك هولند ؛ ترجمة : ثائر ديب ، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع ، سورية – دمشق ، ط : 2 ، 2008 م .

• تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، الإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط : 1 ، 1401هـ – 1981 م .

• الجنى الداني في حروف المعاني ، الحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق : الدكتور فخر الدين قضاوة ، الأستاذ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ط:1 ، 1413هـ – 1992م .

•خصائص الحروف العربية ومعانيها ، حمن عباس ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، (د.ط)، 1998م .

• الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية ، الدكتور حسين العمري ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط : 1 ، 2010 م .

• سوسيو لسانيات نهج البلاغة ، د نعمة دهش الطائي ؛ تقديم : أ . د . نعمة رحيم العزاوي ، دار المرتضى ، العراق – بغداد ، (د . ط) ، 2013 م .

• سيمياء الكون ، يوري لوتمان ؛ ترجمة: عبد المجيد نوسي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط : 1 ، 2011م .

• شذا العرف في فن الصرف ، الأستاذ الشيخ محمد الحملاوي ، ضبط وتصحيح : محمود شاكر ، مؤسسة النبراس للطباعة والنشر ، (د.ت).

• شرح بداية الحكمة ، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، شرح وتحقيق : محمد مهدي المؤمن ، سبهر ، منشورات ذوي القربى ، ط : 1 ، 1422هـ.

• شرح مختصر المعاني للتفتازاني دروس في البلاغة ، الشيخ محمدي الباميانى ، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان،ط : 2،1434هـ – 2013 م

• شرح المفصل للزمخشري ، موفق الدين أبي البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلي(ت643هـ) ؛ قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه : الدكتور إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط : 1 ، 1421هـ – 2001 م .

• شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ؛ تحقيق : محمد ابراهيم ، دار الكتاب العربي ، بغداد ، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط : 1، 1428هـ – 2007م.

• شرح نهج البلاغة ، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت 679هـ) ، دار الثقلين ، بيروت – لبنان، ط : 1 ، 1420هـ – 1999م .

• صحيح ابن حبان ، ابن حبان(ت 354هـ) ، تحـ : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، مصر ، ط :2 ، 1993م.

• العلاقة بين اللغة والفكر ، د . أحمد عبد الرحمن حماد ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، (د . ط) ، 1985 م .

• علم الدلالة ، جون لاينز، ترجمة : مجيد الماشطة وآخرين ، مطبعة جامعة البصرة، ط : 1 ، 1980م.

• علم اللغة العام ، فرديناند دي سوسير ؛ ترجمة : الدكتور يوئيل يوسف عزيز ، مراجعة النص العربي : د . مالك يوسف المطلبي ، ط :3 ، دار آفاق عربية ، (د.ت) ، (د.م)

• فتح المنعم شرح صحيح مسلم كتاب الإيمان ، الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين ، دار الشروق ، القاهرة ، ط : 1 ، 1423هـ – 2002 م .

• الفروق في اللغة ، الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال العسكري (ت 395هـ) ، حققه وعلّق حواشيه ووضع فهارسه : جمال عبد الغني مدغمش ، مؤسسة النشر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ط : 1 ، 1422هـ – 2002 م .

• الفكر العلمي الفلسفي ، الدكتور وهاب كريم الثامر ، دار الجواهري – بغداد (د . ط) ، 2014 م .

• فكرة الزمان عبر التاريخ ، كولن ولسن ؛ ترجمة : فؤاد كامل ، مراجعة شوقي جلال ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، (د. ط) ، (د .ت) .

• في ظلال نهج البلاغة محاولة لفهم جديد ، شرح : محمد جواد مغنية ، دار العلم للملايين،

مطبعة العلوم ، بيروت–لبنان ، ط : 1 ، 1972 م .

• القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان ، أزوالد ديكرو ، جان ماري سشايفر ، ترجمة : د. منذر عياشي ، المركز الثقافي العربي ، (د . ط) ، (د . ت) .

• الكتاب كتاب سيبويه ، أبو بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر(ت 180هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط : 3 ، 1408هـ – 1988م.

• كتاب دلائل الإعجاز ، الشيخ الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت 471هـ أو 474هـ) ؛ قرأه وعلّق عليه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية بمصر ، ط : 3 ، 1413 هـ – 1992 م.

• الله خالق الكون ، جعفر الهادي ، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) ، ط: 2 ، 1424هـ.

• لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت 711هـ) ، دار صادر – بيروت ، (د.ط) ، 1405هـ – 1968م .

•اللسان والإنسان مدخل إلى معرفة اللغة ، الدكتور حسن ظاظا ، دار القلم ، دمشق ، ط : 2 ، 1410 هـ – 1990 م .

• لسانيات الخطاب (مدخل إلى انسجام الخطاب) ، محمد خطابي ، الناشر المركز الثقافي، الدار البيضاء – المغرب ، ط : 2 ، 2006 م .

• اللغة العربية معناها ومبناها : دكتور تمام حسان ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، (د . ط) ، 1994 م .

• اللغة والتأويل مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي ، عمارة ناصر، دار الفارابي ، بيروت – لبنان ، ط : 1 ، 1428هـ – 2007 م .

• محنة المثقف (دراسة نصوص عبد الله بن المقفع أسلوبياً) ، د . عبد الحسين العمري، تموز طباعة . نشر . توزيع ، دمشق ، ط : 1 ، 2012 م .

• مدخل إلى علم اللغة ، د . محمود فهمي حجازي ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، طبعة جديدة مزيدة ومنقحة ، (د . ت) .

• مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية ، الدكتور زكريا إبراهيم ، الناشر مكتبة مصر ، (د. ط)، 1990 م .

• مشكلة الزمن من الفلسفة إلى العلم ، أحمد دعدوش ، دار ناشري للنشر الألكتروني ، (د .ط) ، (د . م) ، 1431هـ – 2011م.

• معاني النحو ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار السلاطين للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن – عمان، ط : 1 ، 1431هـ – 2010 م .

• معجم التعريفات ، العلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (ت 816هـ) ؛ تحقيق ودراسة : محمد صديق المنشاوي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير ، (د.ط) ، 2004م .

• المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية ، الدكتور جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان ، (د . ط) ، (د .ت) .

• معجم المصطلحات الألسنية ، الدكتور مبارك مبارك ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط:

1، 1995 م .

• معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة و كامل المهندس ، مكتبة لبنان، بيروت ، ط : 2 ، 1984 م .

• معجم المصطلحات اللسانية ، د .عبد القادر الفاسي الفهري بمشاركة د . نادية العمري، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت – لبنان ، ط : 1 ، 2009 م .

• معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ) ؛ تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، (د . ط) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1399هـ – 1979م.

• مفتاح العلوم ، الإمام سراج الملة والدين أبي يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي السكاكي(ت626هـ) ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط : 2 ، 1407هـ – 1987 م .

• المنطق، العلامة محمد رضا المظفر ، الناشر اسماعيليان ، نينوى ، قم ، ط : 12 ، 1425هـ.

• موسوعة لالاند الفلسفية ، اندريه لالاند ؛ تعريب : خليل أحمد خليل ، تعهده وأشرف عليه حصراً : أحمد عويدات ، منشورات عويدات ، بيروت – باريس ، ط : 2 ، 2001م .

نافذة على الفلسفة ، صادق الساعدي ، منشورات جامعة المصطفى(صلى الله عليه وآله وسلم)العالمية ، قم ، ط : 3 ، 1429 هـ .

• النسق القرآني دراسة أسلوبية ، الدكتور محمد ديب الجاجي ، دار القبلة للثقافة الإسلامية،

جدة– المملكة العربية السعودية ، ط : 1 ، 1431هـ – 2010 م .

• نسيج النص (بحث في ما به يكون الملفوظ نصاً) ، الأزهر الزنّاد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط : 1 ، 1993 م .

• نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، الدكتور مصطفى حميدة ، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان ، ط : 1 ، 1997 م .

• النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون ، فاطمة الطبال بركة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط : 1 ، 1413هـ – 1993 م .

• النظرية البنائية في النقد الأدبي ، دكتور صلاح فضل ، دار الشروق ، القاهرة، ط : 1، 1419هـ – 1998 م .

• نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري ، الدكتور حسام أحمد فرج ، تقديم : الأستاذ الدكتور سليمان العطار، الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي ، الناشر مكتبة الآداب، القاهرة ، ط : 1 ، 1428هـ – 2003 م .

• الوصائل في تحليل المحادثة دراسة في استراتيجيات الخطاب ، الدكتور خليفة الميساوي، الناشر عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، ط : 1 ، 2012 م .

ثانيا : الرسائل والأطاريح .

• الاتساق والانسجام في القرآن ، مفتاح بن عروس ، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الجزائر ، 2008 م .

• أدوات الاتساق وآليات الانسجام في قصيدة الهمزية النبوية لأحمد شوقي، سوداني عبد الحق ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الحاج لخضر–

باتنة– ، 2009 م .

• البحث الدلالي عند المعتزلة ، علي حاتم الحسن ، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ، 1419هـ – 1999 م .

• البنية التركيبية لمكملات العملية ا لإسنادية بين القاعدة والمتبقي ، مضيان عواد الرشيدي ، أطروحة دكتوراه ، عمادة الدراسات العليا ، جامعة مؤتة ، س2013 م .

• المصاحبة اللغوية وأثرها في تحديد الدلالة في القرآن الكريم (دراسة نظرية تطبيقية)، حمادة محمد عبد الفتاح الحسيني ، أطروحة دكتوراه ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، جامعة الأزهر ، 1428هـ – 2007 م .

• مفهوم الجملة في كتاب سيبويه ، حسن عبد الغني محمد جواد الأسدي ، أطروحة دكتوراه، كلية التربية ، جامعة المستنصرية ، 1999 م .

ثالثا : البحوث والدوريات :

- دلالات البكاء وموضوعاته في الشعر الأموي ، الأستاذ المساعد الدكتور بدران عبد الحسين البياتي ، مجلة كلية الآداب ، ع98 ، كلية التربية ، جامعة كركوك .
- سيميولوجيا اللغة ، إميل بنفينيست ، ترجمة سيزا قاسم ، مجلة فصول عدد3 لسنة 1981.
- علاقة اللسانيات بالرياضيات رهانات أم عقبات ، صابر حبجة ،مجلة المخاطبات وزارة التربية ، البحرين ، 2013م .